كيف نصنع المستقبل؟

هذا الكتاب ترجمة لـ :

Roger Garaudy
L'avenir: Mode d'emploi
Parıs: ed. Vent du large 1998

الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

الطبعة الثانية ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

الطبعة الثالثة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى
- رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤
هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)

روچيه جارودى

كيف نصنع المستقبل؟

ترجمة وتقديم

د. منى طلبة   د. أنور مغيث

دار الشروق

مقدمة

حين استضافت مصر روچيه جارودى بمناسبة صدور كتابه «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» فى منتصف التسعينيات؛ ليحاضر فى مكتبة القاهرة الكبرى، استلفت انتباهنا ما لدى الرجل من عزم، يتجاوز تقدم العمر إلى الفناء، كما يتجاوز رفاهية استرخاء الساكتين عن الحق، ويأس المناضلين من جدوى الكفاح، وثقة المثاليين فى كمال لا يجوز بعده إبداع.

وجدنا فى هذا الكتاب «كيف نصنع المستقبل» إصراراً منه على استكمال مشروع الأمل، وشاهداً على صلابته وشجاعته وعزمه على المضى نحو النور، ومكملاً لفلسفة العمل والروح التى تنتصر لها كتاباته.

ذلك أن فلسفة جارودى لا تخضع ـ وعلى الرغم من تكاثر أصوات المعارضين أو المؤيدين له ـ للتصنيفات الجاهزة، فجارودى لم يتخل عن الماركسية كفلسفة للعدالة الاجتماعية، كما لم يتخل عن الحب والزهد فى المسيحية، ولم يتخل عن الإسلام كدين يميزه أنه مؤسس على الاعتراف بكل الأديان والكتب والرسل، وعلى استيعاب الإنسان أيّاً كان موقعه الثقافى بقدر ما هو ضمير يرقى، وتقوى تتواضع.

وقد بدا المزج بين هذه المناحى غريبًا على الكثيرين ممن لا يروقهم فهم جوهر الدين فى إطار العدالة والمحبة، أو فهم العدالة فى إطارها الروحانى. وكان جارودى مُصرّاً على أنه لا يلفّق ولا

يتزعزع، وإنما يبشر بإمكان عالم جديد لا تنفصل فيه العدالة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية عن تقوى الله، ولا يتضاد فيه «وعى الأنا» مع «الوعى بالآخر».

كان إيمانه بالعدالة الاجتماعية عميقًا إلى الحد الذى شكك فيه فى جدوى الأنظمة الشمولية الدكتاتورية الطاغية، وجدوى الأنظمة الرأسمالية المتوحشة الأنانية. وكان إيمانه بالله عميقًا إلى الحد الذى استحى معه أن يهزأ بأى محاولة إنسانية للتعالى، أيا كان اسم الدين الذى تنتسب إليه. وسلك جارودى فى سبيل غايته هذه منهجًا يجمع بين النقد والمبادرة، نقد الأوضاع الزائفة والمبادرة إلى مهام جديدة بديلة. وهو لا يتوانى عن نقد الغرب الأمريكى فى هيمنته البشعة على العالم والتى تقود الكوكب كله إلى الهلاك، وانتقد ما اعترى المسيحية من مسحة متسلطة رومانية، كما لم يغفل نقداً للمسلمين - فى أعماله - فى تطرفهم المستكين للماضى، وتقاعسهم عن النفاذ إلى الكنوز الروحية والعلمية العميقة لحضارتهم، واستعادتهم المكررة للظواهر، دون تحقيق أو مراجعة.

فى هذا الكتاب نجد أنفسنا أمام كشف حساب عسير للحضارة المعاصرة: إحصاءات موثوق بها عن أسلحة الدمار وأعداد الجوعى والمهمشين صرعى الرفاهية المزعومة. وربما اطلع القارئ على هذه الإحصاءات من ذى قبل بصورة متفرقة فى دراسات اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية، ولكن جارودى يقدمها لنا دفعة واحدة لتنهال على القارئ كوابل من القنابل؛ وذلك لكى يقاوم نزعته فى التماس الأعذار، أو فى الميل لحسبانها مجرد مظاهر سلبية لسياق إيجابى؛ فينجح المؤلف بالتالى فى إثارة الاستياء، بل تفجير الغضب.

إن النظرة الكلية الشاملة هى الكفيلة بالكشف عن حقيقة الواقع الذى نعيشه. ولا تأتى الإحصاءات هنا تكريسًا لنزعة وضعية ترى فى الأرقام حقيقة الموقف الإنسانى، وإنما تبدو هذه الأرقام عند جارودى كألسنة من لهب شاهدة على الجحيم الذى ألقى الإنسان بنفسه فيه.

ولا يتهم جارودى هنا حماقة البشر أو الرذيلة المتأصلة فيهم، بل يبحث عن الأصل الذى أنتج هذا الوضع الوخيم، فينتقل من عرض الإحصاءات إلى تقديم قراءة مبدعة لتاريخ الثقافات الإنسانية، ويرى أصل البلاء فى الثقافة الغربية التى قامت على أساس من الشعور بالتفوق العنصرى واستبعاد الآخر. ويرسم خطًا رابطًا بين أسطورة «الشعب المختار» فى الثقافة اليهودية وتفوق العرق اليونانى فى الثقافة اليونانية القديمة، وبين الهيمنة الأمريكية المعاصرة. ويرى جارودى فى قراءته هذه أن المشروع العنصرى النازى الذى يقوم على سيادة الجنس الآرى على باقى الأجناس، لم يتم التخلص منه، بل يجرى استكماله بواسطة الولايات المتحدة الأمريكية بوسائل أخرى. وهذا يعنى ـ فى نظره ـ أن الخلاف بين الفاشية والديمقراطية الغربية هو خلاف فى الشكل لا فى المضمون، فليست الديمقراطية الغربية هى الكفيلة بإخراج الإنسانية من محنتها، وليست التنمية الاقتصادية القائمة على اقتصاد السوق بعلاج لهذه الأزمة، بل هى الداء ذاته. إن تنمية تقوم على سطوة المال واستنزاف الطبيعة والإنسان، ليست إلا وسيلة فعالة لتكريس الهيمنة وتفاقم البؤس البشرى.

إن تاريخ الديمقراطية الغربية ابتداء من ديمقراطية أثينا القاصرة على الأسياد، وانتهاء بالديمقراطيات المعاصرة التى تمنع المهاجرين من الانتخاب، والتى يذهب فيها أقل من نصف المقيدين لصنادين الانتخاب ـ كما فى الولايات المتحدة ـ، يجعل من استبعاد قطاعات

من السكان عنصراً أساسيّا فى النظام الديمقراطى الغربى. ويحدد لها غاياتها التى لم تحد عنها وهى إحكام سيطرة الطبقات السائدة على جموع المحكومين. وهذا ما يفسر زيادة نسبة الامتناع عن التصويت لدى العمال والعاطلين بعد أن اكتشفوا عبثية اللعبة.

لقد تحولت الديمقراطية اليوم إلى مجموعة من القوانين والتدابير التى تعمل على تسهيل أداء اقتصاد السوق ليغطى كل مناحى الحياة. إذ تقاس قيمة كل شىء بمردوديته المالية، فلا قيمة إلا قيمة المال والسلعة. وهذا ما يؤكده الخطاب الرسمى لمفكرى العولمة الاقتصادية. لقد أصبح زوال القيم المعنوية والأخلاقية لصالح القيم السلعية ـ وهو ما تنبأ به ماركس فى منتصف القرن التاسع عشر ـ أمراً واقعًا فى أيامنا هذه. ويرى الفيلسوف الإيطالى چيانى ڤاتيمو أن تحول كل القيم إلى قيم سلعية هو أبرز ملمح من ملامح عدمية عالمنا المعاصر التى بشر بها نيتشه.

وهذا يطرح بإلحاح السؤال عن البديل.

وهنا لا يقدم جارودى مشروعًا علميّا محدداً بالمعنى المتعارف عليه فى الفكر السياسى الغربى، والذى يقوم على إنجاز خطة سياسية محددة تقوم بها قوى اجتماعية معينة، وإنما يطرح توجهات عامة مطروحة للاستلهام فى السياسة والاقتصاد والتعليم والدين، ويلجأ إلى منابع لا تنضب فى الإنسان، وهى ممثَّلة فى الإيمان والحلم. والإيمان لديه لا يتعلق بالأديان فحسب، بل يتسع لكل نزعة إنسانية حقيقية تحرص على كرامة البشر وحريتهم. أما الحلم، فقد قدم جارودى فى كتابه هذا نموذجًا له، فتخيل فى منتصف القرن الحادى والعشرين إنسانية متنوعة متسامحة متضامنة، تنظر إلى القرن العشرين والقرون السابقة على أنها عصور ما قبل التاريخ.

قد يرى البعض فى لجوء جارودى إلى الحلم علامة على استحالة تجاوز الكارثة، وشاهداً على الشعور بالإحباط. ولكن هناك من الفلاسفة ـ ومن بينهم جارودى ـ من يرى أن الإنسان عندما يحلم لا يعنى ذلك أنه لا يفعل شيئًا، وهنا يؤكد جارودى الصلة التى تربطه بماركس الذى قال: «هناك لدى البشرية شىء فى الحلم، لو وعته لامتلكته».

من هنا تكمن أهمية هذا الكتاب الذى يجمع بين الحلم والنقد والمبادرة، ويعتمد على منهج يقوم على التحليل والتأويل: عن طريق التحليل يكشف عن زيف الكلمات التى تهيمن علينا وتتناقض مع الوقائع؛ فتسلمنا إلى حال من الخدر المهلك. وعن طريق التأويل يكشف عن العمق الدلالى للكلمات الرموز التى تفتح أمامنا طاقة لا نهائية للمبادرات التاريخية الجديدة دون أن تستنفد طاقتها على الإيحاء. يكشف لنا ـ على سبيل المثال ـ عن زيف عبارات مثل «التنمية الاقتصادية» و«الديمقراطية» فى المفهوم الغربى، فالديمقراطية «لم تعد تعنى سوى وحشية حرية السوق، والتى يصبح فيها المال هو المنظم الوحيد للعلاقات الاجتماعية». أما كلمات مثل «الأسطورة» أو «الإيمان» فيعيد تعريفها بوصفها مبادرات للتعالى وللإبداع.

وفلسفة جارودى هذه لا تنفصل عن التيار الفلسفى المعاصر، «ففى الوقت الحاضر تدل كلمة فلسفة على كل بحوث البشر التى يكون موضوعها الحقيقة، وبخاصة حقيقة الإنسان.. وهى تعنى بصفة عامة بالبحث عن معنى الحياة، وتفسير الكون بوسائل قاصرة هى الكلمات والمعانى المختلفة التى ترمز إليها، الأمر الذى جعل الكثير من النشاط الفلسفى فى وقتنا هذا ينصب على التعريف وتحديد المعانى»(*). وقد طغت فلسفة اللغة على بحوث الفلسفة إلى الحد

(*) انظر معنى كلمة فلسفة، الدكتور مجدى وهبة، معجم مصطلحات الأدب، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٧٤، ص ٤٠٢.

الذى أصبحت معه نسبية المعنى والحقيقة معوقة للفعل، ومشككة فى قيمة النضال من أجل شىء واضح، وهو ما يستدركه جارودى ليتحول بفلسفته هذه إلى مجال العمل والكفاح، وما نسبية المعنى عنده إلا مرحلة ممهدة لمعرفة الحقيقة فى العمق وليس إلغاءها. ويعتقد جارودى أن الفلسفة يمكن أن تكون زادا لبسطاء الناس كما هى لمثقفيهم، وهو يعتمد فى ذلك على أسلوب خاص واضح من جهة، ومحفز قوى لتأملات واسعة من جهة ثانية.

ويجمع فى أسلوبه هذا بين العلم والشاعرية، إذ يعتمد على الوثائق والإحصاءات، وكثافة المعلومات، للتدليل على الوقائع، كما يوجز فى بلاغة أشبه بالحكمة خلاصة آرائه، مما يثبت فى الأذهان بعض العبارات البليغة مثل: «هذا هو الإنسان، كبير منذ البدء حتى لا يكتفى بذاته»، «إن حرية الآخر ليست هى الحد الذى تقف عنده حريتى، ولكن هى شرط حريتى». ويبنى جارودى أسلوبه فى الكتابة على وحدات صغرى منفصلة مكونة من عبارة، أو مقطع قصير، دون المطولات التحليلية الشاقة، مستلهمًا باسكال فى كتابه «الخطرات»، أو نيتشه فى «هكذا تكلم زرادشت»؛ مما يجعل قراءته يسيرة ومثيرة لجهود القارئ فى آن. ومع هذا الإيجاز، تتزاحم فى مؤلفات جارودى أسماء الأعلام والحوادث التاريخية والسياسية والاقتصادية، وقد حرصنا فى هذا الإطار على تزويد الترجمة بهوامش شارحة، هى من عمل المترجمين فى أسفل الصفحة، أما هوامش المؤلف فيجدها القارئ فى نهاية الكتاب.

ولم تكن الترجمة فى كل ذلك يسيرة على كل حال، وإنما شأنها شأن كل ترجمة اقتضت إخلاص الجهود، وتخطى المشكلات. ولكن حسبنا أن الترجمة هنا تقع فى إطار المضمون الفلسفى لفكر جارودى

نفسه فى استهدافه لغاية التحاور المتكافئ بين الحضارات، وفى تحريضه على التصدى لمحاولات الهيمنة الأمريكية الصهيونية التى تودى بكرامة وحياة الإنسان لا فى العالم الثالث وحده وإنما فى الغرب ذاته، بل فى الكوكب بأسره.

وقد توخينا فى ترجمة هذا الكتاب الوفاء قدر الاستطاعة، على ألا نحرم الترجمة من دورها الأساسى فى إثراء اللغة المترجم إليها، مع عدم الإخلال بنظامها اللغوى الخاص، أو حرمانها من الغاية الرئيسية للترجمة وهى التواصل الفكرى، واستثارة الأذهان للإبداع. وحاولنا أن نتجنب الوقوع فى شراك الكثير من المترجمات التى تظل أجسامًا غريبة فى مجتمعنا العربى، وتزيد من شعورنا بالاغتراب عن الثقافات، وتشل قدراتنا على الإبداع الموازى.. ولقد كان كتاب جارودى جديراً بجهد الموازنة هذا، (فما أيسر التطرف) ذلك أنه يقتضى منا توازنات جديدة تستشرف مستقبلاً أفضل للبشرية.

وقد قام أنور مغيث بترجمة الجزء الأول من الكتاب والذى يمتد من المقدمة وحتى التحول الاقتصادى، وقامت منى طلبة بترجمة الجزء الثانى بدءا من التحول فى التعليم وحتى الخاتمة. وأخيرا عزيزى القارئ بين يديك الآن كتاب يراجع فى جزئه الأول كل المسلمات التى أدمنّاها بفعل تزييف التاريخ، ويبادر إلى وضع مشروع جديد للإنسانية فى جرأة مستحثة للمزيد من العمل فى المستقبل، فى مجالات الاقتصاد والسياسة والتعليم والإيمان.

د. منى طلبة - د. أنور مغيث

سبتمبر ١٩٩٩

هـدف الكتاب

إيقاف المسيرة المتوجهة نحو الفوضى .

القرن العشرون أصبح خلفنا بحرائقه وخرائبه وصحاريه .

القرن الحادى والعشرون إذا استمر فى هذه المسيرة نحو الفوضى ، فلن يكمل سنواته المائة .

ما العمل؟

هذا الكتاب يسعى لأن يقدم بداية للإجابة عن هذا السؤال : كيف يمكن بناء القرن الحادى والعشرين ، بحيث لا يغتال أطفالنا؟

علينا ألا نستهين بثقل المهمة . نحن نعيش قلقًا ناجمًا عن مرحلة تاريخية اعتقد الغرب فيها أنه الشكل الوحيد للثقافة وللحضارة باعتباره الشعب المختار ، فارضًا على العالم سيطرته .

ينبغى إذن أن نستعيد اللحظة التى بدأ فيها هذا الخطأ فى المسار ، والكوارث المتعاقبة التى ترتبت عليها : ثلاثة انشطارات للغرب تؤدى إلى عالم متصدع .

هناك ألفا عام يعاد التفكير فيهما ، وألف ثالثة للبناء كى تخلق بينهما وحدة . يا له من مشروع مجنون! نعم ، ولكن لا مفر من الشروع فيه فى لحظة قادتنا فيها حكمة الحكماء إلى شفا الهاوية .

يجب الوعى بعبثية ما هو كائن ، وبما يمكننا القيام به من أجل أن نعثر على معنى لحياتنا وعن معنى لعالمنا .

ـ ولكن ربما تقول : ليست مهنتى أن أكون فيلسوفًا !

ـ فأجيبك : وليست مهنتى أن أكون حارسًا ليليًا ، ولكننى رأيت النار تنشب فى المنازل المجاورة وتدفعها الريح باتجاهك .

وهكذا باعتبارى قد عشت هذا القرن الملعون ، لم أشأ أن أموت دون أن أصرخ صرخة الإيقاظ : انتباه ، افتحوا أعينكم ، ينبغى أن تكون ثاقبة حتى ترى الأفق . وتلزم أيضًا الأيادى لتقبض على طوق النجاة . علينا إدارة الظهر لليل ، وألا ننتظر الظهيرة لنعتقد فى وجود الشمس .

روچيه جارودى

الجـزء الأول

ما هى أخطار الهلاك فى القرن العشرين؟

١ ـ كوكب مريض وعالم متصدع.
٢ ـ التبادلات غير المتكافئة.
٣ ـ الغرب طارئ شطر العالم إلى ثلاثة أشطر.
٤ ـ هتلر كسب الحرب.

المشكلة المركزية فى نهاية هذا القرن هى وحدة العالم. إنه عالم متلاحم وممزق فى نفس الوقت، يا له من تناقض مميت!

متلاحم: لأنه من الممكن، من الناحية العسكرية، الوصول إلى أى هدف انطلاقًا من أى قاعدة، ولأن انهيارًا فى البورصة فى لندن أو طوكيو أو نيويورك يؤدى إلى أزمة وبطالة فى كل أرجاء العالم. وحيث تكون كل أشكال الثقافة ـ أو عدم الثقافة ـ حاضرة فى كل القارات عبر التليفزيون والقمر الصناعى، لا يمكن أن تحل أى مشكلة بطريقة معزولة ومستقلة، لا على مستوى أمة، ولا حتى على مستوى قارة من القارات.

ممزق: لأنه من وجهة النظر الاقتصادية (طبقا لتقرير برنامج الأمم المتحدة عام ١٩٩٢) ٨٠٪ من مصادر العالم يسيطر عليها ويستهلكها ٢٠٪ من سكان العالم.

هذا النمو الاقتصادى للعالم الغربى يكلف العالم، بسبب سوء التغذية والمجاعة، ما يعادل ضحايا هيروشيما كل يومين.

ثلاث مشكلات رئيسية تبدو بلا حل: مشكلة المجاعة، ومشكلة البطالة، ومشكلة الهجرة. ألا تمثل جميعًا مشكلة واحدة؟ حيث يوجد ثلاثة مليارات من البشر من مجموع خمسة ما زالوا معدومى القوى الشرائية، فهل يمكن الحديث عن السوق العالمى؟ أو بالأحرى

عن سوق بين الغربيين يتناسب مع احتياجاتهم وثقافتهم مصدِّرين إلى العالم الثالث ما يفيض؟ هل ينبغى قبول هذا التفاوت كقدَر محتوم، وقبول هذا الواقع الذى يولد التهميش والعنف والقوميات والأصوليات دون أن نضع أسس الفوضى الحالية موضع المساءلة؟

* * *

هناك مرحلة تاريخية تحتضر، هى تلك المرحلة التى سادها الغرب (حسب الأصل اللغوى للكلمة: البلاد التى تغرب فيها الشمس) منذ خمسة قرون(*).

وهناك مرحلة أخرى فى طريقها للميلاد فى البلاد التى تشرق فيها الشمس: الشرق.

إن المرحلة التى بدأت منذ عصر النهضة، قد وصلت إلى نهايتها - كما يحدث فى لعبة البلياردو - فى بقاء سيطرة شخص واحد فقط، فمن الإمبراطورية الرومانية إلى ناپليون أو هتلر، ومن شارل الخامس إلى الإمبراطورية البريطانية، وكانوا قد اعتقدوا جميعًا أن أساطيلهم لا تقهر وأن هيمنتهم أبدية.

واليوم، يسعى باحثو الچيوپوليتيك(**) فى المخابرات الأمريكية وأساتذتهم لأن يُخفوا واقع نهاية هذه الألفية: ونحن شهود على انحطاط واحتضار الإمبراطورية الأخيرة.

ما ملامح هذا الانحطاط من الناحية الموضوعية؟

(*) اقرأ - إن شئت - كتاب «٥٠٠ عام وما زال الغزو مستمرا»، لمؤلفه «ناعوم تشومسكى». (الناشر)

(**) الچيوپوليتيك: هو العلم الذى يدرس أثر العوامل الجغرافية فى السياسة العالمية.

إن الحدث الأكثر دلالة لهذا النصف الثانى من القرن العشرين، ليس هو انفجار الاتحاد السوفييتى الذى كان كاريكاتوراً للاشتراكية والماركسية؛ إنه إفلاس الرأسمالية بعد سيطرة دامت نصف ألف عام على عالم تقوده اليوم إلى الانتحار على مستوى الكوكب، هذا إذا لم نوقف سباق الموت!

لماذا؟

لأن رأس المال، الذى تم تجميعه خلال خمسة قرون بالنهب الاستعمارى، والمحدود بعد ذلك بالاستثمارات فى البلاد الصناعية الكبرى فى أوروبا العجوز، و الذى يخلق حاجات اصطناعية ومؤذية عبر الإعلان والتسويق ـ رأس المال هذا الذى يخلق أصوله بالاستثمار فى مؤسسات الإنتاج والخدمات الواقعية، قد أصبح رأس مال مضاربة، أى أصبح طفيليّاً خالصًا.

النقود لم تعد تخلق السلع، ولكن تخلق النقود.

بين موريس أليس (Maurice Allais) (جائزة نوبل فى الاقتصاد)، ـ معتمداً على معطيات البنك الدولى للتنمية ـ أن السيولة المالية التى ترتبط بمضاربات البورصة على العملة أو على المواد الخام، أو على المنتجات المشتقة (تأمين على مخاطر المضاربة) هى اليوم أكبر أربعين مرة من الاستثمارات والصفقات المرتبطة بالاقتصاد الواقعى، أى بإنتاج السلع والخدمات. وبلغة بسيطة، يكسب المرء (بشرط أن يكون له ضمانة بنكية أو إمكانات مالية) من المضاربة ما يعادل أربعين ضعفًا لما يكسبه من العمل.

لن يكون هناك معيار موضوعى عن الانحطاط أفضل من هذا: **العمل الخلاق لا يفيد فى تنمية الإنسان، أى كل البشر، ولكن فى تضخيم فقاعة مالية لأقلية ضئيلة ليس لها من غاية سوى تكبير هذه**

الفقاعة، وبذلك لم تعد مشكلات معنى العمل والإبداع والحياة تطرح للبحث.

إن معنى الكلمات نفسه قد تشوه: فنستمر في أن نطلق كلمة «تقدم» على انحراف أعمى يؤدى إلى تدمير الإنسان والطبيعة.

ونطلق كلمة «ديمقراطية» على أشنع قطيعة عرفها التاريخ بين من يملكون ومن لا يملكون.

ونطلق كلمة «حرية» على نظام يسمح ـ بذريعة التبادل وحرية السوق ـ لأولئك الأكثر قوة أن يفرضوا الديكتاتورية عديمة الإنسانية، تلك التى تسمح لهم بابتلاع الضعفاء.

ونطلق كلمة «عولمة» لا على حركة تؤدى إلى وحدة متآلفة الأنغام للعالم، عن طريق اشتراك كل الثقافات، ولكن بالعكس على انقسام يتنامى بين الشمال والجنوب نابع من وحدة إمپريالية وطبقية.. انقسام يدمر تنوع هذه الحضارات ومنتجاتها لفرض لا ثقافة الراغبين فى التحكم في الكوكب[1].

ونطلق كلمة «تنمية» على نمو اقتصادى بلا غاية، يُنتج بإيقاع متسارع أىَّ شىء سواء كان مفيدًا أو غير مفيد، مؤذيًا أو حتى مميتًا، كالأسلحة والمخدرات، وليس تنمية الإمكانات البشرية الخلاقة، للإنسان ولكل إنسان. يضاف إلى هذا اللامعنى بطالة البعض الذين لم يعد يمكنهم أن ينتجوا، لأن ثلثى العالم لم يعد يمكنهم أن يستهلكوا، حتى من أجل بقائهم على قيد الحياة. إن هجرة من هم أكثر فقرًا ليست سوى عبور من عالم المجاعة إلى عالم البطالة والاستعباد.

إن خطأ توجيه السفينة قد ارتكب منذ خمسة قرون، حيث أدى الجوع للذهب، ونشوة التكنيك من أجل التكنيك ومن أجل السيطرة على الطبيعة والبشر، إلى ولادة حياة بلا هدف، وعبادة حقيقية للوسائل تصل اليوم إلى منتهاها: إن وحدانية السوق التى تولد استقطابًا متناميًا للثروة النابعة من المضاربة، إن لم تكن من المافيا، تتمتع بها أقلية محدودة، بينما تؤدى إلى بؤس الأغلبية.

* * *

ما زالت هناك الفرصة سانحة للحياة، ولكن الأمر يقتضى انقلابًا كبيراً. إن سادة الفوضى العابرة التى نحياها لا يتحدثون لنا إلا عن تكيفنا (يعنى خضوعنا) مع انحرافات عالم بلا بشر، وبشر بلا مشروعات وبلا غايات إنسانية. فى حين أن نهضة الإنسانية أو حتى مجرد استمرارها فى الحياة لا يقتضى تكيفًا مع هذا المصير المميت، بل يقتضى قطيعة جذرية معه. فى مواجهة الواقعية القاتلة والقدرية لن نفلت إلا بكفاح الأمل.

فبدلاً من النظر إلى المنطق الاقتصادى الحالى لمعاهدة ماستريخت وعملة الأورو واقتصاد السوق كقدر لافكاك منه، ينبغى القطيعة مع هذا المنطق، أى ينبغى الانتقال من منطق المضاربة إلى منطق الإنتاج والإبداع الإنسانيين على مستوى العالم كله وليس فقط أوروبا، التى كانت بالأمس استعمارية واليوم هى تابع، لكنها تظل مرابية عبر استغلالها لديون عالم أدت هى إلى تخلفه لصالح تطورها الخاص الخالى من الإنسانية.

الفصل الأول

كوكب مريض وعالم متصدع

نمط النمو الغربى يكلف العالم الثالث ما يعادل موتى هيروشيما كل يومين. فلنكرر ذلك لأنه ينبغى أن يكون نقطة الانطلاق لكل فكر سياسى.

السبب الرئيسى لهذه الإدارة المشئومة للأرض هو اقتصاد السوق الذى لا يعرف الحدود، والذى لا يهدف إلى إشباع الحاجات، وإنما إلى تحقيق أقصى دمج، ولا يستجيب إلا إلى الحاجات الموسرة، المستوفاة ماليًا Solvable. هدفه الأول هو دعم الأسعار بتخفيض الإنتاج الزراعى، وأن يدفع لمربى المواشى كى ينتجوا لبنًا أقل، ويقوم بتوسيع رقعة الأرض المتروكة بلا زراعة.

إن هذا النظام، بقواعد لعبته هذه، يزيد من عدم المساواة حتى فى البلاد الغنية. ففى عام ١٩٩١، كان ٥٪ فى أمريكا يمتلكون ٩٠٪ من الثروة القومية، و٣٥ مليونًا يعيشون تحت خط الفقر (المعادل لـ ٥٠٠٠ فرنك شهريا لعائلة مكونة من أربعة أفراد). وهناك طفل من بين كل ثمانية أطفال يعانى من الجوع.

وفى فرنسا ٦٪ من السكان يمتلكون ٦٠٪ من الثروة، و ٩٤٪ يقتسمون الباقى، وهو أقل من النصف[٢].

وهناك أقلية من ٢٠٪ تمتلك:

٧ , ٨٢ من المنتج العالمى (٢٠٪ الأكثر فقرا يمتلكون ٤ , ١٪).
٢ , ٨١٪ من التجارة العالمية. ٦ , ٩٤٪ من كل القروض التجارية.
٦ , ٨٠٪ من المدخرات. ٥ , ٨٠٪ من الاستثمارات. ٩٤٪ من بحوث التنمية.

[المصدر: برنامج التنمية التابع للأمم المتحدة PNUD، تقرير عام ١٩٩١]

ويوجد مليار ونصف المليار من الأفراد يعيشون فى فقر مطلق (أى لا يستطيعون الحصول على السعرات الحرارية الضرورية من الغذاء) بأقل من دولار واحد فى اليوم (أرقام PNUD فى عام ١٩٩٧). ٥ , ١٣ مليون طفل أقل من خمس سنوات ماتوا بسبب سوء التغذية أو المجاعة عام ١٩٩٦، منهم ١٣ مليونا فى العالم الثالث.

[المصدر: يونيسيف، تقدم الأمم ١٩٩٣ و١٩٩٦]

متوسط العمر: ٦٧ سنة فى أمريكا الشمالية. ٥٣ سنة فى إفريقيا.

طبيب لكل ٦٧٤ ساكنا فى سويسرا. طبيب لكل ٥٧٣٠٠ ساكن فى بوركينا فاسو.

[المصدر: PNUD تقرير عن التنمية البشرية عام ١٩٩٢]

تتزايد الفجوة بين الشمال والجنوب.

ففى خلال ثلاثين سنة، قفز الفارق بين البلاد الفقيرة والبلاد الغنية من ١ إلى ٣٠ فوصل إلى ١ إلى ١٥٠.

[المصدر: PNUD عام ١٩٩٢]

هذه هى نتيجة ما اتفق على تسميته العقود الثلاثة للتنمية (١٩٥٠ ـ ١٩٨٠).

والانهيار مستمر: فقد كان هناك ٣٣٪ من سكان العالم الثالث يعانون من سوء التغذية فى عام ١٩٨٠، أصبحوا ٣٧٪ فى عام ١٩٨٨.

[المصدر: يونيسيف، الوضع العالمى للطفولة عام ١٩٩٠]

الفصل الثانى

التبادلات غير المتكافئة

فى عـام ١٩٥٤ ، كـان يكفى لشـخص برازيلى ١٤ جـوالاً من البن يشترى سيارة چيب . وفى عام ١٩٦٢ أصبح يحتاج إلى ٣٩ . وفـى ـام ١٩٦٤ كـان الشـخـص من چامـايكـا يشـتـرى جـراراً زراعـيـا مـريكيـا بـ ٦٨٠ طن سكر ، وفى عـام ١٩٦٨ أصـبـح يحـتـاج لى ٣٥٠٠ طن .

لقد استمرت البلاد الفقيرة فى دعم البلاد الغنية.

ويقول تقرير (PNUD) إنه من عام ١٩٨٩ إلى عام ١٩٩١ انخفض ـؤشر التوازن لمجموعة من ٣٣ منتجا أساسيا (فيما عدا الطاقة) إلى لنصف : من ١٠٥ إلى ٥٧ ، وفـيـمـا بين عـامى ١٩٨٩ و١٩٩١ نخفضت أسعار تصدير المنتجات الأساسية للبلاد النامية (PED) إلى ٢٠٪ ، وفى عام ١٩٩١ وصلت أسعار الشاى والبن ، من حيث القيمة لفعلية ، إلى أقل مستوى تصل إليه منذ عام ١٩٥٠ .

الدخل القومى (PNB) فيما بين عامى ١٩٧٠ و ١٩٨٧ :

ـ انخفض فى البلاد المتخلفة بمعدل ٩ دولارات فى المتوسط .

ـ ارتفع ٧ , ٢٪ دولار فى البلاد الصناعية المتقدمة .

[المصدر: البنـك الدولـى، تقرير حول التنميـة الدوليـة عام ١٩٨٩، كراسة ٤، ص ١٨٨ ــ ١٨٩]

أن نبدأ المستقبل يعنى أن نحول اتجاه مساره بعيداً عن الموت، أن نفتح المجال أمام ثروات الأرض وإبداعات الإنسان، لا إمكانات المضاربة العقيمة، ولكن الاستثمار المنتج لتحقيق البنية التحتية اللازمة لتنمية الإنسان، كل إنسان، استثمار على النقيض من الارتباط الاستعمارى وما بعد الاستعمارى الذى يجمع الثروة والبؤس بحصص غير متكافئة بصورة شنيعة. وتتعامل بورصة «وول ستريت» فى نيويورك أو بورصة «سيتى» فى لندن مع باقى العالم كمزودين للمواد الخام واليد العاملة الرخيصة، لكى تبنى على بضعة آلاف من الكيلو مترات بعض الجزر المنعزلة من الفردوس الاصطناعى.

هذا هو البديل من أجل استمرار الحياة:

أن نستبدل بالمضاربة العمل المبدع فى خدمة المجتمع: هذا المشروع البروموثيوسى(*) الذى يعيد صياغة الأرض ويغير ثلثى العالم تغييراً جذريًا يمكنه وحده أن يقضى على بطالة البعض ومجاعة البعض الآخر.

وأن نتخلص من انشطار العالم بين شمال، بأقلياته المزدهرة، وجنوب مسلوبة ثروته بواسطة هذه الكواسر المنحطة وهى البنوك التى تحولت إلى ملاهى قمار تلعب على سعر العملات والمواد الخام والمواد المصنعة.

(*) البروموثيوسى نسبة إلى بروموثيوس الذى يرتبط اسمه فى الأسطورة اليونانية بالإبداع الإنسانى وظهور الحضارة. وتقول الأسطورة إن بروموثيوس قد سرق النار من السماء وحملها إلى الأرض، مما سمح للبشر بصناعة الحضارة. ولكن زيوس كبير الآلهة غضب لذلك غضبًا شديداً، وتوعد البشرية بعذابات جمة من جراء سرقة النار. وأمر بتقييد بروموثيوس ـ عقابًا له ـ على جبل كوكاسوس حيث دأب النسر على التهام كبده الذى لا يلبث أن يتجدد وينمو إلى ما لا نهاية.

وأن نستمر فى تاريخ أنسنة الإنسان بعدم اصطناع نظم اقتصادية ؤدى إلى تفاقم عدم المساواة، لأن ثروة البعض فيها لا تنشأ إلا عن لمريق إفقار البعض الآخر، خالقة بذلك مجالاً مشوهًا مكونًا من مض مئات المختارين ومليارات المستعبدين، وبين الاثنين كتلة بلا ـوام من أولئك المحكوم عليهم بعمل يفتقر إلى المعنى كى يحصلوا، ىبر زيادة كمية الاستهلاك، على سعادة السوپر ماركت كبديل لحياة حقيقية، حياة هى منذ الآن فصاعدا بلا هدف.

هل نسمى هذا العالم الوليد الذى نطمح إليه اشتراكية، أم نطلق عليه اسما آخر؟ المشكلة ليست هنا. يتعلق الأمر أولاً بالتخلص من لنزعة الفردية المتوحشة التى تحول دون استبعاد المجاعة والبطالة ,اليأس وحياة بلا أفق، وتجعل جماهير من البشر يصبحون مع مرور لوقت، أقل إنسانية وأكثر عرضة لتلاعب وسائل الإعلام، ويصيرون لى العدم بواسطة سادة الفوضى.

هدفنا هو الانتقال من هذه الفردية إلى جماعية حقيقية، أى عالمية بشعر فيها كل شخص بأنه مسئول عن مستقبل الآخرين.

إن النظام الحالى يعمل فى اتجاه واحد: حماية السوق الأمريكية، وفتح أسواق العالم كله أمامها.

إن دوران أوروپا السياسى، المادى والمعنوى حول أمريكا، قد أدخل العالم فى مرحلة جديدة من الاستعمار. لقد أصبحت قوى أوروپا الغربية والشرقية خارج اللعبة أو مكتفية بدور التابع، وأصبح المجال مفتوحًا أمام استعمار من نوع جديد:

ليس هو استعمار الإمپرياليات المنافسة لأوروپا التى أصبحت الآن

خاضعة، ولكنه استعمار مركزى وشمولى على مستوى العالم تحت السيطرة الأمريكية.

إن ما يسميه بوش النظام العالمى الجديد، هو دعم وامتداد لهذه العلاقات الاستعمارية بين عاصمة واحدة وباقى العالم.

علاقات استعمارية تعنى: تبعية اقتصادية وسياسية وعسكرية تسمح للمسيطرين أن يجعلوا مستعمراتهم ملحقة باقتصاد المركز، أو أن يفرضوا شروطًا للتبادل وتعريفات جمركية تفيد المسيطرين فقط.

هذا هو الهدف الذى طالما أعلن عنه القادة الأمريكيون، خصوصا فى السنوات الأخيرة (منذ انهيار الاتحاد السوفييتى):

ضمان هيمنة الولايات المتحدة على العالم.

ما الوسائل المتبعة لتحقيق الهدف؟

الآلية بسيطة. تتم الموافقة على استثمارات عبر القروض والمعونات للبلاد الفقيرة، هى من حيث المبدأ تساعدها فى أن تتصنع، ولكنها فى الواقع تسمح للشركات المتعددة الجنسية فى الشمال بزيادة أرباحها عن طريق انتقالها للإقامة فى بلاد تتميز برخص اليد العاملة. والبنى التحتية تتكفل بها الحكومات التابعة. وفى الوقت نفسه تنخفض أسعار المواد الخام القادمة من هذه البلاد، مما يجعل التبادلات تمعن فى التغابن مع مرور الزمن.

إن سداد فوائد القروض يمثل أضعاف رأس المال المقترض. فكل دولار استرده الدائن اثنين أو ثلاثة، كما أن سداد الفوائد يعادل فى الغالب إجمالى التصدير مما يجعل كل تنمية مستحيلة. لا يتعلق الأمر إذن ببلاد نامية، كما نطلق عليها من باب المجاملة أو النفاق، ولكنها بلاد محكوم عليها ببؤس متزايد وتبعية متزايدة.

إن المعونة المزعومة لبلدان العالم الثالث هى إحدى العوامل الفعالة فى تخلفها.

إن التمييز الذى يتعرض له العالم الثالث فيما يتعلق بكافة أشكال المعونة بالغ الدلالة : المعونة التى تتلقاها كتيبة الغرب الأولى إسرائيل قد بلغت حدّاً جعل واحداً على ألف من سكان العالم يأخذ عشر المعونة الإجمالية ، أى أن كل ساكن فيها يأخذ مائة ضعف أى ساكن آخر فى بلدان العالم الثالث(*) .

إن تصنيع بلاد العالم الثالث ونقل التكنولوچيا إليها هو أيضا إحدى وسائل السيطرة وزيادة الأرباح للبلاد الغنية .

الطريقة الأكثر ضماناً هى إقامة ديكتاتورية عسكرية. فتتم ممارسة الهيمنة الإمپريالية للولايات المتحدة أولاً عبر الشركات المتعددة الجنسية. وعندما ظهرت ملامح التهديد بسلطة اشتراكية فى شيلى، جاءت المذكرة الدپلوماسية بشأن التجارة الدولية تقترح تطبيق ضغوط اقتصادية حتى يتم إسقاط النظام.

هذا المنهج لا يستبعد التدخل العسكرى المباشر للجيش الأمريكى كما حدث فى جواتيمالا عام ١٩٥٤ كى ينقذ مصالح شركة الفواكه المتحدة ، وفى كوبا حيث نظم كنيدى عام ١٩٦١ إنزال القوات فى خليج الخنازير مع المهاجرين الكوبيين من أنصار الديكتاتور السابق باتسيتا (Batista) ، وفى عام ١٩٦٤ فى جويانا البريطانية ، وفى عام ١٩٦٥ فى جمهورية الدومينيكان ، ومنذ وقت قريب فى جرانادا وپنما .

(*) هذا من ناحية الكم ، أما من ناحية الكيف فالتمييز أكبر ، سواء من ناحية نوع المعونة أو طريقة إختبارها وانفاقها ، أو الجهاز الملحق بها ، ثم تأثيره وتأثيرها ـ الناشر

ولكن الأسلوب الأنجع هو تسهيل وصول ديكتاتورية عسكرية فى كل بلد باسم المذهب الأمريكى فى الأمن القومى ضد الوجود الشيوعى فى زمن القوة السوفييتية .

ويمكن فى هذه الحال إقناع الشعوب، بربطها بالولايات المتحدة، بأنها تدافع عن الديمقراطية والاستقلال الوطنى . بهذه الطريقة تمكن الچنرالات من حكم البرازيل منذ عام ١٩٦٤ من كاستيلو برانكو (C. Branco) وحتى جيزل (Geisel) .

وتحت حكمهم، وعبر لعبة تتكون من تصنيع هائل حققته الشركات الأمريكية العابرة للقارات، وتسليح يسمح بممارسة القمع والإرهاب ضد الشعب، استمرت الديون فى الارتفاع :

فعلى سبيل المثال من عام ١٩٧٣ إلى عام ١٩٨٢ زاد الدَّيْن من ١٢ إلى ٦٠ مليار دولار، أى تضاعف خمس مرات فى ١٠ سنوات : «ليس هناك ما هو أنجع من ديكتاتورية عسكرية لجعل بلد ينزف حتى آخر قطرة»[٣] .

وحول ديون الأرجنتين، من بين ٥٤ مليار دولار هناك ١٠ مليارات خصصت للتسلح تحت حكم الچنرالات . وكان سداد الدين وشراء الأسلحة، قبل مجىء الرئيس آلان جارسيا (Alan Garcia)، يمثل ٥٠٪ من ميزانية بيرو . ولكن الرقم القياسى حققته شيلى فى عهد الچنرال پينوشيه (Pinochet)[*] حيث وصل إلى ١٥٠٠ دولار لكل مواطن .

(*) طلبت إسپانيا محاكمته على جرائم ارتكبها ضد مواطنين إسپان، وثارت قضية سياسية كبرى فى إنجلترا، وصدر حكم مجلس اللوردات بتسليمه لإسپانيا، ثم تجمد الحكم إلى حين . وبالطبع لهذا التجميد أسباب . وقد أعلنت تاتشر، وأعلن كيسنجر رفضهما لتسليم الدكتاتور، وقاد المساعى لوقف التسليم . (الناشر)

ولكن پينوشيه حقق رقما قياسيًا آخر : وهو الليبرالية ، فإنه كعميل مخلص للديمقراطية الأمريكية الكبرى ، حقق الحرية الكبرى لاقتصاد السوق (بما فى ذلك سوق العملة) بواسطة نظام من الخصخصة الشاملة ـ خالقا بذلك الشروط النموذجية ـ وباستخدام قمع شديد ضد شعبه لاستتباب الحرية ، وهى حرية الشركات المتعددة الجنسية فى فرض التبعية على اقتصاد البلد .

وبفضل هذه الديكتاتورية العسكرية ، أصبحت تبعية أمريكا اللاتينية الاقتصادية للولايات المتحدة أمرًا لا رجعة فيه ، وعبرها جاءت التبعية السياسية بسبب قوة الضغط الاقتصادى على السلطات برفض القروض أوالاستثمارات .

من الآن فصاعدًا، يمكن للولايات المتحدة أن تتابع تحقيق غايتها: وهى حرية السوق بواسطة وسائل أخرى غير الديكتاتورية العسكرية.

فمن الممكن قبول قادة منتخبين فى نظامهم ، ليتسلم الفساد الراية من القمع . وهكذا تم قبول قادة مثل كولور (Collor) فى البرازيل أو منعم فى الأرچنتين ، وقد تولوا المسئولية بعد الچنرالات ، فيطلب منهم فقط أن يدفعوا ديونهم وينسوا جرائمهم . ويمكن لصندوق النقد الدولى أن يفرض نيره بلا مجازفة على البلاد المقيدة بالديون والتى يقع اقتصادها فى يد الشركات الأجنبية .

يمكن إذن للصندوق أن يفرض بلا عقاب ـ ليس على العالم الثالث فقط ، ولكن فى المدى البعيد على العالم كله ـ نمط التنمية الأكثر مطابقة لمصالح المركز العالمى : تنمية الزراعة الأحادية ، والإنتاج الأحادى ، وتراجع الزراعة المعيشية والحرف المحلية التى تلبى الحاجات الضرورية ، والتبعية ، والاستغلال المتنامى لليد العاملة ، وتفاقم الديون نتيجة للاستيراد المتزايد .

إن الدفاع عن القانون الدولى والديمقراطية هو أيضا تعبير آخر لإخفاء تدخلات هذا الاستعمار الجديد.

ومجازر الخليج هى الدليل الساطع، فقد كان الدفاع عن الكويت هو الدفاع عن الحق والديمقراطية.

الحق هو حق الأقوى:

فى عام ١٩٩٠، كان الدفاع عن الحق هو إعادة العملية الاستعمارية الإنجليزية فى عام ١٩٦١ ولكن على مستوى أكبر بكثير، وكان هو التعبير عن الرغبة فى بقاء الأوضاع على ما هى عليه.

وقد تم هذا بعد أن ألقى على العراق، خلال الحرب ما يعادل أربعة أضعاف قنبلة هيروشيما، بحسب أرقام الحد الأدنى التى صرح بها الصليب الأحمر الدولى والتى راح ضحيتها ٢١٠ آلاف شخص.

هذه هى نتيجة الدفاع عن الحق الدولى، الذى يعمل باتجاه واحد: فهو على سبيل المثال يتم تطبيقه بلا رحمة على ضم الكويت، ويتم تناسيه فى ضم القدس. صحيح أن القدس مدينة مقدسة، ولكن مدينة الكويت هى مدينة مقدسة ألف مرة لأنها محاطة بآبار البترول.

إن المنهج المتبع مع العراق هو منهج التدمير المكثف لكى يكون هناك عبرة رادعة لكل دول العالم الثالث وعلى رأسها إيران وليبيا، وهما أكثر الأهداف احتمالاً، لأنهما من أواخر البلاد فى العالم التى تمتلك مصادر بترولية وما زالت تستعصى على السيطرة الأمريكية.

هناك منهج آخر، أقل تكلفة، يطبق فقط عندما يكفى العمل على إثارة الصراعات القومية أو الصراعات العرقية والدينية المزعومة.

واليوم بانهيار الاتحاد السوفييتى الذى كان مصادفة سعيدة لخصومه، تحقق تفكك هذا البلد بواسطة الحروب الداخلية للبلاد

الموجودة فى محيطه، مثل الأرمن والآذر(*)، وذلك لإضعاف أى دولة قريبة من مخزون البترول فى القوقاز، ولكى تكون فى الوقت نفسه عقبة فى وجه المشروع الصينى بخصوص الجسر الأوروبى الآسيوى. وهنا، يكفى ترك العداء ينشب، أو على الأقل ترك الأسلحة تمر عندما يبدو أحد الطرفين ضعيفا، كى يستمر التدمير المتبادل.

منظِّر البنتاجون صمويل هانتنجتون (S. Huntington) يجعل من نفسه عرّاب هذا النداء إلى الموت بدعوته إلى صدام الحضارات، هذا التعارض الأسطورى بين حضارة يهودية مسيحية وتحالف إسلامى كونفوشيوسى.

هذه الأيديولوچيات المرتبطة بنهاية عالم معين تنقشع اليوم ـ حتى فى تلك البلاد التى كانت تمثل تربتها القاتلة ـ كما ينقشع ضباب الدهاليز عندما تبدأ أشعة الشمس الأولى تنير القمم، والتى من عليها ننادى الإنسان، وكل البشر، كى يحققوا مصيرهم، وهو وحدة العالم المقدسة.

لقد حاولنا أن نبرز الخيط الأساسى الذى يربط المشكلات الدولية بعضها ببعض فى نهاية القرن العشرين، وذلك بالعودة إلى سببها العميق والوحيد رغم الاختلافات الظاهرية وهو:

(*) الآذر سكان آذربيجان وهى إحدى جمهوريات الاتحاد السوڤييتى السابق. وفى عام ١٩٨٨ أعلن الأرمن المسيحيون انضمامهم إلى الاتحاد السوڤييتى، وفى عام ١٩٩٠ طالبوا بتدخل الجيش الأحمر ضد القوميين المسلمين من سكان آذربيجان.

الهيمنة الدولية للولايات المتحدة ووحدانية السوق التى تريد أن تفرضها على الجميع.

* * *

وقد حاولت، بعد أن أرهقنى استخراج هذه الإحصاءات وهذه التحليلات التى تكشف عن السلوك الحقيقى وعن نفاق عنصرنا الغربى والذى يتجلى ـ عكس اتجاه الواقع ـ فى قوقعة الفكر الأحادى المستقيم سياسيا[*]، حاولت أن أبتعد قليلاً وأرفه عن نفسى فى نزعة الولع بالغريب (exotisme)، وأردت أن أعرف كيف تتصرف أعراق أخرى. وانغمست فى كتاب مشهور عن الإثنولوچيا يشرح بشكل علمى قواعد الزواج خارج القبيلة وداخلها، لدى القبائل الموجودة بعيداً فى المحيط الهادى وحوض الأمازون، فلم أجد فيه ما يساعدنى على حل أو على طرح مشكلات عصرنا، بأن يظهر لنا، على سبيل المثال، كما فعل توماس مور (T. Moore) ومونتانى (Montaigne) فى أثناء الغزو الأوروبى لأمريكا بعد عام ١٤٩٢، ما كان يمكنه أن يكون لقاء آخر، كما يقول مونتانى، ومقترحًا نماذج أخرى للتقييم الاجتماعى كما فعل توماس مور بصفته متخصصا فى الاقتصاد والسياسة. ولكن غلبنى النوم فى أثناء القراءة، وحلمت بأننى أشارك فى مؤتمر للإثنولوچيا عام ٢٠٥٠ (وكان الرقم مكتوبًا على لافتة فوق المنصة).

وكان هناك هندى أحمر من أمريكا يلقى الخطاب الافتتاحى للمؤتمر، فيقول:

(*) تعبير شاع فى الولايات المتحدة فى العقدين الأخيرين، ويقصد به الاستقامة فى السلوك الاجتماعى، لكنه تحول إلى مجموعة التصرفات الأخلاقية الشكلية والنمطية والتى تضع من يخالف هذا النوع الجديد من الامتثال تحت طائلة الحساب.

لا يرجع الأمر إلى كفاءتي الشخصية. ولكنني أنتمي إلى أول جماعة شكلت حضارة من أكبر الحضارات في التاريخ، أي إحدى الحضارات النادرة التي قدمت للإنسان إمكانية أن ينمي وجوده وأن يضفي عليه جمالاً: وهي حضارة (تاهوانتان ـ سويو) (Tahuantin - Suyu) والتي يطلق عليها مدمروها في لغتهم، إمبراطورية الإنكا (L'empire Inca)، وهم قد ألفوا التضاد بين السيد والعبد، كما ألفوا السلطة الإمبراطورية والخضوع. فكان النموذج لديهم هو الإمبراطورية الرومانية وقطعان العبيد فيها، حيث يتحكم مركز مكون من ٢٠ ألف مواطن في عشرين مليونا من الرعايا، يعدهم ويعد باقي البشر همجًا وبرابرة.

إن هؤلاء المغامرين المصابين بحمى الذهب ـ كما كانوا يسمونهم ـ جعلوا أمريكا أول أرض تتراجع إلى ما قبل التاريخ. كتب كريستوفر كولومبس، أول مفسدي النفوس، رسالة إلى ملك إسپانيا يقول له فيها: «**الذهب هو أثمن الخيرات... ومن يمتلكه يمتلك كل ما يحتاج إليه في هذا العالم.... وهو كذلك وسيلة خلاص النفوس من المطهر ـ (الأعراف) ـ وسبيل انتقالها يوما ما إلى الجنة**».

ولكنه ببساطة حمل لنا الجحيم.

لقد كرر أكثر من مرة في يومياته على السفينة: «لقد كنت منتبها وبذلت جهدا في معرفة ما إذا كان ثمة ذهب». وذلك عندما رأى عقوداً من الذهب عندنا يلبسها المواطنون المحليون، لأنه ـ وحتى الغزو ـ لم يكن الذهب عملة نقدية كما كان الحال في أوروبا. كما لم تكن هناك ملكية للأرض. وعندما لم يكن الغزاة يسرقونها من الذين يعملون فيها، وهو ما كان يحدث غالبا، وخصوصاً عندما يشتبه في وجود عروق من الذهب، كانوا يقترحون شراءها.

وهكذا، وكما صرح أحد قادة الهنود فى أمريكا الشمالية: **أرضنا أغلى من أى نقود.. ولا يمكن أن نبيعها لأنها ليست ملكا لنا. مهما طال الزمن فستبقى هذه الأرض لتعطى الحياة للبشر والحيوانات، ونحن لا نملك أن نبيع هذه الحياة.. ولذا لا يمكن لنا أن نبيع هذه الأرض.**

كان هذا الموقف يتعلق بكل أرض: أرض الجماعة الأساسية أو الأيلو (Ayllu) والتى كانت لا تُقَسَّم ولا تباع، أرض الشمس المخصصة لبناء المعبد وخدمة العبادة، وأرض الإنكا والتى كانت ثمارها مخصصة للأعمال الكبرى مثل تعبيد الطرق التى كانت أجمل بكثير من الدروب الرومانية باعتراف الغزاة أنفسهم: «جاءت الهمجية من أوروبا»، كما كتب أول شهود الغزو، الأب بارثمليماوس دولاكاز (Bartholome de las Casas). وهو شاهد عيان يقول: «منذ سنة ١٥٠٠، وأنا أرى وأتجول فى جزر الهند هذه وأعرف ما أكتبه».

فى البدء كان سلب الذهب والفضة. وتبين أرشيفات دار المحفوظات فى أشبيليه أنه منذ عام ١٥٠٣ إلى عام ٦٦٠: **فقد سرقت أوروبا ١٨٥ ألف طن من ذهب و ١٦ ألف طن من الفضة، ورغم ذلك تجرؤ على أن تتحدث عن ديون بيرو لبنك يبتلع الحياة، وأن تدعى أن هذا البنك كان يسمى فى عصر ما قبل التاريخ(*)، منذ قرن، «صندوق النقد الدولى».**

(*) لاحظ أن جارودى يتحدث هنا عن حلم، وأن هذا الحديث يتم فى منتصف القرن القادم (الحادى والعشرين)، والذى يمثل بالنسبة لجارودى بداية التاريخ الذى يصبو إليه وأن ما قبله سيكون عصر ما قبل التاريخ.

هذه النقود التى سرقت من أرضنا، أعطت دفعة هائلة لما كانوا يسمونه اقتصاد السوق (أى لنظام يباع فيه كل شىء، من الأسلحة التى تقتل الأجساد إلى الضمير الذى يقتل النفوس) وهو ما أسماه مغامرو أوروپا التجار بالاسم المبتذل «النهضة».

هذه السرقة التى على مستوى قارة، أسماها المهاجرون بعد كولومبس، اكتشاف أمريكا. وكأن الأمر كان يتعلق باختراع هذه الشعوب التى كانت تزرع الأرض منذ ١٠ آلاف سنة.

الجنود المرتزقة (Soudards) أسموه الفتح. والقساوسة من جانبهم، وأميرهم البابا، أسموه بالتبشير الإنجيلى. والمستعمرون أسموه بالحضارة، أى إدخال اقتصاد السوق.

أيًّا كانت الأسماء، فقد بدأ هذا العمل بمجزرة. ويقدر المؤرخون عدد السكان الهنود وقت الغزو بـ ٥٧ مليونا، مات معظمهم بأمراض حملها معهم الأوروپيون، مثل: الجدرى والسفلس والتيفوس، وأيضا ماتوا من جراء مجازر الحرب، وأكثر من ذلك من العمل الإجبارى، وخصوصًا فى المناجم والمزارع التى استولى عليها الاحتلال الاستعمارى.

وقد بدأ هذا بالاستيلاء على حضارة الإنكا، عبر الخيانة، بتعذيب المواطنين وقتلهم لينتزعوا منهم الذهب، ثم استعباد شعب بأسره لاستخراج المعدن.

وقد أدان بعض القساوسة الأبطال، مثل مونتسينوس (Monte-sinos) والدومينكانى پيدرو القرطبى (Pedro de Cordoba)، والأب پارثمليماوس دولاكازا، بلا جدوى، هذه الهمجية التى جعلت

الهنود يعتقدون أن الأوروپيين لا إله لهم سوى الذهب. وتمكن المستعمرون من طرد هؤلاء القساوسة!

وبفضل انتشار العملات الذهبية والفضية، نجح السادة المتعاقبون للاقتصاد الغربى: ڤينيسيا بدلا من إسپانيا، ثم إنجلترا وفرنسا وأخيراً الولايات المتحدة، فى أن يفرضوا على العالم دينًا، لا يجرؤ على الإعلان عن اسمه الحقيقى، ولكنه يصوغ فى الواقع كل العلاقات الإنسانية أو الاجتماعية أو الدولية أو الفردية: وهو **وحدانية السوق** أى عبادة الذهب. وهناك وثيقة من ذلك الزمان تتضمن باكورة كل ما حدث بعد ذلك، وهى وثيقة يوكاى (Yucay) (وهى محلة صغيرة بالقرب من كوزكو (Cuzco)، فى مركز منطقة الإنكا)، وكاتب هذا الرأى، الذى يتضمن مديحا لاهوتيا فى الاستعمار، هو الوالى جارسيا الطليطلى (Garcia de Toledo) الذى يريد أن يجعل من الاستغلال الدامى لكنوز پيرو جزءا من خطة العناية الإلهية: «**هكذا وهبت هذه الجبال من الذهب والفضة، وهذه الأراضى الخصبة المليئة بالثمرات، كى يأتى بشر، جذبهم هذا الأريج، يريدون من أجل مجد الله أن يدعوا الآخرين للإنجيل ويعمدوهم**»[٤].

ويضيف: «إنه من الضرورى جداً، من وجهة النظر الأخلاقية، أن توجد مناجم، لأنها إن لم توجد، ما كان فى هذه الممالك لا ملك ولا رب».

وهكذا خلال أربعة قرون تحت نير الاستعمار، وفى الستين سنة الأخيرة تحت حكم الولايات المتحدة، عادت بلادنا الهندية إلى أدغال ما قبل التاريخ.

وحوالى سنة ٢٠٠٠ بعد أن عانت بلدى من تدمير زراعتها وقتل ٩٠٪ من السكان. (وهى أكبر إبادة عرفها التاريخ)، أصبحت بلدى التى كان ثراؤها أسطوريًا (ففى وقت ما كان تعبير «إنها پيرو» مرادفًا للوفرة) فى نهاية عصور ما قبل التاريخ (ما بين ١٩٨٠ ـ ٢٠٠٠) بلدًا متخلفًا.

هكذا نميزها عن البلاد المتقدمة (وعلى رأسها السبعة الكبار) التى أدى نموها إلى خلق تخلفنا، ليس فقط عبر نهب ثرواتنا فى البداية ولكن أيضا بتدمير اقتصادياتنا التى شوهوها بأن حولوها إلى زوائد ملحقة بالمركز الاستعمارى. وهناك بعض تجارنا المحليين ازدادوا ثراء بالتعاون مع مستعمرينا من أوروپا والولايات المتحدة. ونجحوا بمساعدة أسيادهم فى أن يصبحوا عبيدًا من الطبقة الأولى، كما تحولت جماهير شعبنا إلى شعب من القرود يحاول أن يقلد السادة.

وفى ختام كلمتى أشير إلى وثيقة قديمة، وهى واحدة من الشهادات المتأخرة على عصر ما قبل التاريخ، وعنوانها: «حالة العالم عام ١٩٩٥» وتلخص بوضوح الجنازة البشرية لپيرو. هذا ما أصبحت عليه **تاهوانتنان سويو** بعد خمسة قرون من الاندماج فى الحضارة الغربية: ٧٦٪ من السكان ضحية لما كان يسمى فى هذا الوقت بالبطالة، أى الاستبعاد من العمل ومن أى حياة اجتماعية. ويعيش ثلث السكان تحت خط الفقر، الزراعة أهملت واضطر الفلاحون ـ لكى يبقوا على قيد الحياة ـ إلى زراعة الكوكا، وهى المادة الخام التى يصنع منها الكوكايين (المخدر الذى أصبحت الولايات المتحدة أكبر

مستهلكيه) لأن زراعة البن أو الكاكاو التى تدر عليهم دخلاً أقل ثلاث مرات لم تكن تسمح لهم بالعيش :

يمكن لهكتار من الأرض مزروع بالكوكا أن يدر على صاحبه ١٢٠٠ دولار كل عام وأحيانًا أكثر . وعلى سبيل المقارنة نجد المرتب السنوى المتوسط لعامل فى المناجم هو ٨٧٧ دولارا، ولعامل عادى ٦٤٩ دولارا، ودخل الفلاح غير المنتج للكوكا هو ١٥٠ دولارا .

هذا الإنتاج يسمح بتدفق دولارات المخدرات . والمستفيدون بهذه التجارة، والذين بمساندة فرق الموت (التى تمولها وتدربها مدرسة الأمريكتين فى الولايات المتحدة) قد تمكنوا من الاستيلاء على السلطة بالإرهاب .

هكذا أصبحت بيرو أحد التلاميذ المطيعين لصندوق النقد الدولى الذى يقرضها المال الضرورى اللازم لاستمرار جهاز الدولة، شريطة أن يراقب الشروط السياسية لسداد القرض (٦٠ مليون دولار فى الشهر عام ١٩٩٤): تجميد المرتبات والضمان الاجتماعى، تحرير الأسعار، خصخصة المؤسسات وحتى تلك التى تؤدى وظائف اجتماعية (من المواصلات والمستشفيات إلى التعليم). هناك ميزانية واحدة لم تمس، هى ميزانية القمع الذى تمارسه الشرطة والجيش.

هكذا يمكن للولايات المتحدة أن تُبقى فى السلطة، كما هو الحال فى كل أمريكا الوسطى والجنوبية، أحدَ عرائسها الخشبية، ليحكم بالفساد والإرهاب شعبًا يحتضر . هذه الآلية، التى حولت إحدى الحضارات المزدهرة فى العالم إلى عصور ما قبل التاريخ الحيوانية عبر خمسة قرون من الاستعمار الأوروبى آخرها نصف قرن من سيادة الولايات المتحدة، لم تتمكن من المساهمة فى أنسنة الإنسان وفى

الخروج من عصر ما قبل التاريخ الذى أعيدت إليه، إلا فى النصف الأول من القرن الحادى والعشرين(*) بعد الإفلاس الاقتصادى للولايات المتحدة التى فقدت مليارين من زبائنها، بواسطة مقاطعة صادراتها التى نظمها فى تاريخنا ما أطلق عليه «باندونج الجديدة»، وعودة البشرية إلى مسيرتها نحو عالم إنسانى إلهى فى الوقت نفسه.

* * *

بعد هذا التقرير الافتتاحى عن الدِّين السائد لشعوب الغرب فيما بين عامى ١٩٨٠ و ٢٠٠٠: وهو وحدانية السوق، جاء تقرير آخر عن التقنيات والجشع فى عالم ما قبل التاريخ، أى ما قبل عام ٢٠٠٠.

وقدم هذا التقرير شاب صينى كان أجداده من البوذيين، ونلمح ذلك من المرجعية التاريخية التى كان يحلل بها ما يسمى بالنمو فى القرن الماضى (القرن العشرين). فهو يشير أولاً إلى أن تنمية الإنسان فى ثقافته التقليدية، كانت تقوم على التحكم فى الرغبة، بل وأحيانًا على إخماد الرغبة. ويشرح كيف تغيرت تمامًا تنمية الإنسان: فمن وقتها أصبح الأمر يتعلق بإثارة الرغبة أو حتى بخلقها خلقا. وذكّر بأن سوفسطائيى أثينا القديمة كانوا يقولون إن الخير أن يكون للمرء رغبات قوية قدر الإمكان، وأن يجد الوسيلة لإشباعها.

وأضاف: «هكذا كان نظام التنمية فى أزمنة ما قبل التاريخ، ما بين عام ١٩٨٠ وعام ٢٠٠٠، قائمًا على هذا المفهوم للسوفسطائيين الأثينيين».

(*) تذكَّر أن من يتحدث هنا هو الشخص الهندى الذى يحلم جارودى بوجوده مستقبلاً فى منتصف القرن الحادى والعشرين.

وقد توقف مليّا عند تكنيك الجشع وأسماه تكنيك الدعاية والتسويق، أى تكنيك خلق احتياجات مصطنعة نمطية، تفتح الباب على مصراعيه أمام الشركات المتعددة الجنسية فى الكوكب كله. هذا التكنيك اكتسب من السلطة والاحترام ما تحظى به عقيدة دينية. وهذا يتشابه مع وحدانية السوق التى تحدث عنها المتحدث السابق، كدين لإله خفى، تؤمن به كل القبائل المتحاربة فى الغرب، وهو النمو. كان إلها قاسيًا يقتضى تضحيات إنسانية (وبدا ذلك من تعريفه للنمو) إذ قال: «كان نظاما عماده الإنتاج، أكثر فأكثر وأسرع فأسرع، لأى شىء نافع أو غير نافع، ضار أو حتى قاتل».

وأعطى بعض أمثلة قائلاً: «فى وسط هذا الجليد الإنسانى، فيما بين عامى ١٩٨٠ و ٢٠٠٠، كان ينفق حوالى ٤٥٠ مليار دولار على الأسلحة كل عام، وهو ما كان يؤدى إلى هذه النتيجة الفائقة تقنيًا: أن يوضع حوالى ٣ أطنان متفجرات على رأس كل ساكن فى الكوكب».
وأضاف: «إن هذا النظام كان يقتل دون حرب... حيث إنه، فى عصر الجليد الإنسانى هذا، كان ٤٥ مليونا من البشر يموتون كل سنة من الجوع فى العالم... وكان يستخلص من هذا النظام القبلى فى الغرب، نتيجة مؤداها أن ذلك كان علامة واضحة على التخلف العقلى».

واهتم الباحث بالمظهر الطقسى لدين النمو هذا، وبالأخص عندما تعرض لتعليم الطائفة الكهنوتية لهذا الدين، أى للتكنوقراطيين. وكان شديد الموضوعية، فقد كان يقول: «عندما نحب أحد الفنيين نسميه خبيراً، وعندما لا نحبه نسميه تكنوقراطيا». وقدم فى المقابل هذا التعريف: «إننى أطلق كلمة تكنوقراطى على رجل تم ترويضه بشكل

يجعله لا يطرح أبدًا مسألة الغايات، ولكن يطرح دائما مسألة الوسائل. لا يطرح أبدًا السؤال: لماذا؟ ولكن يطرح دائمًا السؤال: كيف؟». وكان واضحًا بالنسبة له أن هناك نجاحًا كبيرا قد تحقق فى هذا المجال. حينئذ طرحت مشكلة التعليم على الوجه التالى: «كيف يمكن ترويض هذه الطائفة الكهنوتية»؟ إن كل التعليم العالى كان بالفعل قائما على هذا الأساس. وفيما يبدو، حسب ما أعتقد، أن المتحدث كان متخصصا أصلا فى البيولوچيا، لأنه كان يشرح كيف أن التعليم فى هذا المجال لم يكن يطور سوى دماغ الزواحف.

وعند هذه النقطة، طلب منه مستمع إفريقى أن يدعه يدلل على حديثه بمثال من ثقافته الزنجية. فذكر بأنه قبل غزو البرابرة للشمال الإفريقى (البرابرة الشقر) كان حدادو ديولاس (Diolas) فى أسفل حوض نهر كزامانس (Casamance)، قد اخترعوا نظامًا لوضع قاعدة حديدية على الإطار الخشبى القديم، وقبل تنفيذ واستخدام هذا الاختراع طلبوا انعقاد مجلس الشيوخ لكى يعرفوا ما إذا كان هذا الاختراع سيؤدى إلى أى نوع من عدم التوازن فيما يخص العلاقة مع الطبيعة أو مع المجتمع. ألن يؤدى ذلك إلى سيادة للحدادين فى الجماعة، ويؤثر بالتالى على العلاقة بين البشر؟ وأضاف بأنه كان يجدر طرح أسئلة مماثلة فى الغرب عند اختراع الطاقة الذرية، ولكن ذلك للأسف لم يتم.

وبعد أن شكر الصينى رفيقه السنغالى على هذا المثال الحى، استمر فى عرضه.

بعد هذه العقيدة الأولى: عقيدة إنتاج أى شىء أكثر فأكثر وأسرع، فأسرع، جاءت العقيدة الثانية وهى الإيمان بالتقدم. وكان له هذا

التعريف الذى أقدمه إليكم: «التقدم هو فعالية متزايدة فى فن تدمير الطبيعة والإنسان». وضرب هذا المثل: «عندما فتح تيمورلنك دمشق قتل ٧٠ ألف نسمة، ولأنه قرر أن يقيم هرمًا من الجماجم فقد استغرق مشروعه عدة أيام. أما فى هيروشيما فقد استغرق الأمر سبع ثوان».

وأضاف أنه فى عام ١٩٩٠ كنا نمتلك أكثر من مليون قنبلة كقنبلة هيروشيما، أى ما يسمح بإفناء ٧٥ ملياراً من البشر، أى خمسة عشر ضعفًا للبشر الموجودين. علينا ألا نعرقل التقدم!

* * *

التقرير التالى قدمه رجل يبدو عليه أنه من أصل عربى - إسلامى. لأنه كان يميز بوضوح الاختلاف بين حضارة فردية يكون فيها الإنسان، كفرد وكأمة هو مركز ومعيار كل شىء، وجماعة إنسانية حقيقية يكون فيها كل فرد مشتركا واعيا بأنه مسئول عن مصير الآخرين جميعًا.

وكان عنوان كلمته «عوائق الحوار بين الثقافات فى الحقبة ما قبل التاريخية» (أى فى تخوم عام ٢٠٠٠).

وقد قام الرجل فى البداية بتحديد النظرة الغربية للعالم من خلال مصادرها الأساسية وهى: «لا يوجد سوى مسار واحد لتطور البشرية، وهو مسار الغرب. وينبغى تحديد موقف كل الشعوب بالنسبة لهذا المسار. فهم متطورون إذا شابهوا الغرب، ومتخلفون إذا كانت درجة الشبه أقل».

هنا قام مستمع، يبدو أنه أوروبى، واع بأخطاء الماضى الغربى يطلب التعريف بالدور الذى لعبه نوع معين من الاستشراق فى

هذا التصور الواهم. وبيَّن أن أشهر المستشرقين، سيلفستر دوساسى (S. de Sacy) الذى عرف جوته بحضارات الشرق، هو الذى صاغ تصريحات بوناپرت عند غزوه لمصر وتصريحات الچنرال بورمون (Bourmont) عند غزوه للجزائر. فإلى جانب كرسيه فى الكوليج دوفرانس، كان لديه مكتبه فى وزارة الخارجية.

أمّا ماكس مولر (Max Muller)، فهو من أكثر رجال الاستشراق التقليدى أهمية، وكان يعطى دروسًا فى كمبردج لتأهيل الإداريين الإنجليز فى الهند.

ومدام روث بينيدكت (Ruth Benedict) هى مؤلفة كتاب جميل عن اليابان بعنوان «السيف والأقحوان»، وقد كتبته بناء على طلب مكتب الحرب للچنرال ماك آرثر (Mac Arther) لتقوية عملية إدماج اليابان فى نظام السياسة الأمريكية.. ولقد أعطانى هذا فكرة شنيعة عن الاستشراق خلّفت فىّ الرغبة فى أن أصير مستغربا، أى أن أعمل على رؤية الغرب من خلال مجهَر. «أى كما يفحص العلماء المختصون الحشرات وكما ينظر المستشرقون للبلاد غير الغربية».

وعاد عالم الإثنولوچيا العربى إلى عرضه قائلاً: **«فى الواقع لم يكن هناك بلد متطور وآخر متخلف، كان هناك فقط بلاد سيدة وأخرى مسودة، بلاد مريضة بسبب نموها وأخرى مخدوعة لأننا جعلناها تتصور أن التنمية هى تقليد المرضى»**. ثم استخلص من ذلك خلاصة عملية: «إن ما كان يسمى فى حقبة ما قبل التاريخ «معونة العالم الثالث» لهو من باب النفاق. فبالفعل، عملت هذه المعونة المزعومة على تفاقم الاختلال فى التوازن وعدم التكافؤ».

والعلاج الوحيد من الهيمنة الغربية كان يمكن أن يكون هو نفسه نهاية النموذج الغربى فى النمو. ولو أردنا مساعدة العالم الثالث،

ينبغى أولاً تغيير هذا النموذج فى النمو. لأن هذا النمو لا يقبل التعميم على مستوى الكون، إذ طبقًا لهذا النموذج يكون نمو جزء من الإنسانية ليس ممكنًا إلا عبر تخلف كل الآخرين سواء بالغزو أو السلب أو التبادل غير المتكافئ، كما هو الحال فى زمن الاستعمار، أو بالتجارة الحرة، أى حرية الأقوياء فى ابتلاع الضعفاء.

وكان المتحدث العربى يعطى أمثلة على ما يسميه «الشرخ المتنامى فى عالم ما قبل التاريخ». إن التاريخ الإنسانى الحق، من وجهة نظره، يبدأ بتنمية تضامنية، لا يحقق وحدة إمبريالية للعالم يُطلق عليها العولمة، ولكنه وحدة سيمفونية يقدم فيها كل شعب مساهمة ثقافته الخاصة وتاريخه وعمله مستبدلاً باقتصاد السوق اقتصاداً تبادليّا.

وهكذا تفاقم اختلال التوازن فى نهاية القرن العشرين؛ فبين عامى ١٩٨٠ و١٩٩٠ انخفض مستوى المعيشة فى أمريكا اللاتينية ١٥٪ وفى إفريقيا ٢٠٪.

الحل الوحيد المتصور، حسب مشورة كسينجر لرئيس الولايات المتحدة (وقد رجع المتحدث إلى تقرير كسينجر للرئيس فورد حول الخطر الذى تمثله زيادة المواليد فى العالم الثالث على الأمن القومى للولايات المتحدة: NSSM 200) هو أن يقال لشعوب القارات الثلاث: حددوا النسل حتى نتمكن من الاستمرار على راحتنا فى السياسة المترتبة على هذه السياسة الديموجرافية. وهى عملية تعقيم جماعى ضخم فى العالم الثالث.

إلى هذه الدرجة من البربرية وصل النظام السائد فى حقبة ما قبل التاريخ، أى ما قبل منتصف القرن الحادى والعشرين.

وانتهت الجلسة الأخيرة بعرض فيلمين من الأرشيف. وكانا يلخصان، وكأنهما مجاز، نهاية القرن العشرين.

وهما الفيلمان الأكثر تكلفة فى تاريخ السينما، (لو جمع المال المستثمر فيهما وفى إرسال سفينة فضائية للقمر، لكان قد أمكن إنجاز ما لم نتمكن من إنجازه إلا بعد نصف قرن من ذلك الزمان، وهو إعادة تخصيب الصحراء).

الفيلم الأول، حديقة الديناصورات، يشير إلى غابة الديناصورات «حيث الأقوياء يلتهمون الضعفاء». والآخر عنوانه «تيتانك».

* * *

وانطلاقًا من هذا الحلم سيطر علىّ همان:

- كيف وصلنا إلى هنا؟

- كيف يمكن تصحيح الخطإ فى المسار؟

باختصار: ما العمل؟ كيف نخرج؟

موضوع هذا الكتاب هو الإجابة عن هذه الأسئلة.

الفصل الثالث

الغرب طارئ شطر العالم إلى ثلاثة أشطر

لقد تم تصدُّع العالم على ثلاث مراحل أساسية، كل واحدة منها مميزة بوصفها شطراً من الغرب.

الانشطار الأول : حدث فى الفترة من القرن السادس إلى القرن الخامس قبل ميلاد المسيح. وقد تأسست على الاعتقاد فى الاستثناء الإغريقى والاستثناء اليهودى. لقد عاشت الثقافة الإغريقية حتى الحروب الميدية(*) فى انسجام مع كبرى حضارات الشرق. ومن أطلقنا عليهم الفلاسفة قبل سقراط لم يكن لهم من الإغريقية سوى اللغة، وكانوا يعيشون فى آسيا الوسطى فى ضاحية لإمبراطورية الفُرس.

وحدث الاحتكاك بالرؤى الكونية الكبرى لآسيا، وخصوصًا رؤى الهند وفارس، التى كانت لا تفصل العقل عن التأمل المرتبط بالطبيعة والبشر والآلهة.

وعندما جاء سقراط وتابعوه، وخصوصًا أفلاطون وأرسطو، حدث الانشطار وأصبح للفلسفة موضوع وحيد هو الإنسان، منفصلاً عن الطبيعة (التى كان التعامل معها من اختصاص العبيد) وعن الله.

(*) حروب طويلة استمرت طوال النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد بين أثينا الصاعدة وإمبراطورية الفرس، وانتهت بانتصار أثينا، ثم فتوحات الإسكندر الأكبر المقدونى، بعد ذلك.

والشعراء الذين طردهم أفلاطون من جمهوريته قد أسلموا أمرهم للميثولوچيا التراچيدية، وترك الشعب للوثنية ولآلهة مشخصة لشهواتهم فى القوة والمنفعة.

وبنسيانهم لما استعاروه من آسيا (ومن إفريقيا فيما بعد ومن باقى العالم عبر الإسكندرية)، كانوا يعُدُّون كل ما لا ينتمى للعالم الإغريقى وكل من لا يتكلم لغتهم برابرة، خالقين بذلك من هذه العزلة الاصطناعية الهائلة أسطورة المعجزة اليونانية.

فى الفترة نفسها، حدثت القطيعة نفسها فى الشرق الأدنى، المسكون منذ قرون بموجات متتالية من البدو المهاجرين من الصحراء القفر فى شبه جزيرة العرب ليستقروا على أراضى الهلال الخصيب.

وهنا كانت قبائل الفلاحين بلا أرض ـ الذين كانوا يسمون «عابيرو» (habiru) (وهو أصل محتمل لكلمة عبرانيين) ـ مشتتة، كما بينت حفريات مارى(*) فى الهلال الخصيب وألواح تل العمارنة فى مصر. ثم نجحت هذه القبائل فى تكوين اتحاد ثم دولة تسللت إلى أرض كنعان، وأسست فيما يبدو، إمبراطورية (حسب الكتاب المقدس وحده، دون أى مصدر كتابى أو أثرى آخر). وجاء أول ذكر لهذه القبائل فى نصوص خارجية (آشورية) ترجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد، أو كتابات الملك سليمان وريث الإمبراطورية العبرانية الأسطورية للملك داود، وقد سجل هذه القبائل كتابةً كل الإرث الشفهى الذى استمرّ لقرون عديدة والذى يتابع الماضى الأسطورى لهذه القبائل ولمؤسسيها، معطية إياه مضمونًا تاريخيًا ومذهبيًا فى آن.

(*) حفريات اكتشفها عالم الآثار پارو Parrot فى مدينة مارى بسوريا على نهر الفرات، وترجع إلى العصر البابلى والآشورى.

الفكرة الرئيسية التى نخرج بها من كل هذه التجميعات، هى أن هناك سلفًا هو إبراهيم، بالرغم من أنه قد وصف بأنه آرامى (وهو ما يعنى «سورى») قد تلقى من الله أرضًا موعودة (الأرض التى غزاها داود أبو سليمان).

منذ هذه اللحظة، أى شخص لا ينتمى للاثنتى عشرة قبيلة لا يمثل جزءًا من الشعب المختار من الله عن طريق هبة الأرض والوحى بالشريعة. هكذا وجد الآخرون أنفسهم، كالبرابرة بالنسبة لليونان، مطرودين من الحضارة الوحيدة الحقيقية: الحضارة اليهودية.

وبعد تسعة قرون، جاء المسيح، ودعوته الكونية التى حشدت أكبر طاقة فى تاريخ البشر والآلهة، تلك الآلهة التى كان يجرى تصورها حتى ذلك الحين على أنها ملوك جبابرة. وفتح الطريق أيضا لحياة مبدعة بتحطيم الممنوعات القديمة وخصوصية الشريعة، وبقطيعة مع المفهوم القبلى والوثنى لإله جزئى ومنحاز قد اختار شعبا محددا، مذكِّرا بأن الله هو أبو كل البشر. وكان هناك رجل يعرف جيدا كلتا الثقافتين وهو بولس الطرطوسى(*). وقد أنجز توليفة مناديا فيها بزعامة يسوع (Charisme)(**). وبلور مذهبًا لا يرجع أبدًا إلى كلمات يسوع وممارساته فى حياته لكى يجعل من النجار الفقير فى الناصرة: مسيح (باليونانية خريستو Christos) اليهود، وخليفة داود

(*) القديس بولس من طرطوس بتركيا الآن، كان يهوديا ومواطنا رومانيا معاديا للمسيح، ثم تنصر بعد رؤياه للمسيح وهو فى طريقه إلى دمشق، وعلى أثر ذلك بدأ دعوته للمسيحية فى مختلف أرجاء العالم.

(**) Charisme: مذهب لاهوتى مسيحى يرى أن هناك دائما أشخاصًا يصطفيهم الله بفضل غير مرئى من أجل خير جماعة المسيحيين.

ومكلفا بإعادة تأسيس مملكة داود من خلال عودة منتصرة على الأرض تتناسى ما كان مصاحبا لظهوره الأول من التواضع والزهد، والرفض لكل سلطة.

من هذه التوليفة ولد الدين الجديد: المسيحية، والذى بعد ثلاثة قرون من الخلافات، أحل مكان الرسالة التحريرية ليسوع الزاهد (كما يقول الأب دانيلو) لاهوتا للسيطرة. وبفضل الإمبراطور قسطنطين(*) الذى وجد فيه أداة لتوحيد إمبراطوريته، أصبحت هذه التوفيقية دين الدولة الرسمى.

هذه الجماعة التى تحولت إلى كنيسة، وريثة بنية الإمبراطورية وهيمنتها وبيروقراطيتها، عَدَّت نفسها - بعد أن اضطهدت اليهود والهراطقة (أى من يريدون العيش كأتباع ليسوع) - بديلاً للشعب المختار، وبالتالى طرحت على نفسها واجب أن تُلحق بها باقى العالم.

الانشطار الثانى: أوروبا المسيحية هذه، والتى أصبح على رأسها، حسب المصطلحات القديمة للإمبراطورية، كاهن أكبر (Pontif)(**) رومانى، كان عليها ابتداء من القرن الخامس إنجاز الانشطار الثانى الذى عبر عن نفسه بصورة جديدة: بدلاً من الانفصال عن آسيا

(*) أول إمبراطور رومانى يعتنق المسيحية عام ٣١٣م. وحارب التفسيرات الأخرى للإنجيل، وجمع بين السلطة الزمنية والروحية وشيد مدينة القسطنطينية وجعلها عاصمة للإمبراطورية.

(**) كان فى البداية مجلس كهنة جوبيتر فى روما. وكان يقوم بوظيفة دينية وتشريعية، ثم بعد فترة انقطاع استمرت حوالى ٧٠ عاما فى القرن الثالث الميلادى، أصبح قيصر روما هو الكاهن الأكبر ولم يعد مجلسًا جماعيًا.

وإفريقيا (وكانوا لا يزالون يجهلون وجود أمريكا) أعطوا أنفسهم مهمة إخضاعهما معتبرين أنفسهم دائما الشعب المختار الجديد، والذى يحوز الدين الواحد الحق، والحضارة الواحدة الحقيقية، والذى كان لديه، بالتالى، السلطة بل واجب تجاهل أو مقاتلة ثقافات آسيا وإفريقيا، وفرض ثقافته عليهما مستنداً دائمًا إلى السلطة السياسية والعسكرية والتى يمنحونها، فى المقابل، مبررات للمباركة.

هذا الانشطار الثانى، بعد أن أصبح إلغاء وتدميراً، بل وقبل كل شىء سيطرة على باقى العالم وإيمانه وثقافاته المحلية، قد دام خمسة عشر قرنًا، هى قرون استعمار الأمم المسيحية، حتى عندما قسم الإصلاح أوروپا إلى قسمين: الشمال الپروتستانتى والجنوب الكاثوليكى.

الانشطار الثالث: حدث فى منتصف القرن العشرين بعد انهيار ودمار أوروپا بأسرها من الأطلنطى إلى جبال الأورال فى أعقاب حربين أوروپيتين (سميتا بالعالميتين لأن الأوروپيين استخدموا أبناء الشعوب المستعمرة فى القارات الثلاث كطعام للمدافع)، وانقلب محور العالم: الولايات المتحدة الأمريكية التى اغتنت بفضل احتضار كل الشعوب، ولم تهب لنجدة المنتصرين إلا فى اللحظة الأخيرة (عام ١٩١٧ بعد معركة فردان وعام ١٩٤٤ بعد معركة ستالينجراد) وجدت نفسها على رأس نصف الثروة العالمية.

هذه الثروة سمحت لها بأن تجعل من الدولار معياراً للنقد العالمى، على قدم المساواة مع الذهب، كما سمحت لها بأن تدعم (بشرط خضوعها السياسى) أولاً أوروپا عبر مشروع مارشال كى تجعلها من جديد سوقًا رائجة ـ (موسرة Solvable) ـ بعد دمارها فى

الحرب، ثم بعد ذلك العالم كله بواسطة صندوق النقد الدولى والذى كان له أيضا نفس الهدف فى السيطرة.

إن انهيار الاتحاد السوفييتى، الذى كان قد خان الاشتراكية بتقليده نموذج النمو الغربى عبر اقتصاد بيروقراطى مخطط (لم يكن ليتطور إلا بواسطة سوق حرة تضمن هيمنة الأقوى والأغنى) قد سمح للولايات أن تضع لنفسها هدف السيطرة على العالم بعد أن أعادت الرأسمالية إلى عقر دار خصمها السوفييتى.

وقد حدث الانشطار الثالث فى منتصف القرن العشرين معطيًا لهذه الوحدة الإمبريالية اسم العولمة.

إن رغبتهم فى التنميط وفى تبعية اقتصاديات وسياسات وثقافات كل الشعوب، قد استبعدت منظور الوحدة السيمفونية الذى كان قد خلق الوحدة الغنية للعالم بواسطة الإخصاب المتبادل لكل الثقافات، محترمًا تنوعها.

بهذا المعنى يكون هتلر قد كسب الحرب: فقد تحققت الأهداف الكبرى التى وضعها لنفسه، وإن كان ذلك قد تم بدونه، لأنها تتابع نفس المسار التاريخى لانشطارات الغرب الثلاثة.

١ ـ فقد عرف كيف يواصل ـ بالأسلوب الأكثر همجية ـ أطروحة انقسام العالم بواسطة امتياز الشعب المختار جاعلاً منها حكرًا على الجنس الآرى، والذى أصبح بالتالى وريثًا للتفوق اليونانى وللاصطفاء اليهودى، وللمسيحية التى أرادت أن تكون هى لحمة الوحدة الأوروبية وسداها وقائدة العالم.

الصيغة الهتلرية ليست مختلفة جوهريًا عن هذه المزاعم السابقة. بل اكتمال لهذا الابتكار: أن يطبق على بشر من

الجنس الأبيض أنواع العذاب التى خصصها الاستعمار الغربى للشعوب الملونة، على سبيل المثال عبر إبادة الهنود الحمر والتجارة فى العبيد السود، وهيروشيما وڤيتنام والعراق.

٢ ـ تسير سياسته على خطى سياسة الغرب ومبادئها المركزية التى أدت إلى الانشطار الثانى منذ عصر النهضة، سواء تعلق الأمر بالشمولية الاقتصادية التى تعمل دون تدخل الشعب بواسطة لعبة التحكم عبر سلطة خارجية فقط، ممثَّلة فى حكم البنوك أو الشركات المتعددة الجنسية (تنوعات أمريكية وغربية) أو سلطة بيروقراطية حزب وحيد يتباهى هو أيضا بأنه نابع من الشعب ومعبر عن وعيه (تنوع سوڤييتى).

هذا التشابه وهذه الندية يفسران أنه فيما بين عامى ١٩٣٣ و١٩٣٩ وجد أصحاب التنوع الأول (الغربى) والذين لا يريدون على الإطلاق أى بديل اشتراكى (حتى وإن كان الاتحاد السوڤييتى فى الواقع خيانة له) فى هتلر حاجزاً ضد البولشفية، وقد ساعدوه، وعملوا على تقوية سلطته(٥).

بعد الهزيمة العسكرية لهتلر، والتى كان الاتحاد السوڤييتى هو صانعها الأول، كتب تشرشل: «لقد قتلنا الخنزير السيىء». ومنذ خطابه فى مولتون عام ١٩٤٦، فتح الجبهة الجديدة للحرب الباردة، للوصول مع الولايات المتحدة، لتحقيق هدف هتلر: القضاء على الاتحاد السوڤييتى.

٣ ـ المخطط الأخير لهتلر: السيطرة العالمية (منذ ١٠ آلاف سنة كما يقول) بواسطة التخريب البيولوچى للأجناس الدنيا. لقد تحقق هذا الهدف بواسطة عملية بربرية قام بتنفيذها وإن لم يكن قد

اخترعها : علم الهندسة الوراثية والداروينية الاجتماعية عبر التعقيم الجماعي للعالم الثالث، وذلك باستبعادهما للأجناس الأقل قدرة، وهو ما يتم اليوم على مستوى أكبر بكثير مما كان عليه في الوقت الذى كان النازى يستخدمه فيه(*) .

إن مفهوم هتلر عن العالم قد انتصر، بعد موته، لأنه كان في قلب منطق الانشطارات الثلاثة السابقة للغرب وامتدادها الجهنمى.

ولا يمكننا حتى أن نقول إن مشروع هتلر قد أنجز بواسطة أعدائه : الهجين الإسرائيلى ـ الأمريكى الحالى، لأنه إذا كان هتلر قد تحامل على اليهود الألمان الذين كانوا يريدون أن يظلوا ألمانا ويبقوا فى ألمانيا ولكن، والحق معهم، فى إطار من احترام دينهم وجماعتهم، فإن تعاونه مع الصهاينة (٥٪ من السكان اليهود المنظمين فى عام ١٩٣٣) قد دام فى أثناء حكمه من عام ١٩٣٣ إلى عام ١٩٤٤. لأن الصهاينة كانوا ينادون بالعودة إلى فلسطين (وهو ما يتوافق مع إرادة هتلر فى أن يفرغ ألمانيا، ثم أوروبا من اليهود بالدفع بهم إلى جيتو عالمى فى فلسطين أو فى أى جزيرة إفريقية).

ومن هنا أنجزت اتفاقيات هاڤارا، منذ عام ١٩٣٣، والتى كانت تسمح لليهود الأغنياء بالهجرة بعد وضع ضمان فى بنك هامبورج، يدفع لهم فى تل أبيب على شرط أن يقوم القادة الصهاينة بمحاربة المقاطعة المنظمة ضد ألمانيا النازية فى العالم.

ومن هنا جاءت الموافقة التى منحت لمنظة بيتار Bétar (إحدى الكتائب الصهيونية) بالعمل فى ألمانيا النازية حتى عام ١٩٣٨.

(*) أراد هتلر استبعاد العناصر الأدنى ونفذ المشروع الغربى للتنمية نفس الهدف بإقناع الشعوب الأخرى بتحديد المواليد، واتبع أساليب الترغيب والترهيب ـ الناشر.

ومن هنا أيضا جاء اقتراح إسحق شامير فى عام ١٩٤١ بالتحالف العسكرى بين عصابته المسلحة زفاى لومى Zwai Lumi والجيش الهتلرى. وهو ما أدى إلى القبض على شامير من قبل الإنجليز بتهمة الإرهاب والتعاون مع العدو.

ومن هنا كان الاقتراح الشنيع الذى قدمه إيخمان Eichman لمندوبى الوكالة اليهودية، بتبادل ١٠ آلاف شاحنة مقابل مليون يهودى بشرط مزدوج:

(أ) هذه الشاحنات لا تستخدم إلا فى الجبهة الشرقية.

(ب) أن يقوم الصهاينة بدور الوسطاء كى يحققوا سلامًا منفصلاً مع الولايات المتحدة وإنجلترا بما يسمح لهتلر القيام بجهد أخير لهزيمة الاتحاد السوفييتى[٦].

* * *

الفصل الرابع

هتلر كسب الحرب

أيّا كان مصير هتلر الشخصى، أو انتحاره فى خندق تحت بوابة براندبورج، فإن منطق الانشطارات الثلاثة للغرب والذى جسد انتصاره لفترة ما، قد استمر فى الانتصار بعد موته لأنه لم يكن سوى التعبير المؤقت والهمجى عن هذا المنطق.

إن اغتيال يوليوس قيصر لم يغير المسار التاريخى لروماء التى اتجهت سريعا بعد موته إلى الإمبراطورية التى وضع هو أسسها. وهزيمة ناپليون بعد واترلو ونفيه، لم يمنعا فرنسا من العيش قرنين من الزمان طبقًا للبنى العامة التى أرساها لإدارتها، كما لم يمنعا أوروپا من أن ترى مبادئ الثورة الفرنسية تعبر عن نفسها فى كل مكان. وهى التى ضمن لها روبسبير ذو الحصان (كما كان ناپليون يسمى نفسه) الانتصار عبر الحرب.

ما زالت النازية فلكًا غريبًا فى سماء أوروپا، وهبوطا استثنائيا وغير معقول للشيطان، هذا إذا لم نر فيها تعبيراً همجيّا عن منطق النظام الذى يسعى له الغرب بعد الانشطارات التى حطمت وحدة العالم. وفى الوقت نفسه أعطت «كاريكاتور» لسيطرة الشخص الواحد.

وقد تبنى هتلر تمامًا (فى شكل جديد، ذلك الشكل الذى أعطاه لها والمماثل للشكل المسيحانى (messianique)(*) لقوميات القرن التاسع عشر، وتنظيرات الكونت دو جوبينو Comte de Gobineau عن الأجناس والنزعة الآرية) الفكرة السائدة عن الجنس المختار، فى طبعته العبرية ثم المسيحية، كما فى الطبعة اليونانية ـ الرومانية: شعب تلقى وعداً بسيادته على العالم، على الأميين (goys)(**) أو على الكفار أو على البرابرة، أى على من هم أدنى منه فى الدم والدين والحضارة.

باسم نفس المسيحانية المنقذة، أعلن هتلر ألف عام من النازية، كسيطرة، وكإعادة تجديد للعالم بواسطة نقاء الشعب المختار الجديد: الآريون.

لقد تبنى هتلر، المسلَّمة الأساسية للانشطار الثانى: العلم يعد بحل كل المشكلات، بما فيها تلك التى تنسب إلى الله منذ زمن طويل. على سبيل المثال تطور الإنسان عبر داروينية اجتماعية تسرع من عملية الانتخاب الطبيعى من خلال الانتخاب الصناعى، الذى هو من عمل الإنسان، أى عبر الهندسة الوراثية، وفى هذا المجال لم تبدع همجية هتلر شيئًا جديداً.

(*) مسيحانية اسم يطلق على ركن من أركان الديانة اليهودية الذى يتنبأ بظهور المسيح المخلِّص، كما يطلق على أى نزعة دينية تنتظر من يأتى ليملأ الأرض عدلاً مثل رجعة المسيح والمهدى المنتظر، كما أنها تطلق أيضا بمعنى مجازى على الفلسفات والمذاهب التى تعد بتحرر البشر عبر إنجاز أمة معينة أو طبقة اجتماعية لرسالتها التاريخية.

(**) الجوييم goyim هو الاسم الذى يطلقه اليهود على جميع الشعوب الأخرى، وحسب العديد من الدراسات اللغوية فإن كلمة أميين هى ترجمة لهذه الكلمة فى اللغة العربية.

فى القرن العشرين، وخصوصًا بعد الأزمة العالمية الكبرى عام ١٩٢٩، ظهرت كل أشكال المالتوسية الجديدة(*)، والداروينية الاجتماعية القائمة على حرب الجميع ضد الجميع كما قال هوبز، وعلى قانون السكان لمالتوس وعلى الانتخاب الطبيعى لدارون وبقاء الأصلح لسبنسر.

إن الهندسة الوراثية التى تعنى التطبيق الواعى للانتخاب الطبيعى لدارون على الإنسان باستبعاد الأقل صلاحية، ليست مذهبًا هبط من السماء مع هتلر. إن الديمقراطيات الليبرالية، منذ مالتوس، والتى تبشر بالدفاع عن حقوق الإنسان هى رائدة هذا الاتجاه، وهى التى تمارسه، إنجلترا أولاً ثم الولايات المتحدة. ففى عام ١٩٠٢ أصدر الإنجليزيان بارسون وجالتون صحيفة بيومتريكا (Biometrika) التى أثارت مذاهبها فى الهندسة الوراثية حماسة برنارد شو الذى كتب فى «الإنسان السوپرمان»: «نحن نعرقل لعبة الانتخاب الطبيعى لنقص فى الشجاعة تحت قناع من حب الإنسانية. ولأننا كسولون نهمل الانتخاب الصناعى تحت غطاء من الحساسية والأخلاق». كما ينادى هـ.ج. ويلز بتعقيم الفاشلين.

وفى الولايات المتحدة، تم أول تشريح چينى فى العالم، وفى عام ١٩٠٧ صدَّقت ولاية إنديانا على قانون بتعقيم المجانين والمتخلفين

(*) نسبة إلى مالتوس عالم السكان الإنجليزى فى القرن التاسع عشر، الذى كان يرى أن الموارد تزيد بمتوالية حسابية، فى حين أن السكان يزيدون بمتوالية هندسية، وهو ما يجعل الموارد غير كافية ويفتح الباب أمام الحروب والإبادة كحل للمشكلة. وقد رد عليه ماركس وأرجع المشكلة إلى نمط الإنتاج وسوء توزيع الموارد. ولكن فى النصف الثانى من القرن العشرين عادت المالتوسية للظهور من جديد.

عقليا ومرضى الصرع. وفى عام ١٩٥٠ تبنت ٣٣ ولاية أمريكية قوانين مشابهة، وأجريت ٥٠١٩٣ حالة تعقيم.

فى البلاد الإسكندناڤية حدث الأمر نفسه. وفى عام ١٩٩٧، تبين أن هذا النظام الهمجي قد تم تطبيقه فى السويد. فمن قبل، وفى عام ١٩٢١ قال وزير الثقافة: «من حسن حظنا أن لدينا الجنس الأقل اختلاطًا، جنسًا يحمل أرقى الخصائص الإيجابية».

لقد أدانت صحيفة لوموند فى ٢٧ من أغسطس عام ١٩٩٧ سياسة السويد الچينية التى أدت إلى تعقيم إجبارى لـ ٦٠ ألف شخص. وتذكر بأن فئة رجال السياسة فى تلك الفترة كانت تعتقد فى مزايا الهندسة الوراثية، التى كانت على الموضة فى العديد من بلدان أوروپا والتى تتماشى ولسبب وجيه مع عار الأوامر الهتلرية فى هذا الصدد.

ولكننا ننسى التذكير بأن وراء منظّرى هذه الممارسة الشنيعة رجال السياسة الأمريكيين وعلى رأسهم كيسنجر:

وفى عام ١٩٣٤ كتب عالم الاقتصاد جونار ميردال (Gunner Myrdal) فى كتاب «أزمة الديموجرافيا»: «المشكلة مطروحة على كل الأفراد الذين هم ليسوا كاملين تمامًا، والذين هم فى ظل الحياة الحديثة يجدون صعوبة فى الاعتماد على أنفسهم ليعيشوا. فعُشر السكان بل خمسهم مهددون بالقضاء عليهم فى هذا القتال التنافسى الصعب. وبمعالجة هذه المشكلة الممتدة، علينا ألا ننسى أن التطور التكنولوچى والتنظيم الاجتماعى المرتبط به، يميل إلى أن يرفع باستمرار المستويات المطلوبة فى الذكاء والشخصية. والحل هو: الاستبعاد الجذرى للأفراد غير القادرين على العيش، وهو ما يحققه التعقيم».

ومن المستحسن الوصول إلى هذا الإجراء بشكل «طوعى»، ولكن إذا بدا ذلك مستحيلاً، فينبغى تقوية القوانين الخاصة بالتعقيم، أو حق مؤسسات المجتمع فى تعقيم الأشخاص برغم أنفهم.

وبعد الحرب، عُدّ ميردال فى الخمسينيات والستينيات خبيراً عالميّاً فى الاقتصاد والسكان، وأصبح مستشاراً للبنك الدولى بل أهله ما سبق لأن يحصل عام ١٩٧٤ على جائزة نوبل!

وبعد الاضطرابات فى عام ١٩٦٨ ، حازت المالتوسية الجديدة والداروينية الاجتماعية على بعث جديد: لقد أصبح الفقراء بشراً زائدين عن الحاجة، وخصوصًا فى بلاد العالم الثالث. والحل الأكثر سهولة هو التخلص منهم.

ولهذا قام الچنرال دراپر (Draper) أحد مديرى شركة ديلون Dillon ، وابنه مدير بنك الاستيراد والتصدير، أمام رونالد ريجان فى ربيع عام ١٩٧٩ بمقارنة الشعوب المتخلفة بالمحميات الطبيعية فى كروجر پارك بجنوب إفريقيا:

«لقد زادت الفيلة عن الحد، وبدأت تكسر الأشجار وتحرم الحيوانات الأخرى من الطعام. وقرر حراس المحمية (rangers) أن يخفضوا بعض الأنواع ليحافظوا على التوازن البيئى».

ولكن من هم حراس محمية الجنس الإنسانى؟!

وفى ٢٦ من نوڤمبر عام ١٩٧٥ قدم هنرى كسينجر وزير الخارجية وبرنت سكوكروفت لرئيس الولايات المتحدة مذكرة عن قرار ٣١٤ لمجلس الأمن القومى حول ما يتضمنه نمو السكان العالمى من أخطار على الأمن القومى للولايات المتحدة ومصالحها عبر البحار[٧].

والمصدر هنا هو مؤتمر المستقبل الكونى عام ٢٠٠٠ (Global 2000) الذى قدم تقريراً إلى الرئيس عن حدود الزيادة السكانية (١٩٧٢) يتجاوز فيه البيان الشهير لنادى روما والذى كان يطالب بتخفيض الزيادة السكانية وفى نفس الوقت زيادة الإنتاج . وقد اقترح مؤتمر المستقبل الكونى ما يلى : أن يتم فرز سكان الجنوب لأن مرحلة النمو التكنولوچى هى السبب الأساسى فى الزيادة السكانية .

ويمكن أن يتم الفرز بواسطة ضغوط اقتصادية: معدل زائد للفائدة فى البنك الفيدرالى للاحتياطى فى الولايات المتحدة، والأهم من ذلك الشروط السياسية لصندوق النقد الدولى (F.M.I).

إن وثيقة الأمن القومى NSSM 200 تضع تصوراً مستقبليا لإجراءات نشطة لإجبار البلاد المتخلفة على قبول تحديد النسل، وبالأساس حرمانها من الغذاء .

«هناك سوابق واضحة، إذا أثبت بلد حسن إرادته فيما يخص تحديد النسل، فإننا سنأخذ هذا المسلك فى الحُسبان عندما تأتى اللحظة لتقييم ما يحتاج إليه من معونة من (البنك الدولى) والهيئات الاستشارية الأخرى» .

«وبما أن النمو السكانى هو الذى يحدد الاحتياجات الغذائية، فينبغى أن نأخذ فى الحُسبان، عندما يتعلق الأمر بتوزيع الموارد المحدودة، الإجراءات التى اتخذها هذا البلد أو ذاك، ليس فقط من أجل إنتاج الغذاء، ولكن أيضا من أجل تحديد النسل. فى مثل هذا.

المجال الحساس علينا تجنب أن نعطى انطباعًا بأننا نستخدم طرقًا من العقاب، سواء فى الشكل أو فى المضمون».

ويرى تقرير «الأمن القومى ٢٠٠» أنه سيصبح من الضرورى فرض برامج إجبارية، وعلينا أن نفكر فى هذه الاختيارات من الآن (. . .) هل الغذاء سيُعَدّ أداة للقوة القومية؟ هل سيتعين علينا أن نختار بين أولئك الذين يمكننا مساعدتهم بشكل معقول؟ وإذا كان الحال كذلك، فإن التحكم فى المواليد ينبغى أن يصبح أحد المعايير لتسليم معوناتنا . هل سكان أمريكا أنفسهم مستعدون لقبول أن يصبح غذاؤهم حصصًا تموينية لمساعدة الشعوب التى تحتاج إليها، لكنها لا تستطيع التحكم فى زيادتها السكانية؟

وفى الصفحة ١٣٨ يؤكد تقرير ٢٠٠ أن هناك خبرات متضاربة، لكن ناجحة تمامًا فى الهند، حيث إنه بعد منح مزيد من المساعدات المالية ومكافآت أخرى قبل كثير من الرجال الهنود أن يعقموا .

هذه الإبادة الوقائية (والتعبير لمنظمة اليونيسيف Unicef) قد تم وضعها بصورة عامة ومنظمة فى العالم الثالث : فيكشف مدير مدرسة البوليتكنيك فى ريو دى چانيرو وهو بوتيستو ڤيدال Botisto Vidal فى كتابه «السيادة والكرامة الوطنية» (صـ ٢٠٢) أنه «رسميًا وحسب أرقام IBGE، قد تم تعقيم ٤٤٪ من النساء البرازيليات فى سن الإخصاب» .

ويؤكد التقرير الصادر بشأن السكان عن منظمة اليونيسيف فى ديسمبر عام ١٩٩٢ على أن «تعقيم النساء منتشر بشكل خاص فى أمريكا اللاتينية وآسيا : ٣٩٪ فى جمهورية الدومينيكان، ٣٧٪ فى كوريا الجنوبية» .

ويستنتج من كل هذه الاحصاءات أنه من الكذب أن يقال لسكان الجنوب: أنتم فقراء لأن عندكم كثيراً من الأولاد. وبذلك تتم تبرئة الشمال، بدلاً من أن تقال الحقيقة: أنتم فقراء لأن الاستعمار نهب مواردكم وفكك اقتصادكم، وإن المنظمات الناتجة عن اتفاقية بريتون وودز(*) (Bretton Woods)، صندوق النقد الدولى والبنك الدولى والجات إلخ، تستمر فى هذا العمل بالاحتفاظ بالتبادل اللامتكافئ فى تقسيم العمل الدولى، فارضة على الجنوب نماذج من التنمية والبنى السياسية التى تلبى فقط مصالح الشمال.

بعد كل هذا يمكن التعرض لمشكلات المواليد بين الشمال والجنوب فى إطار موارد العالم وتوزيعها.

وهكذا فإن وحدانية السوق تقتضى الكثير من التضحية والقرابين كأى دين من أديان الماضى.

والهندسة الوراثية لم تولد فى ألمانيا عام ١٩٣٣ مع وصول هتلر للسلطة، فقد اخترع ألفريد پلوتيز Alfred Ploetz مصطلح الصحة الاجتماعية. وأصدر عام ١٩٠٤ أرشيفًا عن البيولوچيا للعرق والمجتمع.. وأسس عام ١٩٠٧ منظمة الصحة الاجتماعية.

وفى مارس عام ١٩٢٥، تأسست الرابطة الألمانية لإعادة الإنتاج الشعبى للخصائص الوراثية والتى تولى رئاستها ابتداء من عام ١٩٣٠ آرثر أوسترمان Arthur Osterman والذى كان يموله بنك جولد سميث ـ روتشيلد. (وعالم التناسل ريشارد جولد سميث، الذى

(*) مؤتمر دولى عقد فى يوركشاير فى يوليه عام ١٩٤٤ بخصوص التبادل المالى والتجارى العالمى، ونشأ عنه صندوق النقد الدولى، وباقى المؤسسات والآليات الدولية الأخرى، مثل البنك الدولى والجات.

اضطر باعتباره يهوديا فى المنفى إلى نشر كتاب فى البيولوجيا عام ١٩٢٧ : "Ascaries" ينادى فيه بتعقيم المتخلفين والمرضى) .

وفى زمن جمهورية ڤايمر(*) Weimar فى أثناء انفصال الثانى من يوليو عام ١٩٣٢ ، دافع أربعة أطباء اشتراكيين فى المجلس البروسى للصحة (ومن بينهم أوسترمان «Ostreman») عن قضية التعقيم . وعلى نفس المائدة المستديرة كان هناك ممثلون لرابطة الأطباء النازيين (دكتور كونتى Conti) ممثلون للمنظمة اليهودية للصحة . وقد صدّق وزير الداخلية ڤيلهلم ڤون جايل Wilhelm Von Gayl على المشروع الذى قدمه المجلس . وكانت قوانين النازى التى اقترع عليها بعد ذلك هى النتيجة المنطقية لهذه الحركة .

وهذا يعنى أنه فى هذا المجال من انعدام الإنسانية ، كما فى أى مجال آخر ، كان النظام النازى يسير مع منطق شناعة النظام الرأسمالى ، كما كانت أيضا بعد ذلك بعدة سنوات مساعدة الولايات المتحدة لپينوشيه والچنرالات الجلادين فى الأرچنتين والبرازيل ، وفرق الموت التى شكلوها ، يسايرون نفس النظم .

لقد كانت العنصرية الهتلرية الرهيبة هى الصيغة القصوى لخمسة قرون من الاستعمار ، حيث كانت عمليات الجستابو تطبق على الشعوب الملونة كما تطبق على السلاڤيين واليهود والمعارضين ورجال المقاومة .

(*) جمهورية ڤايمر ، أعلنت فى ألمانيا عام ١٩١٨ بعد هزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى وتنحى الإمبراطور غليوم الثانى . وكانت جمهورية ذات اتجاه اشتراكى معتدل ، وقد وقعت فى أزمات اقتصادية عديدة كالبطالة والتضخم وكذلك صعود القومية المتطرفة ، مما أدى إلى انتصار النازى والقضاء على هذه الجمهورية .

هذا المنطق التاريخى لا غنى عنه من أجل فهم التاريخ، بدلاً من أن نرى أن هتلر كان وحده مختاراً من قبل الشيطان، وأن هناك مختارين من قِبل الله نتيجة سر لا يمكن للتأملَ النقدى أن يسبرغوره.

أما فيما يخص الانشطار الثالث والذى يتعلق بالسيطرة على العالم، فهو ينضوى تحت المشروع الهتلرى للسيطرة على العالم والذى لم يتحقق بسبب تأخر هتلر فى امتلاك السلاح الذرى، والذى لم يكن ليتورع عن استخدامه ضد الاتحاد السوفييتى أو إنجلترا، مثلما لم يتورع ترومان عن تدمير السكان المدنيين فى هيروشيما ونجازاكى، ولا تشرشل عن استخدام قنابل الفوسفور فى قتل السكان المدنيين فى درسدن (١٣٥ ألف قتيل فى ليلة واحدة). وفى كلتا الحالتين لم يكن هناك أى ضرورة عسكرية، حيث كان إمبراطور اليابان قد بدأ فعلا الاستسلام، وكانت القوات الألمانية قد أخلت بالفعل درسدن وتجاوزتها الجيوش السوفييتية.

إن أهداف السيطرة على العالم، والتى كانت هى نفسها أهداف هتلر، قد تم تحقيقها بطريقة لم يتوقعها أحد، ولكن هتلر كان قد خلق شروطها الأساسية: اتحاد سوفييتى منهك بشدة بسبب حرب كان قد تحمل أشد أعبائها، وأوروپا مدمرة على أرضها وغير قادرة على الاحتفاظ بتحكمها الاستعمارى فى باقى العالم.

لقد تم تطبيق البرنامج الهتلرى للسيطرة على العالم نقطة فنقطة: بدءاً من انهيار الاتحاد السوفييتى ثم تبعية أوروپا ومحاولة غزو الأجناس الأدنى فى سائر أنحاء العالم.

وقد تم ذلك بواسطة خصوم هتلر المؤقتين فى الغرب، والذين كانوا قد حبذوا صعوده إلى السلطة حتى عشية الحرب لأنهم كانوا يرون فيه

«حاجزاً ضد الاتحاد السوفييتي» (إمداد بالحديد والصلب من فرنسا، قروض من إنجلترا، والإعداد في عام ١٩٣٩ لحرب إنجليزية فرنسية ضد الاتحاد السوفييتي من فنلندا إلى القوقاز، مع وايجاند Weygand(*)(٨). وفي أعقاب الحرب قاموا باستخدام أفضل خبرائه (فون براون Von Braun للصواريخ، فون جيلين Von Gehlen للمخابرات في الشرق) لكي ينجزوا بوسائل أخرى (هذه المرة وسائل الليبرالية الشمولية والتي تساندها القوات المسلحة وقت الحاجة) حلم هتلر في السيطرة على العالم.

هذه الليبرالية الشمولية التي تعد تمويهًا لتوسع الاستعمار الجديد الموحد بواسطة تبعية الإمبراطوريات القديمة في أوروبا (إنجلترا وفرنسا، إلخ) لم تتوقف عن تأكيد انشطار العالم، ليس فقط بزيادة بؤس الجنوب، ولكن أيضا بالعمل على تفاقم البطالة والتهميش في أوروبا.

إن نظام الملكية المطلقة للدولار قد تم إكماله بواسطة ديكتاتورية الذرة وأسلحة أخرى. وقد أنجز انشطار العالم بواسطة التصور الشيطاني لعدو محتمل: بالأمس كانت البولشفية (والتي كان هتلر هو الدرع الواقية ضدها)، ثم كان انقسام أوروبا إلى شرق وغرب والحرب الباردة ضد إمبراطورية الشر. لكن حدث انحراف الاتحاد السوفييتي الذي اتخذ اتجاهًا مخالفًا لماركس بتبنيه لنموذج النمو الغربي والذي تسبب في التعجيل بنهايته. ثم كان التعارض

(*) چنرال فرنسي كان رئيسًا لغرفة عمليات البحر المتوسط عام ١٩٣٩، ثم وزيرًا للدفاع في عهد نظام ڤيشي (١٩٤٠).

بين الشمال والجنوب ضد إمبراطورية شر جديدة تهدد هى أيضا، على المستوى العالمى، أمن المالكين والغزاة: وأصبح الإسلام مرادفا للإرهاب وذلك من خلال خلط لغوى (سيمانطيقى) بين المقاومة والإرهاب.

المرحلة الأولى هى تبعية أوروپا، فأوروپا عام ١٩٩٨ هى بلد محتل.

أوروپا خاضعة لاحتلال مالى

تتحكم الأسواق أكثر فأكثر فى الحكومات بفضل سياسة مستمرة من الخصخصة ومن التحلل المالى ووجود هيئات أجنبية كبرى ولا سيما أمريكية، تأخذ أنصبة متصاعدة من ثرواتنا.

ولن نستشهد إلا بأمثلة فرنسية.

صندوق ويلنجتون Wellington هو أول مساهم فى شركة رون - پولان Rhône Poulenc. والصندوق الأمريكى لازار وتمپلتون Lazard et Templeton تسلل إلى شركة رون - پولان وشركة پشينى Pechiney وصار هو المساهم الأكبر فيها مع شركة فيديلتى Fidelty. وفى شركة شنايدر Schneider يرى المدير المالى لمجموعة كلود پيسان C.Pessin أن «رأسمالنا» من الآن فصاعداً سوف يستحوذ على نسبة ٣٠٪ منه مستثمرون أجانب، كما يمثل الاستثمار الأجنبى ٣٣٪ من رأسمال بنك پارى با Paris Bas و٤٠٪ من شركة لافارج La farge للأسمنت و٣٣٪ فى شركة سان جوبان Saint Gobain و٢٥٪ من شركة الليونز Lyonnaise للمياه و٤٠٪ من شركة التأمين الفرنسية العامة A.G.F إلخ.

وفى ١٩ من نوفمبر عام ١٩٩٦ كتب إريك إسرائيلفتش-Iric Izrae levicz في صحيفة لوموند أن «ما يفقأ العين هو أفول الوطنية الصناعية فى فرنسا . . . يمكن للمؤسسات الأجنبية من الآن أن تشترى كل الدرر الصناعية دون أن تستثير أى رد فعل» .

باختصار، تتجه الصناعة الأوروبية إلى أن تصبح تحت قيادة الصناعة الأمريكية ؛ فأى دولة عضو فى المنظمة العالمية للتجارة OMC (عدا الولايات المتحدة التى تسمح لنفسها بكل شىء بما فى ذلك أن تمد قوانينها الخاصة إلى المجال الدولى بالإكراه، مثل قانون هيلمز- بورتون Helms- Burton، الذى يمنع الاستثمار فى كوبا، وقانون داماتو Damato الذى يمنعه فى إيران وليبيا) لا يمكنها مثلا :

ـ أن تحد من وارداتها الزراعية، ولا أن تدعم صادراتها .

ـ أن ترفض تأسيس شركات متعددة الجنسية، وهى التى يجب أن ينطبق عليها نفس شروط الصناعات الوطنية .

إن كل محاولة من بلد ما لانتهاك هذه الأوامر تجعله جانحًا يستحق عقوبات اقتصادية وتهديدات رهيبة بالسلاح . والبلاد الخاضعة لشروط صندوق النقد الدولى تعرف جيدًا ما كلفها هذا الانتهاك من تمردات وموتى (من الجزائر عام ١٩٨٨م إلى إندونيسيا عام ١٩٩٨) .

والتيار السائد لدى الاقتصاديين الرسميين ورجال السياسة هو الذى يدافع عن الليبرالية بلا حدود، داعيًا إلى تلاشى الدولة أمام قوة السوق الكبرى، كى لا تقوم أى عقبة فى وجه الاحتلال الاقتصادى . والأحزاب الاشتراكية والشيوعية على تنوعها تسير فى نفس الاتجاه، وإن تسترت بورقة توت من اللغو حول العدالة وتوزيع أفضل للدخول والأعباء .

وفى كلتا الحالتين لا يوجد مخرج سوى النمو فى أوروپا (ويقولون أوروپا أخرى) ودون أى محاولة للخروج من المنظور الغربى . . ونجدهم يهللون لكتاب ڤيڤيان فورستر Viviane Forrester «الرعب الاقتصادى» جاعلين منه أكثر الكتب مبيعًا دون تحديد أى منظور واقعى للخروج ، إذ يوجد رفض لتحديد المحتل أو تحديد لأفق عالم آخر فى طور التكوين ، أو لأى نماذج أخرى للتنمية .

أوروپا خاضعة للاحتلال السياسى

منذ التصديق على معاهدة ماستريخت(*) أصبح أكثر من ٧٠٪ من القرارات السياسية المصيرية لا تصدر عن البرلمان ، وإنما عن المجموعة الأوروپية المكونة من التكنوقراطيين فى بروكسل (عاصمة الاتحاد الأوروپى) ، وهم ليسوا مسئولين إلا أمام ١٢ رئيس وزارة يجتمعون عدة ساعات كل ستة شهور لكى يصدقوا على التوجهات التى تقرر مصير ٣٤٠ مليونا من الأشخاص .

أوروپا ماستريخت هى أوروپا أمريكية .

وفى النص نجد نفس الصيغة التى تقرر ذلك مكررة ثلاث مرات .

«هدف (المعاهدة) هو تنمية الاتحاد الأوروپى الغربى كوسيلة لدعم أوروپا لحلف الأطلنطى» . (ص : ٤) .

ولكى لا ينخدع أحد بخصوص هذه التبعية الأوروپية لأمريكا ، فإن التصريح الأول يقرر أن الدفاع المشترك المفترض ينبغى أن يكون

(*) ماستريخت مدينة صغيرة فى هولندا تحمل اسمها اتفاقية الاتحاد الأوروپى والتى أقرت حرية انتقال السلع والأفراد والعملة الأوروپية الموحدة .

متوافقًا مع حلف الأطلنطى (الفقرة ١) وينبغى أن يظل فى إطار الاتحاد الأوروپى الغربى وحلف الأطلنطى، وأن «الحلف سيبقى الصيغة الأساسية للتشاور». (ص: ٤).

لا يتعلق الأمر إذن بتدعيم ميزان قوى ولكن فقط بجعل أوروپا عنصراً فى السياسة الخارجية الأمريكية.

إن أوروپا ماستريخت تقع فى سياق سياسة السيطرة العالمية للولايات المتحدة. وفى ٨ من مارس عام ١٩٩٢ نشرت صحيفة نيويورك تايمز وثيقة صادرة عن الپنتاجون نقرأ فيها:

«إن وزارة الدفاع تؤكد أن الرسالة السياسية والعسكرية للولايات المتحدة فى فترة ما بعد الحرب الباردة، تقوم على التأكد من أنه لن يكون مسموحًا أن تقوم أى قوة كبرى منافسة لها فى أوروپا الغربية أو آسيا».

«إن رسالة الولايات المتحدة هى إقناع الخصوم المفترضين بأنه لا حاجة بهم للطموح إلى دور أكثر أهمية ولا إلى تبنى موقف أكثر هجومية، وإثناؤهم عن تحدى تفوقنا أو محاولة قلب النظام السياسى والاقتصادى القائم».

هذا التقرير يشدد على أهمية «الشعور بأن النظام الدولى تدعمه فى نهاية الأمر الولايات المتحدة». ويرسم عالمًا توجد فيه سلطة عسكرية مسيطرة يجب على رؤسائها «الاحتفاظ بالآليات التى تهدف إلى تثبيط المنافسين المفترضين عن الطموح إلى القيام بدور إقليمى أو عالمى أكثر أهمية».

«علينا أن نسعى لمنع ظهور أنظمة أمن أوروپية خالصة تهدد حياة حلف الأطلنطى».

[إنترناشيونال هيرالد تريبيون، ٩ من مارس عام ١٩٩٢]

وفى التقرير النهائى لمؤتمر ماستريخت، لا يترك الإعلان حول العلاقات مع حلف الأطلنطى أى شك حول هذا الموضوع: «الاتحاد الأوروپى سيتصرف وفقًا للقرارات التى يتخذها حلف الأطلنطى».

الاتفاقية تقر بأن المؤسسات الأوروپية تنفذ سياسة عامة «لكل مجالات السياسة الخارجية». وهذا يعنى «بالحرف»، كما يكتب پول مارى دولاجورس Paul Marie de la Gorce، مدير مجلة الدفاع الوطنى، «أنه لن يكون هناك على الإطلاق سياسة وطنية». وهذا الإجراء يظهر على رأس المادة J . ١ فى البند V وأيضا فى المادة J . ٤. من الواضح إذن أن الأمر يتعلق بأوروپا أمريكية.

ويحدث الأمر نفسه مع السياسة الاقتصادية والاجتماعية ومع السياسة نفسها. كما أطلق بوش فى عام ١٩٩١ مبادرة السوق الواحدة لكل أمريكا من آلاسكا إلى أرض النار. ودعا الرئيس السنغالى عبده ضيوف الإدارة الأمريكية لتوحيد اقتصادى سريع لإفريقيا، ودعا الرئيس ريجان منذ ٨ من مايو عام ١٩٨٥ إلى «توسيع الاتحاد الأوروپى ليمتد من لشبونة إلى داخل الأراضى السوڤييتية». وقد رحب چورچ بوش بالقرارات التاريخية التى اتخذت فى ماستريخت قائلاً: «إن أوروپا وهى أكثر اتحاداً تعطى للولايات المتحدة شريكًا أكثر فعالية، قادرا على تحمل مسئوليات أكبر». وكلينتون عام ١٩٩٨ يحيى بحماسة إنشاء العملة الأوروپية الموحدة. إن ماستريخت تعنى انحيازا كاملا ونهائيا، من حيث المبدأ، واقتصاد سوق بلا حد.

وقال ڤاليرى چيسكار ديستان على محطة التليفزيون الفرنسى الأولى فى ٤ من يونيه عام ١٩٩٣: إنه مع تطبيق ماستريخت لن يكون هناك أى تأميم ممكن بسبب المادة A١٠٢ المزودة بمراقبة وبجزاءات مادة C١٠٤.

بل إن أحد الاقتصاديين البعيدين عن العداء لاقتصاد السوق المفتوح للرأسمالية الليبرالية يقول: «المشكلة تكمن فى معرفة ما إذا كان هذا الاختيار مفروضا بواسطة معاهدة لا يمكن الرجعة فيها من حيث المبدأ، أو ما إذا كانت الشعوب ستجد ممنوعًا عليها ـ من جراء ذلك ـ أى اختيار آخر».

المادة ٣ . J تشدد بوضوح على هذا الحظر فى العودة فى القرارات التى اتخذت. ويحدد روبير پيلتييه Robbert Pelletier المدير العام السابق للخدمات الاقتصادية فى النقابة الوطنية الفرنسية لرجال الأعمال وعضو اللجنة الاقتصادية والاجتماعية فى المجموعة الأوروپية، التوقعات الآتية (صحيفة لوموند ٣ من يونيه عام ١٩٩٢): فى إسپانيا، من الآن إلى عام ١٩٩٧ ترتفع البطالة من ١٦٪ إلى ١٩٪، وفى إيطاليا، انفجار فى البطالة بشكل لم يسبق له مثيل فى التاريخ؛ حسابات تصيب الإنسان بالدوار فى اليونان والبرتغال. أما فيما يخص الفرنسيين فإننا «لا نستطيع أن نخفى عنهم لوقت طويل أن السياسة النابعة من ماستريخت تحت الصيغ الليبرالية فى العودة إلى اقتصاد السوق، هى بالفعل النموذج الرجعى بجدارة خلال الستين عامًا الماضية».

وهكذا فإن أوروپا المندمجة فى السوق العالمية التى تسيطر عليها الولايات المتحدة تقوم بإخضاع زراعتها وصناعتها وتجارتها وأفلامها وثقافتها كلها لقواعد التبادل الحر الذى يقول عنه بوضوح اقتصادى حذر مثل موريس آليه Maurice Allais: «أستبعد، على الأقل فى المستقبل المنظور، أى اتجاه للتبادل الحر، مثلما يحدث فى التوجه الحالى».

هناك أمثلة حديثة ومؤلمة تبرر هذه المخاوف :

أولاً فيما يتعلق بالزراعة الأوروبية، التى اغتيلت لتخدم مصالح أصحاب المزارع الأمريكان.

اتفاقيات ١٨ من مارس عام ١٩٩٢ والتى أوحت بها مباشرة الولايات المتحدة ومديرها العام الأمريكى آرثر دونكل Arthur Dunkel قد قوضت السياسة الزراعية المشتركة PAC لأوروپا والتى كانت تسمح بمساعدة المزارعين الأوروپيين فى مواجهة السوق العالمية، تحت التهديد بإجراءات انتقامية كتلك التى مارستها الولايات المتحدة لتفرض على أوروپا استيراد اللحوم المزودة بهرمونات ممنوعة لدى المجموعة الأوروپية فى بروكسل.

وسرعان ما أطاعت أوروپا الأوامر الأمريكية : **الاتفاقية الأوروپية الصادرة فى ٢١ من مايو عام ١٩٩٢ من أجل إصلاح السياسة الزراعية المشتركة تقتضى تخفيض إنتاج الحبوب عبر التبوير الإجبارى لـ ١٥٪ من الأراضى الخصبة وتخفيض إنتاج لحوم البقر خلال ثلاثة شهور ١٥٪ وتخفيض الزبد ٥ , ٢٪. وبالنسبة للحوم والألبان تم إلغاء المعونة التى كانت تدفع للبقرة المدرة للبن وذلك لتخفيض الإنتاجية، كما ينخفض سقف إنتاج الألبان ٢٪.**

هذه الضربات القاسية للزراعات الأوروپية (فى لحظة يعانى فيها خمس الإنسانية من الجوع) تترك المجال مفتوحًا للحبوب الأمريكية كى تلبى الطلب الموسر Solvable . مفتاح هذه السياسة الزراعية البشعة، هو العمل على إنزال الإنتاج والإنتاجية بتخفيض الأسعار المضمونة والمساحات المنزرعة ليبقى السوق (المسمى خجلاً

الطلب الموسر) محمية أمريكية. أما الجوعى غير الموسرين، فهم مشطوبون من على الخريطة، فى حين أن هناك ٨٠٠ ألف طن من لحوم البقر و٢٥ مليون طن من الحبوب و٧٠٠ ألف طن من الزبد ولبن البودرة، مخزونة على حساب المجموعة الأوروبية، من أجل التوافق مع النظام الأمريكى.

* * *

الصناعة الأوروبية ليست أقل تعرضًا للخطر. لقد فتحت ذريعة الاحتفاظ بقواعد المنافسة فى أوروبا، إذ قام الأمين الأوروبى للمنافسة ليون بريتان Léon Brittan بمنع شركتين، إحداهما فرنسية والأخرى إيطالية من شراء شركة الملاحة الجوية فى هاڤيلاند، وذلك لمنع مجموعة أوروبية من الوصول إلى مستوى من شأنه أن يزعج الشركات الأمريكية. ومارست الولايات المتحدة ضغطًا من أجل ألا تتجاوز العرابين المالية المقدمة لشركة الطائرات الأوروپية إيرباس Airbus ٢٥٪ من السعر بدلاً من ٣٥٪ التى لا يستطيع الأوروپيون أن يقبلوا أقل منها. والأمريكيون، دعاة التبادل الحر، يهددون على سبيل الانتقام برفع الجمارك أمام شركة إيرباس لإغلاق السوق الأمريكية فى وجه الأوروپيين.

وهكذا الحال فى جميع القطاعات من أول المياه المعدنية، حيث يعترض ليون بريتان على شراء شركة نستله Nestlé لشركة پيرييه Perrier لكى يمنع، كما يقول، تركز السوق فى أوروپا (فى حين أن الأمر فى الواقع يتعلق بعدم فتح سوق تنافسى فى مواجهة مع الشركات الأمريكية)، وحتى الإلكترونيات؛ فبعد الشركة الهولندية فيليپس والشركة الفرنسية ـ الإيطالية تومسون، تخلت الشركة الألمانية

سيمنس Siemens عن آمالها الكبرى، وتركت الإنتاج الضخم لشركة IBM الأمريكية . ويمكن أن نتخيل وقع الكارثة على العمل والبطالة بسبب هذه الوصاية التكنولوچية الأمريكية .

والمثال الأبرز هو تجارة السلاح . فبعد أقل من عام من وعود چورج بوش بمنع انتشار الأسلحة، بما فيها الأسلحة التقليدية، سمحت اتفاقية عقدت فى مايو عام ١٩٩١ بين الپنتاجون ووزير الدفاع ديك شينى، للحكومة الفيدرالية بمساعدة المصدرين الأمريكيين فى تصدير وبيع أسلحتهم . ونتج عن ذلك أن ضاعفت الولايات المتحدة عام ١٩٩١ صادراتها من الأسلحة تقريبًا، والتى كانت حرب الخليج بالنسبة لها هى دعاية غير مسبوقة .

فقد زادت المبيعات عام ١٩٩١ بمعدل ٦٤٪، ٢٣ مليار دولار فى مقابل ١٤ مليار دولار سنة ١٩٩٠ .

فى جميع المجالات، أوروپا هى التابعة .

فلنضف أن أوروپا المكونة من ١٢ دولة (المجموعة الأوروپية) هى عبارة عن ناد للمستعمرين القدامى يتقدمهم جميعًا : إسپانيا والبرتغال، ثم الإمبراطوريات الكبرى إنجلترا وفرنسا وبلچيكا وهولندا، ثم آخر الوافدين، ألمانيا وإيطاليا . برغم كل هذا، فلا يوجد فى اتفاقية ماستريخت سوى ٢١ سطرًا فقط فى ٦٦ صفحة لتحديد العلاقة بالعالم الثالث . (الفصل WII ، المادة V 130) . كلام حسن عن تنميته، وعن محاربة الفقر، لكن الأطروحة الأساسية هى إدماج البلاد النامية فى الاقتصاد العالمى، أى بالتحديد إدماجها فيما يقتلها .

القوى الاستعمارية الأوروپية القديمة قد وافقت اليوم، رغم

خصومتها الشديدة، على سيادة الريادة الأمريكية من أجل تكوين استعمار من نمط جديد، موحد وشمولى.

هكذا تبقى أوروبا استعمارية، ولكن ملحقة ـ كما كان الحال فى حرب الخليج ـ بالسادة الأمريكان.

أوروبا خاضعة لاستعمار ثقافى

لقد بينا كيف أن النظام الاقتصادى المؤسس على وحدانية السوق فى الولايات المتحدة، طليعة الانحطاط(*)، يولد العنف والجريمة، والتشرد والمخدرات، وكل أشكال غسيل المخ (بداية من موسيقى الروك حتى السماعات ذات الوحدات الصوتية الضخمة، مفرغة الشباب من كل وعى نقدى، دافعة بهم إلى البلادة والحيوانية)، ويدمر كل ثقافة. لن نتعرض بالتفصيل لهذا التحليل وسنكتفى فقط بالجانب السائد والأكثر تدميراً فى الاستعمار الثقافى: السينما والتليفزيون.

وفى إطار اندفاعة منظمة التجارة العالمية والجات، ترى واشنطن وهوليود أن الثقافة هى أحد أقسام التجارة، وتريد فرض ذلك على أساس مبادئ معلنة فى وثيقة بعنوان: «الإستراتيجية الشاملة للولايات المتحدة فى مجال المنتجات المسموعة والمرئية»:

* تجنب تدعيم الإجراءات التقليصية (وخصوصاً فرض نسبة دنيا لبث الأعمال الأوروبية والوطنية) والسهر على ألا تمتد هذه الإجراءات إلى خدمات الاتصال.

(*) راجع كتاب: «أمريكا طليعة الانحطاط» نشر دار الشروق.

* تحسين شروط الاستثمار للشركات الأمريكية بتحرير القواعد الموجودة.

* ربط الوسائل المسموعة والمرئية بتنمية مستويات خدمة الاتصال والاتصالات اللاسلكية فى اتجاه إلغاء القواعد.

* التأكد من أن القضية المثارة حاليا والمرتبطة بالمسائل الثقافية لا تمثل سابقة يقاس عليها فى المناقشات التى ستبدأ فى أى مجال دولى آخر.

* زيادة الاستثمارات فى أوروپا.

* البحث ـ فى كتمان ـ عن الانتماء للمواقف الأمريكية من جانب المنفذين الأوروپيين.

ويكفى أن نقرأ برنامج التليفزيون الأسبوعى لندرك حجم الغزو. وندرك مساوئه بملاحظة تنامى العنف فى الأفلام الأمريكية. ومن وجهة نظر شكلية، تدهور مستوى النص لصالح المؤثرات الخاصة، لدرجة أن صغارنا تتسمم عقولهم على الرغم منهم بهذه المشاهد، فيما يسمى أفلام الحركة، تلك الأفلام التى تمتلئ بالشجار وطلقات المسدسات وتحطيم السيارات والانفجارات.

إن نصيب السينما الفرنسية فى السوق الأمريكى توقف عند نصف فى المائة، فى حين كان نصيب الأفلام الأمريكية فى مجموعة أوروپا الخمس عشرة، من ٥٦٪ إلى ٦٧٪ ويصل أحيانا إلى ٩٠٪.

وتمثل الأفلام الأمريكية فى القنوات التليفزيونية الأوروپية الخمسين(حتى لو استبعدنا شبكة الكابل والمحطات المشفرة واكتفينا بالقنوات العادية) ٥٣٪ من البرامج فى عام ١٩٩٣.

وفى الموازنة التجارية للإذاعة المسموعة والمرئية الأوروبية، زادت الخسائر من مواجهة الولايات المتحدة من مليار دولار عام ١٩٨٥ إلى ٤ مليارات دولار عام ١٩٩٥ . وهو ما أدى إلى فقدان ٢٥٠ ألف شخص لوظيفته خلال عشر سنوات .

وللاستعمار الثقافى نفس الحجم فى مجال الاستثمارات : فالشركات الأمريكية العملاقة، مثل تايم وارنر - تيرنر Time Warner - Turner ، وديزنى، وABC، ووستنجهاوس، وCBC، تسيطر فى أوروبا على الاستديوهات، وتزيد من شبكة صالات العرض، وهم سادة شبكة الكابل ويعقدون الاتفاقيات مع المؤسسات المحلية محتفظين بنصيب الأسد .

وقد دخلوا كمنافسين لبلاد أوروبا الشرقية، فتملكوا أغلبية محطات التليفزيون الخاصة . لقد تم ابتلاع الـ ١٤٠ احتكارا وطنيا للإذاعة المسموعة والمرئية فى أوروبا من قبل الاحتكارات الكبرى التى تبلغ ٥ أو ٦ مجموعات تحت إدارة أمريكية، وفى هذا المجال أيضا تتسع هذه الخسائر : من ١ , ٢ مليار دولار عام ١٩٨٨ إلى ٦ , ٣ مليار عام ١٩٩٥ .

وتعطى الاحتكارات الأمريكية لنفسها فى المنظمات الدولية دور القائد فى المفاوضات من أجل تدعيم تغلغلهم عن طريق الحصول على تسهيلات لاستثماراتهم، إلى الحد الذى جعلهم يطمعون فى الاستفادة من المساعدة الأوروبية وصندوق الدعم الفرنسى .

لم يتوقف استسلام المديرين الفرنسيين، منذ اتفاقيات بلوم - بيرنز Blum-Burnes التى عقدت فى صبيحة الحرب وأخضعت السينما الفرنسية للسينما الأمريكية، حتى الاعتراضات الخجولة

للمديرين الحاليين من أجل الحصول على الاستثناء الثقافى(*) فى الغابة الاقتصادية للسوق الحرة. وأخيراً فى ديسمبر عام ١٩٩٦، فى سنغافورة قبل ممثلو الحكومة الفرنسية إلغاء القواعد على الألياف الضوئية والتكنولوچيا الجديدة للإذاعات المسموعة والمرئية.

لقد تآكلت ثقافات أوروپا والعالم كله عندما انحاز مديروها إلى الأنجلو ـ ساكسون، بواسطة الثقافة الأمريكية المضادة القائمة على وحدانية السوق.

* * *

عندما يعلن الرئيس بوش أنه «ينبغى خلق منطقة سوق حرة من آلاسكا إلى أرض النار». وعندما يضيف وزير خارجيته چيمس بيكر: «ينبغى خلق منطقة سوق حرة من ڤانكوڤر إلى ڤالديستوك» يصبح سجال القرن هو الآتى:

اتركونا نصلب الإنسانية على هذا الصليب من الذهب!

فى بريتون وودز تأكدت الهيمنة العالمية للدولار، الذى أصبح كالذهب، هو الغطاء العالمى للعملة.

والمؤسسات التى ولدت فى بريتون وودز كانت هى أدوات السيطرة الاقتصادية الكونية: صندوق النقد الدولى والبنك الدولى، إذ بهما أصبح يمكنهم بحرية، بواسطة قروض ممنوحة تحت شروط سياسية (مثل مشروع مارشال فى أوروپا) أن ينهبوا كما يروق لهم

(*) الاستثناء الثقافى شعار رفعه الفنانون والكتاب الفرنسيون فى أثناء مفاوضات الجات للمطالبة بعدم التعامل مع النشر والإنتاج السينمائى والتليفزيونى كباقى منتجات السوق الزراعية والصناعية.

خيرات مستعمرات أوروبا القديمة التى وقعت فى تمزق بسبب زوال الإمبراطوريات الاستعمارية الكبرى فى إفريقيا وآسيا، كما كان الحال قديمًا فى أمريكا الجنوبية من أجل إزاحة إنجلترا وإسپانيا.

وفى مرحلة ثانية، مرحلة الجات (الاتفاقية العامة للتجارة والضرائب) لعب التبادل الحر المفروض على مستوى الكون نفس الدور الذى لعبه لمصلحة إنجلترا ومصلحة إمبراطوريتها خلال قرن ونصف القرن من الزمان.

(الجات تغير اسمها مؤخرًا إلى «المنظمة العالمية للتجارة» ولكن دون تغيير الوظيفة).

هكذا أصبح من السهل جعل أوروپا الغربية تابعة لأمريكا، ليس فقط بالاندماج العسكرى، وبجعل قواتها قوات احتياطية لحلف الأطلنطى، ولكن كذلك بمدّ هذا التفوق الأمريكى إلى جميع المجالات الأخرى (من الاقتصاد إلى الثقافة).

وقد تمت عملية تكريس هذا النظام فى أمستردام، حيث أصبحت ثلاثة أرباع القوانين التى تحكم كل شعب تفرضها هيئة بروكسل الأوروپية.

بقيت بعض المراحل اللازم تجاوزها لتدمير كل ما يمكن أن يبقى من استقلال الأمم، بداية من القانون الملكى، فى سك العملة، والذى يمثل منذ قرون عديدة أحد المعايير الأساسية للسيادة، حتى جاء مشروع العملة الموحدة «الأورو»، التى سوف تختتم القرن العشرين وتفتتح القرن الحادى والعشرين.

وبقى إنجاز المشروع الكبير للعولمة، أى التحطيم النهائى

لاقتصاديات وثقافات كل الشعوب لصالح عولمة الإمبراطورية الأمريكية ووحدانية سوقها.

وكان مشروع الاتفاق حول الاستثمار متعدد الأطراف، وقد ضمن تسميته بالفعل، (لأسباب وجيهة): «آلة جهنمية لتفكيك العالم».

فبالفعل بعد القوانين الاستبدادية التى تفرضها الولايات المتحدة على النظام النقدى العالمى (بواسطة صندوق النقد الدولى) وعلى التجارة الدولية (بواسطة منظمة التجارة العالمية)، فإن القيد النهائى يتضمن اتفاقًا متعدد الأطراف حول حرية الاستثمارات.

هذا الميثاق الأخير لليبرالية الهمجية، هدفه أن يقيم فى العالم كله ملكية السوق المطلقة، هادمًا كل العوائق فى وجه الاستثمار: كل شركة متعددة الجنسية لها أن تستفيد بنفس المزايا كالشركات الوطنية: حرية الاستثمار، وحرية تسريح العاملين، وتغيير أماكن مراكز الإنتاج والبحث، وانتهاك قوانين العمل والبيئة، والدول التى تقبل (بدون شروط) عليها أن تحيل الخلافات إلى هيئة تحكيم خاصة بغرفة «تجارية دولية»:

وكل حكم يصدر عن هذه الهيئة العابرة للقوميات ملزم ونهائى. ويستبعد بالتالى كل حق فى الاستئناف. بل ويأخذ فى الحسبان، أن يتمكن المستثمر من أن يقاضى الدولة المستقبلة له. . . إن الخسارة لو كانت وشيكة، لا يجب بالضرورة أن تحدث قبل أن يخضع الخلاف للتحكيم.

هذا النير الجديد والنهائى الذى يجعل من السوق السيد المطلق فى الكون، هو تعميم لاتفاقيات اتحاد الشمال الأمريكى ALENA التى

تمت بين الولايات المتحدة وكندا والمكسيك . يمكن إذن أن نعرف العواقب التى تترتب على تطبيقها بالحجم الطبيعى .

فكندا التى ترفض لشركة إيثيل Ethyl وشركاه أن تدخل إلى سوقها وقودا به مواد مضافة سامة، طلب منها ٢٥١ مليون دولار تعويضا عن خسائر مقدرة فى الأرباح!

وفى المكسيك، حيث رفضت الحكومة إقامة مكان لتفريغ المنتجات السامة فى موقع مخصص، طالبتها الشركة الأمريكية المعنية بـ ٤٠٠ مليون دولار. إن ضرائب المواطنين تعوض خسائر الشركات المتعددة الجنسية!

ويقر هذا المشروع بوقاحة : «إن الاتفاقية متعددة الأطراف للاستثمار، مثل كل اتفاقية دولية ذات سمة ملزمة وسوف تؤدى إلى حد ما إلى تخفيف ممارسة السلطة الوطنية» .

هذا المشروع الذى يدير كل بلاد العالم ، قد تم الاتفاق عليه بصورة سرية منذ ٣ سنوات من قبل أعضاء منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية OCDE التى تجمع أغنى بلاد العالم وتستبعد كل من اصطلح على تسميتهم بالعالم الثالث . المشروع يتضمن عواقب وخيمة فيما يتعلق بالعمل والبطالة والصحة والخدمات العامة والضمان الاجتماعى والبيئة وبوجه عام الاستقلال الوطنى . وهو يلح ، فى الجانب الاجتماعى ، على مزايا عدم المساواة . فالمنظمة ترى أن تزايد هوة عدم المساواة أمر يتطلبه المنطق الاقتصادى، دون أى تساؤل حول مصداقية هذا المنطق. وهى حين تتعرض «لمؤشر الفقر» تتهم التدخلات باسم المصلحة العامة بأنها تحصر الأفراد فى إطار منطق من التبعية وعدم الاستقلال!

من الملاحظ أن هذا البرنامج يتضمن الخصخصة الشاملة للمؤسسات، وأيضا استبعاد أى تدخل من الدولة.

القادة الفرنسيون (من اليمين إلى اليسار) لم يقدموا أى اعتراض إلا فيما يخص «الاستثناء الثقافى»: فصحيح أن هذا مجال ذو حساسية خاصة، لأن مثل هذه الاتفاقيات ستؤدى إلى خراب السينما الفرنسية وتزيد من سيطرة سينما ليوود الدموية، تلك التى تملأ أصلاً شاشاتنا وتليفزيوننا وتكفل سيطرة الأباطرة الأمريكان على المعلومات بواسطة الاستثمار الجامح فى الصحافة والنشر. بهذه الطريقة سيخضع إذن العقل والجسد لتلاعبات المنطق التجارى.

ولكنها حياتنا بأكملها، ومعنى هذه الحياة، هما اللذان ينبغى لهما أن يتحررا من أذرع الأخطبوط، أى من كل الشركات المتعددة الجنسية الكبرى التى تنتمى للبلاد الغنية الـ ٢٩، أعضاء منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية والتى تتحكم فى ثلثى الاستثمارات العالمية، أى فى ٣٤٠ مليار دولار عام ١٩٩٦.

كيف يمكن أن يتم هذا التحرر من الاحتلال الجديد لبلدنا بدءاً من اقتصادها حتى ثقافتها؟

لا الأحزاب (يمين أو يسار) ولا الكنائس تجيب عن هذه الأسئلة الكبرى لهمومنا. لا هؤلاء ولا أولئك يقدمون حلولاً على مستوى العالم.

فالبعض لا يفكرون إلا فى تداول السلطة، وهم غير قادرين على حل المشكلات، يتتابعون على السلطة بحسب الإيقاع المتخلف للتعارض الزائف بين اليسار واليمين، كل حزب يعاقب بواسطة

المنتخبين على فشله فى تطبيق نفس السياسة المحتجبة خلف أقنعة لغوية مختلفة.

أيا كان الحزب أو الائتلاف الموجود فى السلطة، فإن البطالة والتهميش يزيدان بلا توقف، فمن ٤٠٠ ألف عاطل فى فرنسا عام ١٩٧٨ إلى ٣ ملايين عام ١٩٩٨ رغم أنه قد تم تتابع حكومات من اليمين واليسار.

والكنائس الموجودة لا تفعل أفضل مما تفعل، حيث تقوم بتحويل بنيتها إلى نظام ملكى مطلق، وبتجميد عقائدها التى تطمح فى السيطرة الشاملة على عالم لا تحمل إليه شيئًا.

هناك نزعة كاثوليكية، تدمر كل أمل ولد من مجلس الفاتيكان الثانى(*)، تمنح نفسها هياكل أكثر فأكثر تسلطا وشمولية، وتمارس بصورة منظمة اللغة المزدوجة والفعل المزدوج، وتضع خلف قناع من تواضع مستعار من الإنجيل، سياسة تحالف مع الولايات المتحدة (لكى تناضل فيما سبق ضد الشيوعية فى الشرق وضد رجال لاهوت التحرير فى أمريكا الجنوبية)، متحاشية أن تجيب (بصورة لا تقف فقط عند مجرد الكلام) عن هموم الشعوب فيما يتعلق بالبطالة والحرب والاستعباد. وتركز بصورة يشوبها الهوس على الموضوعات الجنسية،

(*) مجلس الفاتيكان الثانى دعا إليه البابا يوحنا ٢٣ وعقد عام ١٩٦١. وحاول هذا المجلس أن يتجاوز الجمود العقائدى الذى صبغ المجلس الأول للفاتيكان عام ١٨٧٠ والذى أقر مبدأ عصمة البابا. تميز المجلس الثانى بروح أكثر انفتاحًا، إذ قبل انضمام ممثلين للكنيسة الإفريقية، ودعا إلى الحوار مع الأديان الأخرى والاعتراف بقيمتها، وأقر مبدأ حرية الممارسة الدينية.

وتضع مشهد عرض الرجل الواحد (البابا) محل الإرشاد الروحي التحريري.

الإسلام الذى كانت رسالته فى زمن نبيه وعصور عظمته، أن يقوم بتمثيل ما هو كونى فى الثقافات وفى الإيمان، والذى يمكنه اليوم أن يقدم هذا النموذج، ينغلق فى خصوصيته الشرق أوسطية. وكرجال الدين الرومان لا يفتح بابا لطموح الجميع، وإنما ينغلق على عادات وطقوس الماضى، بدلا من أن ينفتح على المشكلات الكبرى لشعوبنا وعصرنا. هكذا أصبح الإسلام موضوعًا للتاريخ فى حين أنه كان طوال قرون فاعل التاريخ الخلاق، حيث كان مخصبا بالاتحاد مع كل التجليات الروحية منذ حكمة الهنود وحتى صوفية مسلمى الأندلس الأكثر اقترابًا من التجلى الإنسانى ليسوع المسيح.

كل شىء إذن مطروح لأن يصاغ من جديد، الاقتصاد والسياسة، التعليم والإيمان، هى اليوم أكثر ارتباطًا من ذى قبل بترقية الإنسان، وتحتاج لأن تجد وحدتها الأساسية فى تحقيق هذا الهدف.

ما هو مستقبل أوروپا أمام هذا الانحطاط للإمبراطورية الأخيرة (كما يسميها پول مارى دولاجورس)؟

لقد عزلت أوروپا نفسها طويلاً، كما فعلت قديمًا الإمبراطورية الرومانية، رافضة انتماءها إلى الجزيرة الكبرى أوراسيا والتى لا تمثل هى سوى شبه جزيرة منها، عزلت نفسها فى سيادة متمركزة حول البحر المتوسط. وابتداء من هنا أقامت إمبراطوريتها الاستعمارية على العالم، من الأمريكتين بذهبهما، إلى إفريقيا بعبيدها، وآسيا حيث فرضت سيطرتها على الهند بواسطة الإنجليز، وعلى الصين بتحالف

أوروبى من أجل حرب الأفيون، واغتصاب دول تابعة للشرق الأدنى، والشرق الأوسط ببتروله بواسطة اتفاق ثنائى إنجليزى - فرنسى حول العالم الإسلامى. وحدث اقتسام لإفريقيا، فصارت إفريقيا الشرقية للبعض وإفريقيا الغربية للبعض الآخر. هذا علاوة على العمليات الملحقة لهولندا فى إندونيسيا، وبلچيكا فى الكونغو، وإسپانيا والبرتغال فى إنجولا وموزمبيق حتى الرأس الأخضر، وإيطاليا فى ليبيا والحبشة.

كوارث الحربين العالميتين اللتين حدثتا بين الأوروپيين سمحت للولايات المتحدة، ليس فقط بأن تحل محل القوى الاستعمارية الأوروپية فى أمريكا الجنوبية والفيلپين والمحيط الهادى، ولكن أيضا بأن يصبح الأمريكيون سادة الشرق الأوسط وبتروله، وأن يتغلغوا بقوة فى إفريقيا، بل وتمكنوا حتى من أن يجعلوا من الاستعماريين القدامى مستعمَرين لهم فى أوروپا نفسها.

الإمكانية الوحيدة لتحرر أوروپا التابعة وبالتالى إعادة تأسيسها، (ليس علاقة مستعمرين بمستعمَرين، ولكن علاقة شركاء متكافئين ومتكاملين على أسسَ جديدة جذريّا) هى إعادة علاقاتها مع آسيا أولاً (خصوصا الصين وإيران) ثم مع إفريقيا وأمريكا الجنوبية والوسطى. هكذا فقط، تستطيع أوروپا التى كانت أولاً سيدة على البحر المتوسط، ثم بعد ذلك مستعمرة لثلاث قارات، ثم أوروپا أطلنطية تابعة، أن تعيد بعثها من جديد فَيما هو كونى.

* * *

لقد كسب هتلر الحرب أولاً فى فرنسا بسهولة، بسبب زحف

رجال السياسة تجاه العبودية . والتمزق الحالى للجمهورية الخامسة يشبه بشكل غريب تفكك الجمهورية الثالثة .

التشابه بينهما مثير للدهشة ، فيما بين الفترة التى تمت فيها تنازلات ميونيخ وحتى استسلام ريتوند(*) ، والطريق الذى يقود من التنازلات فى ماستريخت وحتى استسلام أمستردام وعملة الأورو ، التى تؤكد التخلى عن كل استقلال للاقتصاد والسياسة الفرنسيين أمام أوامر البنوك والشركات المتعددة الجنسية التى نزعت من فرنسا العلامة البديهية على سيادتها : وهى حق سك العملة كى تبقى سيدة لتشريعاتها الاجتماعية ، وسياستها الخارجية فى التصدير .

التشابه مثير للدهشة: بين التنكر للچنرال ديجول وبين المقاومة الفرنسية ، وهو ما نلاحظه فى عبارة واحدة قالها رئيس الدولة تحت الضغط الأمريكى ـ الصهيونى (وتحت رئاسة الحاخام الأكبر سيتروك Sitruk) والذى أكد لشامير فى ١٢ من يولية عام ١٩٩٠ أن «كل يهودى فرنسى هو ممثل لإسرائيل» ؛ لقد صرح الرئيس الحالى للدولة الفرنسية (چاك شيراك) الذى ينسب نفسه للديجولية بأن «**الجنون الإجرامى للمحتل النازى قد أكمله الفرنسيون والدولة الفرنسية**» .

وهو النقيض تمامًا لما كان ديجول يقوله عن شعبنا : «حتى فى أحلك اللحظات ، لم يتخل شعبنا عن نفسه (مذكرات ديجول ، الجزء

(*) ريتوند Rethondes قرية تقع فى فرنسا فى غرب باريس ، تم فيها توقيع معاهدة استسلام ألمانيا عام ١٩١٨ فى عربة قطار . وفى عام ١٩٤٠ بعد احتلال النازى لفرنسا ، أصر هتلر على توقيع معاهدة استسلام فرنسا فى نفس القرية وفى عربة قطار .

الثالث، ص ١٩٤) وما كان يقوله عن نظام ڤيشى: «إنه قيح بشع على سطح جسم سليم». الجزء الثالث، ١٤٢): «لقد أعلنت عدم شرعية نظام كان يعمل لحساب العدو» (الجزء الأول ٦٧). «هتلر صنع ڤيشى (الجزء الأول-٣٨٩).

واللوبى الذى نظم المظاهرة، حيا بحماسة هذا التنكر، والذى بواسطته تم الإقرار باستمرارية الدولة الفرنسية فيما بين عامى ١٩٤٠ و ١٩٤٤.

وحدث نفس الانقلاب فيما اصطلح على تسميته باليسار والذى يدير قادته الاشتراكيون ظهرهم لچان جوريس Jean Jaurès[*] والاشتراكية (كما يدير آخرون ظهرهم لديجول والمقاومة الفرنسية) بانضمامهم لأوروپا رجال البنوك، بلا أدنى اهتمام (إلا بالكلمات) بالبطالة وعدم المساواة الناتجين عن هذا الانضمام، وفقدان كل استقلال فى مجال السياسة الاجتماعية بل والسياسة نفسها.

التشابه بين هذين الضربين من الانحطاط للجمهورية لا يتوقف عند هذا الحد: إذ كانت الصحف الفاشية مثل صحيفة جرانجوار Gringoire لم تكن تتوقف عن أن تحقّر فرنسا وثقافتها وشعبها وأخلاقها، لدرجة أن ترى فى هتلر عنصرا لتجديد فرنسا وتكتب: «هتلر أفضل من الجبهة الشعبية». وآخرون عدُّوا الهزيمة مفاجأة إلهية، واليوم يرى برنارد هنرى ليڤى Bernard Henri levy أن نظام

(*) چان چوريس زعيم الحزب الاشتراكى الفرنسى، حاول منع قيام الحرب العالمية الأولى، ودعا العمال والشباب إلى عدم الاشتراك فى هذه الحرب التى تجرى لتحقيق مصالح البرجوازيات الاستعمارية. اغتيل عام ١٩١٤ قبيل الحرب وعرف باسم شهيد السلام.

ڤيشي هو نتيجة ضرورية للتاريخ والثقافة في فرنسا في مجملهما. فهو يرى أنه من ڤولتير إلى الثورة الفرنسية، ومن كل التراث المسيحي وحتى شارل پيجي Charles Peguy ـ دون أن ينسى برنارد لازار Bernard Lazard (المحلل والمؤرخ اليهودي للعداء للسامية) ومنتقدا إياه في طريقه ـ إن كل ماضينا، يجعل من فرنسا «وطن الاشتراكية الوطنية». (الأيديولوچية الفرنسية ص ١٢٥) وهو يؤكد أن «الثقافة الفرنسية . . . تشهد على قدَم البشاعة (ص ٦١)، فرنسا هذه أعرف وجهها القذر، وكل سيرك الغيلان الذين يسكنونها» (ص ٢٥٣). وكأن فرنسا هي قبل كل شيء وطن پيير لاڤال P. Lavalle(*) وفيليب هنريو Ph. Henriot(**) والكتائب النازية.

نرى اليوم تفكك الطغمة السياسية، بدلاً من شعار «لا يمين ولا يسار وإنما فرنسا» والذي كان نداء الچنرال ديجول للمقاومة وللنهضة، وهذا التفكك نراه اليوم كالأمس في مجلس بوردو Bordeaux حيث يختلط كل من يهرعون إلى العبودية. وقديما كان من دواعي فخر الحزب الشيوعي أن يقول إنه ليس حزبًا مثل باقي الأحزاب؛ واليوم مع بهلوانيات السياسة التقليدية ينضم مع الحزب

(*) پيير لاڤال، رئيس وزراء حكومة ڤيشي، كان ميالاً أكثر من بيتان للتعاون مع المستعمر النازي، وشجع على تشكيل كتائب مسلحة تساعد الجستابو في القبض على رجال المقاومة الفرنسة. وحكم عليه بالإعدام رميًا بالرصاص بعد تحرير فرنسا على يد ديجول.

(**) فيليب هنريو، وزير الإعلام في حكومة لاڤال، ومن أشد المتحمسين للتعاون مع النازي. وأعدم بعد تحرير فرنسا.

الاشتراكى، ومع أوروبا، أى يتجه لخيانة طموحات كل من يعمل فى فرنسا بجدية ولا يضارب فى البورصة.

نفس الظاهرة تحدث فى صفوف اليمين، حيث ـ بسبب من التناقضات والطموحات التى تؤدى إلى الانشقاق ـ نشأت حركة تريد أن تكون وطنية تتجاوز الفوارق بين الأحزاب، وهى فى الواقع تعمل من أجل تحقيق انتصار دموى على جثث العديد من الضحايا فى المعركة الانتخابية ـ تحت تأثير رجل سياسة، كان من قبل عضواً فى حزب التجمع من أجل الجمهورية (R.P.R) ـ وبعد توجهه أكثر نحو اليمين، يصبح فى تجمعات تثير الغثيان سيد اللعبة ـ سيد المجزرة(*).

إن رد الفعل المتمثل فى رفض النظام من قبل الشعب الفرنسى لهو أمرٌ بالغ الدلالة، فقد بدأ الشعب يدرك تدليس الديمقراطية بوصفها تمثيلية واغترابا. وتقوى جبهة رفض الفرق السياسية يوما بعد يوم فى الانتخابات المحلية عام ١٩٩٨، إذا أضفنا إلى الرقم القياسى فى الامتناع عن التصويت ٤٢,٥٪، نجد أن الـ ١٥٪ من الذين صوتوا لصالح الجبهة الوطنية معتقدين أنها توجد خارج الأحزاب، والـ ٥٪ من اليسار المتطرف الذى يدين انضمام الحزب الشيوعى لكاريكاتير الاشتراكية، وإذا كان طباخو المطبخ الانتخابى يستمرون بعدد متساو إلى حد ما فى اقتسام الأقاليم والدخول، لذا نلاحظ أن ثلثى المنتخبين يرفضونهم، وأن كل إقليم سوف يدار بواسطة الثلث الباقى، أى بواسطة منتخبين من ١٥ إلى ٢٠٪ من إجمالى المنتخبين. ديمقراطية غريبة تقترب أكثر فأكثر من نموذج هذا الغرب: الولايات المتحدة

(*) يقصد جارودى هنا، چان مارى لوبن، زعيم حزب الجبهة الوطنية العنصرى المتطرف المعادى للعرب واليهود فى فرنسا.

وإسرائيل وإنجلترا حيث يزدهر اليوم تحت لافتة الاشتراكية استنساخ من مدام تاتشر .

هكذا يتم مرة ثانية ، خضوع شعبنا أمام السيطرة الأجنبية . ليست هذه سيطرة هتلر ، ولكنها سيطرة اللوبى الأمريكى ـ الصهيونى القوى ؛ الذى يمسك بمفاتيح الولايات المتحدة من كوهين فى وزارة الدفاع ومدام أولبرايت فى الشئون الخارجية(*) وصمويل بيرجر على رأس مجلس الأمن القومى والقادة الثلاثة الرئيسيون للمخابرات الأمريكية ، كى لا نذكر إلا أولئك الذين يمسكون بمقاليد الأمور فى الدولة .

هناك فاشية حاخامية تجهيلية تحت الحماية غير المشروطة للولايات المتحدة ، تحيل إلى «صدام الحضارات» لهانتنجتون Huntington والپنتاجون ، هى رأس الحربة «لكتيبتها المتقدمة للحضارة الغربية داخل همجية الشرق» . إنه برنامج تيودور هرتزل المطبق ، بعد قرن من الزمان ، بواسطة النازيين الجدد فى بروكلين (الولايات المتحدة) والجليل (فلسطين) .

الرأس المفكر لهذه السياسة ذات الرأسين ، ولكن يسكنها نفس الهدف : صدام الحضارات لهانتنجتون أو «الكتيبة المتقدمة للحضارة اليهودية ـ المسيحية ضد الهمجية الشرقية» يبقى صامدا : إن فاعل هذه الجرائم الكثيرة ضد الإنسانية فى لبنان وهو آرييل شارون ، ما زال وزيراً مهما للسياسة الاستعمارية لنتنياهو .

(*) وقد استدرك المؤلف هذه العبارة فى لقاء لاحق معه ، إذ لم تكن مثبتة فى النص الأصلى .

نعم، هتلر كسب الحرب، وتحققت أهدافه: تدمير الاتحاد السوفييتى وتبعية أوروبا، والسيطرة على العالم بواسطة شعب مختار، آرى بالأمس وأمريكى ـ إسرائيلى اليوم. إنه احتلال جديد، إنه صراع جديد بين رجال المقاومة والمتعاونين مع المحتل، يحل محل التمييز الاصطناعى والغابر بين اليمين واليسار، والذى يقبل قادته فى مجملهم العبودية وأوامر المحتل الأطلنطى الجديد وقادته المتحكمين فى ماستريخت والأورو.

الجـزء الثانى

كيف نبنى الوحدة الإنسانية لنمنع انتحار الكوكب؟

١ ـ بواسطة تحول فى الاقتصاد.

٢ ـ بواسطة تحول فى السياسة.

٣ ـ بواسطة تحول فى التعليم.

٤ ـ بواسطة تحول للإيمان.

الفصل الأول

بواسطة تحول فى الاقتصاد

أ- بريتون وودز Bretton-Woods مضادة(*):

السياسة الوحيدة التى لها اليوم مستقبل هى تلك التى تحل المشكلات الأساسية المطروحة علينا:

البطالة.

الهجرة.

الجوع فى العالم.

مع كل الآثار الثقافية والأخلاقية التى تنتج عنها.

هذه المشكلات الثلاث هى فى الحقيقة مشكلة واحدة.

وهم لا يقدمون لنا سوى حلول زائفة.

والحلان الأكثر وهمًا هما:

- هذه المشكلات يحلها النمو الاقتصادى.

- هذه المشكلات تحلها أوروبا.

هذه هى الأكاذيب الأشد فتكًا.

(*) راجع هامش صفحة ٧٤.

فلا يمكن لأى من مشكلاتنا الحيوية أن تجد حلاً لها فى النمو الاقتصادى. الدول والأحزاب السياسية فى البلاد الغربية لا تتعامل أبدًا مع المشكلة، بل على العكس.

هذا النمو الاقتصادى يقدمه رجال السياسة وأجهزة الإعلام كترياق للخروج من الأزمة والبطالة، فى حين أنه منذ عام ١٩٧٥ لم يؤد النمو الاقتصادى، الذى تم بسبب زيادة الإنتاجية بفضل تطور العلوم والتقنيات، إلى خلق فرص عمل، ولكن على العكس قضى عليها بإحلال عمل الآلة محل عمل الإنسان.

ففى عام ١٩٨٠، كانت بلچيكا تنتج ١٠ ملايين طن من الصلب بتشغيل ٤٠ ألف عامل، وفى عام ١٩٩٢ أنتجت ١٢ مليون طن ونصف الطن بتشغيل ٢٢ ألف عامل.

النمو الاقتصادى ينطلق بواسطة أرباح الإنتاجية التى تمت بفضل العلم والتقنيات التى تسمح باستبدال الآلات بجزء أكبر من عمل الإنسان. والأمر اليوم أفدح بسبب تطور المعلوماتية والإنسان الآلى والحاسبات الإلكترونية.

ولكن من العبث تجريم العلوم والتقنيات، فالشقاء يأتى من الاستخدام الذى نقوم به.

فعلى سبيل المثال، زادت الإنتاجية منذ عام ١٩٧٠ بفضل هذه الاكتشافات، زيادة قدرها ٨٩٪، وهى فرصة للإنسانية تجنبها المهام التكرارية، ولكنها وبال عليها عندما لا تقل فى نفس الفترة عدد ساعات العمل وتتضاعف البطالة. وهذا يعنى أن نمو الإنتاجية لم يخدم عموم الإنسانية، بل يخدم مالكى وسائل الإنتاج وحدهم.

في حين أنه سيكون خيرا للجميع ، إذا كانت مدة العمل أسبوعيا لا تنفصل عن الإنتاجية .

سيكون خيرا إذا لم تكن هذه الزيادة فى الترفيه قد احتوتها سوق الترفيه التى تحول وقت الفراغ إلى وقت فارغ ، مفرغ من الإنسانية بواسطة أنواع التسليات التى تقترحها ، والتى لا تحبذ الازدهار البدنى ولا الثقافى . هذا النشاط من أنشطة الحياة ، بدلاً من أن يساعد الإنسان على أن يكون إنسانًا ، أى مبدعًا ، نجده يميل ، بسبب نظام السوق ، إلى أن يجعل من العاطل فى أحسن الأحوال مستهلكا .

ولا يعنى هذا أننا معادون للنمو ، أو لتقدم العلوم والتقنيات حين تسمح بتخفيض مشقة الرجال والنساء ، وحين لا تؤدى إلى عبوديتهم واغترابهم ، كما يحدث على سبيل المثال فى أوتوستراد المعلومات الذى يهدف للتلاعب بالرأى لخدمة الهيمنة الأمريكية .

ولكن النمو الاقتصادى وتزايد الإنتاجية لا يحلان مشكلة البطالة ، حتى وإن تمت إجراءات مثل ربط قياس وقت العمل بالإنتاجية ، بل الأولى هو أن يرتبط كما يريد أرباب العمل والحكومة ، بتخفيض الأجر وتخفيض الضمانات الاجتماعية . حتى يمكنهم أن يسمحوا لأنفسهم بالتهام بعض حصص السوق من منافسهم الأوروبى أو الأمريكى أو اليابانى ، ولكنهم يبقون فى نهاية الأمر مجرد تابعين تافهين .

الكذبة الثانية بعد النمو الاقتصادى كعلاج للمشكلات هى أوروبا.

لا نجد مشكلة واحدة حلاً لها فى إطار أوروبا.

إنهم يعدوننا مع أوروبا الموحدة بسوق من ٣٠٠ مليون من الزبائن متجاهلين أن الأمر يتعلق بـ ٣٠٠ مليون منافس فى سوق العمل ؛

لأن اقتصاديات أوروبا فى جوهرها لا يكمل بعضها بعضًا ولكنها متنافسة، وذلك بالإضافة إلى منافسة الاقتصاد الأمريكى والاقتصاد اليابانى.

هل هذا يعنى أن البديل الوحيد لمشروع أوروبا الموحدة هو انطواء فرنسا الوطنى وحبسها فى إطار من أسوار الحماية الجمركية؟ على العكس سيكون ذلك هو الاختناق.

الحل الوحيد الممكن هو الانفتاح على العالم فى مجمله، لأنه طوال ٥٠٠ سنة من الاستعمار، وآخرها خمسون سنة من صندوق النقد الدولى والبنك الدولى، يبقى هذا العالم المتصدع واقتصاده المشوه وفيه ثلثا سكانه منهوبون بواسطة الغرب، وليس لديهم قدرة شرائية. سيبقى هناك إذن عالمان متجاوران: عالم الجوع وعالم البطالة. ولكن بالتفكير فقط فى إطار السوق، كيف يمكن أن نأمل فى إعطاء عمل للبعض فى حين أن هناك مليارات من البشر ليس لديهم الحد الأدنى الضرورى لشراء طعامهم؟!

الحل الوحيد الممكن لجوع البعض وبطالة البعض الآخر وهجرة الجياع فى بحثهم الوهمى عن العمل، هو تغيير جذرى لعلاقتنا مع العالم الثالث، مع وضع نهاية لسيادة الغرب ولتبعية الجنوب لأن التبعية هى التى تنتج التخلف.

نحن نعيش عالما مشطوراً بين الشمال والجنوب، وفى الشمال كما فى الجنوب، بين من يملكون ومن لا يملكون شيئًا: الـ ٢٠٪ الأكثر ثراء على الكوكب يحوزون ٨٣٪ من الدخل العالمى. والـ ٢٠٪ الأكثر فقراً يحوزون ٤, ١٪[٩].

وحيث إن الاستعمار خلال خمسة قرون، ونظام بريتون وودز خلال نصف قرن قد خلقا عدم المساواة هذا بين الشعوب، فإن التبادل الحر يعمل على تفاقم السيطرة والتبعية.

كيف يمكن أن نغير الانحرافات الراهنة؟

أولاً بتدمير الأسطورة التي تضفي كلمة ديمقراطية على حرية السوق. . . . **فالسوق الحر قاتل للديمقراطية** . . . . «بواسطة تراكم الثروة في قطب والبؤس والفقر في القطب الآخر».

وهذا يتضمن بعض القرارات السياسية التي تعمل على التحرر من العولمة المزعومة للاقتصاد، أي من الإرادة الأمريكية التي تريد أن تجعل من أوروبا ومن باقي العالم مستعمرة تفتح منافذ أمام اقتصادها الخاص في جميع المجالات: من المنتجات الزراعية إلى الصناعات الفضائية ومن المعلومات إلى السينما.

يتضح كل يوم أن ماستريخت هي سبب كبير لتعاسات، ليس فقط المزارعين بفرضها التبوير، ولكن أيضا كل العاملين، بتشجيعها تحت ذريعة الكفاءة التنافسية الأوروبية، التسوية من المنبع (تحت اسم «المرونة») لشروط العمل، بتصفية كل صناعاتنا، من الطيران إلى المعلومات، فهي تطيح بثقافتنا بواسطة غزو السينما والتليفزيون الأمريكيين، وتجعل من جيشنا احتياطيا للتدخلات العسكرية الأمريكية.

فيما يخص الاقتصاد، تسمح المادة ٣٠١ من القانون الأمريكي بحماية إنتاجها الخاص، في حين أن الجات تفرض على كل البلاد الأخرى تبادلا حراً يترك المكان لكل الاستبدادات الأمريكية. قانون هيلمز - بيرتون Helms-Burton لعام ١٩٩٦ وداماتو - كنيدي

Damato-Kennedy ، الذى صدَّق عليه الكونجرس الأمريكى وحده، يريد أن يفرض نفسه على كل المجتمع الدولى ويحرم عليه التجارة مع البلاد التى يحددها هو وحده . وهكذا يشرِّع القادة الأمريكيون للعالم بأكمله .

إن مقاومة جديدة تقتضى ، ليس فقط أن ننسحب من ماستريخت ، ولكن أيضا أن ننسحب من صندوق النقد الدولى والبنك الدولى ومن كل المؤسسات الأخرى التى هى أداة لهذه الإرادة فى الهيمنة العالمية تحت دعوى خلق عملة أوروپية موحدة (الأورو) . أوروپا والأورو (الذى يلغى الحق السيادى للدولة le droit souvrin فى سك العملة كأول ملمح من ملامح السيادة الوطنية) لا يمكنهما أن يؤديا (عن طريق خصومة بلا كابح بهدف زيادة التنافس) إلا لتفاوت فى المنبع للأجور والضمانات الاجتماعية ، من أجل تخفيض سعر التكلفة بين اقتصاديات متنافسة .

من هنا تأتى ضرورة إعادة حرية تأسيس علاقات جديدة جذريا مع العالم الثالث ، مع هدف محدد هو تشجيع شعوب أوروپية أخرى على الالتزام بنفس الطريق :

١ ـ إلغاء كامل للديون التى لا أساس تاريخى لها ولا مبرر.

٢ ـ إلغاء كل معونة مالية لحكومات العالم الثالث.

على سبيل المثال، ٤٠ مليار فرنك للتنمية ، هو مبلغ ميزانية المعونة العامة فى فرنسا ، والتى هدفها الرسمى هو مساعدة الأكثر فقراً فى الكوكب. ولكن ٩٥٪ من هذا المبلغ ليس مساعدة ولا يؤدى إلى تنمية. بل على أفضل تقدير هو إفراغ جيوب دافعى الضرائب وملء جيوب بعض المنتفعين من الحكوميين فى الشمال والجنوب، وعلى أسوإ تقدير، تستخدم المعونة للقتل.

وآخر مثال استخدمت فيه المعونة :

في رواندا، في تمويل حكومة القتلة، لتبقى أطول وقت ممكن في الحكم، وفي تمويل عملية «تركواز»(*) Turquoise لتسهيل مرورهم لزائير لكي يمكنهم التهيؤ للانتقام.

٣ ـ قروض عامة وخاصة، لا تعطى للحكومات، وإنما تعطى مباشرة إلى منظمات القاعدة والتعاونيات والنقابات وجمعيات المنتجين، بل وحتى الحث عليها، ومشروعات محددة للمنفعة العامة، والأولوية في ذلك للأقاليم الزراعية مع هدف الاكتفاء الذاتي الغذائي (تجهيزات زراعية، حفر آبار، تعبيد طرق، مستشفيات، مدارس، إلخ.).

٤ ـ قبول أن يكون سداد هذه الديون في غالبيتها، إما بعملة البلد تحفيزا على الاستثمار في المنطقة، بدلاً من إخراج العملة الصعبة، الأمر الذي يقضي على مشكلة الفوائد، وإما أن تدفع في صورة منتجات.

٥ ـ العمل على موازنة شريفة لأسعار المنتجات المبيعة بواسطة بلاد الجنوب مع أسعار المنتجات المبيعة بواسطة بلاد الشمال.

٦ ـ مواجهة التضخم العملاق للمؤسسات الإنتاجية التي تهدف قبل كل شيء لزيادة استثمارات الشركات الكبيرة، واحترام التاريخ وثقافات كل شعب، واستخدام التقنيات المحلية

(*) تركواز هو الاسم الحركي الذي أطلقته الحكومة الفرنسية على تدخل قواتها لصالح الحكومة الموجودة في أثناء الحرب الأهلية في رواندا.

بأوسع مـا يمكن، والتى هى فى الغـالب أكـثـر توافـقًـا مع الحاجات المحلية.

ستكون التنمية فى هذه الحال أصلية متوطنة فى البلد، بدلا من أن تكون أجنبية مستوردة بغض النظـر عـن الحاجـة المحليـة الحقيقية، فضـلا عن كون الأخيرة نموذجًا غربيًا مـستـوردًا حسـب مصلحة المشروعـات الأجنبية الكبرى.

هذا التكييف الضرورى، لتلبيـة حاجـات الجنوب، قـد يقتـضى تكييفًا لعقلياتنا، محبذا ما يلبى أيضًا حاجتنا الواقعية وليس التسلح والمنتجات الترفيهية التافهة.

ب ـ من أجل باندونج(*) جديدة:

باندونج جـديدة ضـرورية من أجل أن يكون القـرن الحـادى والعشرون علامة على نهاية عصر ما قبل التاريخ الحيوانى للإنسان، حيث كانت الثروة فى عالم مشطور، حكرًا على أقلية ضئيلة وتقتضى التبعية والاستغلال، بل وموت الجزء الأكبر من البشرية.

١ ـ إن بعث الوحـدة الإنسـانيـة لا يمكن أن يتم بواسطة العنف والسـلاح اللذين كانا يفـصمـان عـراها، ولكنه يتم بواسطـة تحالف كـل القـوى الإنسانيـة حقًا: مـن الاقتصـاد إلـى الثقافـة إلى الإيمان.

(*) باندونج مدينة فى إندونيسيا، عقد فيها فى إبريل عام ١٩٥٥ أول مؤتمر للدول غير المنحازة، حضره لأول مرة ممثلو تسع وعشرين دولة.

٢ ـ إن ضعف الشعوب المضطهدة الحالية راجع فى جزء كبير منه إلى انقسامها نتيجة خلافات وحروب استثارها ودعمها سادة العالم الحاليون. فالمهمة الأولى هى وضع نهاية لهذا التمزق عن طريق التفاوض السلمى بشأن كل هذه الصراعات التى تخدم القاهرين.

٣ ـ أن يرفضوا بشكل جماعى دفع الديون المزعومة لصندوق النقد الدولى، وذلك للأسباب الآتية:

(أ) من الدائن؟

ـ إن على الغرب دينا ثقيلا تجاه العالم الثالث:

* من يسدد لهنود أمريكا استنزاف كل قارتهم؟

* من يعيد إلى الهند القديمة، مصدرة النسيج، ملايين الأطنان من القطن التى أخذت من المزارعين بثمن بخس، وأدت لتحطيم الصناعة الحرفية للنساجين الهنود، لصالح الشركات الكبرى فى لانكشاير؟

* من يعيد لإفريقيا حياة ملايين من أبنائها الأقوياء، الذين حملوا كعبيد لأمريكا بواسطة جلاَّبى العبيد الغربيين طوال ثلاثة قرون؟

(ب) ما سبب هذا الدَّين؟

لقد حطمت البلاد الاستعمارية القديمة الاقتصاديات المحلية، وخصوصًا بالتضحية بالزراعات المتعددة لصالح زراعة المحصول الواحد والإنتاج الواحد، والتى جعلت منها تابعًا لاقتصاديات البلاد الاستعمارية ولصالحها فقط. مثل هذه الاقتصاديات لا يمكنها أن تكفل استقلال البلاد ولا حتى الاكتفاء الذاتى الغذائى، حتى اليد

العاملة الصناعية لا ترتبط بحاجة البلاد. التبعية إذن مستمرة والقروض أصبح لا يمكن تفاديها.

(جـ) هذه الديون قد تم سدادها منذ زمن طويل بالفوائد الربوية التى دفعت للدائنين الأجانب.

* فلترفض إذن بلاد العالم الثالث أن تدفع جباية لصندوق النقد الدولى.

* ولترفض المعونات التافهة الموجهة إلى وضع قناع على هذا الظلم الممتد عبر مئات السنين.

* وليشكل، عبر إلغاء الدَّيْن وفوائده، صندوق تضامن يعوض المعونة المزعومة.

٤ ـ معارضة أى مقاطعة مفروضة تعسفًا بواسطة سادة العالم الحاليين على البلاد التى ترفض سيطرتهم. ينبغى من الآن فصاعدا ألا يحسب لهم حساب، ولنتاجر بحرية مع أشقائنا الخاضعين للمقاطعة.

٥ ـ مضاعفة التبادلات بين الجنوب والجنوب بصورة عامة، وبين البلاد التى تمتلك ٨٠٪ من مصادر الطاقة فى العالم.

* قيام هذه التبادلات على أساس نظام المقايضة، حتى لا تتم عبر العملات النقدية للشمال، وخصوصًا الدولار، مع الحرص على أن يؤدى ذلك تدريجيًا للقضاء على المضاربة، وذلك بأن يكون له سعر عالمى.

٦ ـ وهذا يتضمن مقاطعة عامة للولايات المتحدة وأتباعها وخصوصًا إسرائيل، مرتزقة الغرب ضد الثقافات المحلية وضد السلام.

* القضاء على الهيمنات الاقتصادية والاعتداءات الثقافية، المضادة المصنوعة فى هوليود وكذلك منتجاتها التافهة وكل التجليات الأخلاقية والمادية لانحطاطهم.

- يتضمن هذا، حسب الخطة السياسية، الانسحاب الجماعى من كل مؤسسة ذات اختصاص عالمى، أصبحت أداة لسيطرة سيد واحد، وتستخدم لتغطية اعتداءاته العسكرية والاقتصادية والثقافية: الأمم المتحدة، صندوق النقد الدولى، البنك الدولى، منظمة التجارة العالمية وكل مشتقاتها من المؤسسات التى تقوم مثلها بالتواطؤ لحساب سيطرة إمپريالية على العالم وعلى مفهوم اختزالى للإنسان، باحتسابه فقط مستهلكا أو منتجا، تحركه فقط مصلحته وحدها، ولا تعطى للإنسان أى معنى آخر لحياته، إلا العمل كعبد، كى يستهلك أكثر، هذا إذا لم يكن عاطلاً أو مُستَعمَرًا أو مستعبَدًا.
- التهديدات أو الاعتداءات التى تتم ضد أى بلد عضو، سيواجهها المجتمع العالمى بجميع الوسائل.
- هذا المجتمع العالمى الذى يهدف لخلق عالم ذى وجه إنسانى، لا يتضمن أى امتيازات دينية ولا سياسية، لأن هدفه هو أن يخلق وحدة ليست إمپريالية، ولكن وحدة سيمفونية للإنسانية التى يساهم فيها كل شعب وكل مجتمع بثرواته الخاصة، ثروات أرضه وثقافته وإيمانه.

بالتالى فهو مقترح للدول والأقليات المضطهدة، على شرط أن وا فى كل بلد وحدتهم انطلاقًا من هذه الأسس.

إن باندونج الأولى كان هدفها، فى عالم مزدوج القطبية، أن ترفض الانحياز لإحدى الكتلتين لتحتفظ باستقلالها. وما زال هذا المثل الأعلى مستمرًا.

ولكن الشروط التاريخية تغيرت، فنحن نعيش فى عالم أحادى القطب، ولكن علينا أن ندافع عن هوياتنا، من الثقافة إلى الاقتصاد، ضد الأصولية المتفاوتة للطامحين فى السيطرة العالمية بواسطة لعبة وحدانية السوق، التى تجعل من السوق، أى من النقود، المنظم الوحيد للعلاقات الاجتماعية.

نحن نرفض هذه الرؤية للعالم بدون الإنسان، وحياة بلا مشروع إنسانى هى حياة بلا معنى. نتحد من أجل أن نبنى عالمًا واحدًا، غنيا فى تنوعه ومطمئنا على مستقبله بواسطة التقاء الشعوب والثقافات فى إيمان مشترك، تغذيه خبرات وثقافة كل شخص، ويدفعه مشروع مشترك فى أن يعطى لكل طفل ولكل امرأة ولكل رجل، أيا كان أصله وتراثه الخاص، كل الوسائل اللازمة لاستخدام كل الإمكانات الإنسانية التى يحملها فى داخله.

***

وأخيرا من الضرورى فى عالم تجنى فيه النقود بالمضاربة (على أسعار المواد الخام، وعلى قيمة العملات المختلفة، وعلى المنتجات المشتقة، إلخ.) أرباح أزيد من ٤٠ ضعفًا مما تجنيه من أرباح استثمارها على المدى الطويل عبر اقتصاد حقيقى منتج للسلع والخدمات (على سبيل المثال، المستثمرون المفترض أنهم يقومون بتطوير البنى التحتية، والمؤسسات التى تلبى الحاجات الأساسية، ووسائل النقل لتسهيل

التبادلات)، من الضرورى أن يقام تحكم حقيقى صارم فى التبادلات. وهذا يفترض أن يتمتع كل شعب باستقلاله كى يخطط احتياجاته وتبادلاته. هذا لا غنى عنه حتى يمكن للمبالغ الطائلة المستخدمة فى عمليات المضاربة العقيمة بالنسبة للمجتمع، أن تستثمر فى اقتصاد حقيقى، ينتج ليلبى حاجات ٥ مليارات من سكان الكوكب، وبذلك يتم وضع نهاية لبطالة ملايين الرجال والنساء عبر العالم، لأنهم، ولنكرر ذلك، وقعوا فى البطالة لسببين أساسيين:

١ ـ لأن انشطار العالم جعل أكثر من ثلث سكان العالم غير قادر على الشراء.

٢ ـ لأن رءوس الأموال المستثمرة فى المضاربة، قد انحرفت عن الاستثمار فى اقتصاد حقيقى يلبى حاجات الجميع.

الفصل الثانى

بواسطة تحول فى السياسة

كيف يمكن خلق نظام سياسى ذى وجه إنسانى؟

كل ديمقراطية قائمة على الدفاع عن فرد مجرد دون أن تأخذ فى حسبانها قدرته الحقيقية (مثال: قدرة المالك وقدرة العاطل) لا يمكن أن تؤدى إلا إلى انتخاب أغلبية إحصائية، يسعى كل واحد فيها لمصالحه الخاصة، وتدفع الآخرين إلى السوق (سوق العمل وسوق التجارة). النتيجة، كما يقول ماركس، هو شىء لم يكن أحد يريده. **وعلى سبيل التوضيح، عندما نتحدث عن الناتج القومى الخالص لكل فرد، فإن الأرقام لا تعنى شيئًا. إنها متوسط بين دخل ملياردير ودخل عاطل عن العمل، هذا الحد الأوسط لا يرتبط بأى واقع ملموس.**

وأخيراً، وبالأخص فى أيامنا هذه، فإن التلاعب بالرأى العام عن طريق وسائل الإعلام المملوكة بواسطة بعض الاحتكارات أو بعض القوى الكبرى (سواء كان بيل جيتس أو مردوك، وسواء كانت CNN أو التليفزيونات المسماة بالوطنية والتى تخدم مصالح الحكومات القائمة، وأنواع اللوبى المختلفة ذوات البنية والتمويل الكبيرين) ـ نقول إن هذا التلاعب يؤدى إلى خلق فكر وحيد ومستقيم سياسيا.

إن تحالفات اليمين واليسار تمارس نفس السياسية، كما أن عدم اهتمام السكان (فى فرنسا كما فى الولايات المتحدة) الذى

يعبر عن نفسه بالامتناع عن التصويت فى الانتخابات يزداد حجمه يومًا بعد يوم(*).

هذه هى العناصر الأساسية لتدليس الديمقراطية الغربية، التى لا تمثل عقبة فى مواجهة الديكتاتورية، بل تؤدى إليها فى نهاية المطاف سواء بطريقة مباشرة - كما كان الحال مع هتلر الذى وصل إلى السلطة باللعبة القانونية لمثل هذا النوع من الديمقراطية، عن طريق الحصول على أغلبية برلمانية مطلقة - أو بصورة غير مباشرة، كأن تجلب دولة ديمقراطية شديدة القوة إلى السلطة ديكتاتوريات لحماية مصالحها الخاصة. الولايات المتحدة هى نموذج للتمويه على حكم الحزب الواحد، حيث تقدم للجمهور تنوعين رسميين: ديمقراطى أو جمهورى، مكونة بالفعل حزبا واحدا لرأس المال وفرقا مختلفة يتقاسمون الغنائم (أى الوظائف القيادية والدخول) حينما يحوزون النصر. إنهم يساعدون بنفس القوة ديكتاتوريات أمريكا الأخرى، ويصوتون بنفس الإجماع على القروض لإسرائيل، وبنفس الڤيتو على أى جزاءات ضد انتهاكاتها لقرارات الأمم المتحدة، أو نفس الاعتداءات ضد أى شخص يزعم معارضة سيطرتهم العالمية ويتحدى المقاطعة التى يفرضونها.

(*) لم يذهب لصناديق انتخابات الرئاسة الأمريكية عام ١٩٩٦ إلا أقل من ٥٠٪ من المسجلين، وعلى وجه التحديد أقل من ٧٥ مليون صوت، فى دولة عدد سكانها ٢٧٥ مليونا، وعلى ذلك فأغلبية كلنتون قائمة على سدس عدد السكان، أى ١٥٪ تقريبًا. (الناشر)

ما هى الديمقراطية؟

من حيث أصل معنى الكلمة، تعنى الديمقراطية حكم الشعب بالشعب وللشعب. ولذا كان الْمُنظّر الأساسى للديمقراطية والذى تنتسب إليه الثورة الفرنسية هو چان چاك روسو. فى كتابه العقد الاجتماعى يقول ممزقًا كل أكاذيب الديمقراطيات الغربية المزعومة: إذا أخذنا المصطلح بمعناه الأصيل والدقيق، لوجدنا أنه لم توجد أبداً «الديمقراطيات الحقيقية»، وذلك لسببين:

١ ـ عدم تكافؤ الثروات، التى تجعل من المستحيل تكوين إرادة عامة تضع من يملكون فى مواجهة من لا يملكون.

٢ ـ غياب الإيمان بقيم مطلقة تجعل كل فرد يقدس واجباته بدلاً من أن تسيطر شريعة الغاب الفردية، حيث يعتقد كل فرد أنه مركز معيار الأشياء وأنه منافس وخصم للآخرين (العقد الاجتماعى (Contrat Social, Ed. Pléade-P408) .

لم يكن إذن هناك سوى نموذج تاريخى للديمقراطية المزعومة: هو نموذج اليونان القديمة. ونحن نعلّم اليوم لطلاب المدارس أنها أم الديمقراطيات، دون أن نذكِّرهم بأنه فى إطار هذه الديمقراطية الأثينية وهى فى قمة ازدهارها (زمن بركليز فى القرن الخامس ق.م)، هناك ٢٠ ألف مواطن حر يشكلون الشعب الذى يمتلك حق الانتخاب، و١١٠ آلاف عبد ليس لهم أى حق. الاسم الحقيقى لهذه الديمقراطية هو حكم نخبوى عبودى.

ومنذ ذلك الوقت، لم يكف الاستخدام الكاذب لكلمة الديمقراطية عن السيادة فى الغرب.

- إعلان الاستقلال الأمريكي : الذي أعلن في ٤ من يوليه عام ١٧٧٦ (السنة التي مات فيها روسو) يَعُدّ كحقائق بديهية واضحة بذاتها أن البشر يولدون متساوين، وقد زودهم خالقهم بحقوق لا تقبل التغيير : الحياة، الحرية . . في حين أن الدستور المولود من هذا التصريح الرسمي الاحتفالي، يحتفظ بالعبودية لأكثر من قرن!

ديمقراطية للبيض وديمقراطية للسود.

- إعلان حقوق الإنسان والمواطن في الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ، يؤكد أن كل البشر يولدون متساوين في الحقوق. وحتى في مادتيه ١٤ ، ١٥ يحدد : «لكل المواطنين الحق في المشاركة في صياغة القانون» . في حين أن الدستور الذي يُعَدّ هذا التصريح تمهيداً له، لا يمنح حق الاقتراع إلا للملاك : أما الآخرون، أي ٣ ملايين فرنسي، فقد عُدّوا مواطنين سلبيين : أما المواطنون الإيجابيون، حسب تعريف سييس Sieyes ، أبي هذا الدستور، فهم : الفاعلون الحقيقيون للمؤسسة الاجتماعية ؛ وقبله أكبر الفلاسفة الفرنسيين في ذلك القرن وهو ديدرو Diderot ، الذي كتب في موسوعته (مادة : مندوب)، «المالك وحده هو المواطن» .

ديمقراطية للملاك وليس للشعب.

وفي عام ١٨٤٨ ، تم إجراء الاقتراع العام ولكن فقط للرجال . ونصف الأمة (أي النساء) كان مستبعداً .

ديمقراطية للرجال، وليس للنساء.

ويمكن أن نعدد الأمثلة .

إسرائيل مثال نموذجى!

فهو يقدم لنا على أنه نموذج للديمقراطية. والپروفسور كلود كلاين Claude Klein مدير معهد القانون المقارن فى الجامعة العبرية بالقدس، فى كتابه ذى العنوان الدال: «الخاصية اليهودية لدولة إسرائيل» يعرفنا (فى الصفحة ٤٧ من كتابه) أن القانون الذى شرعه الكنيست فى عام ١٩٧٠ فى مادته ٤ يعطى هذا المفهوم لليهودى (الذى يحصل على حق العودة والمواطنة): «يُعَدّ يهوديّا كل من ولد من أم يهودية أو من اعتنق اليهودية، ولا ينتمى إلى أى دين آخر». **معيار عنصرى وآخر عقائدى، يقوداننا إلى عصر محاكم التفتيش الإسپانى الذى كان يقتضى نقاء الدم واعتناق الكاثوليكية.**

ديمقراطية لليهود وليس للآخرين.

ولكن المثل الأكثر دلالة على تدليس الديمقراطية على الطريقة الغربية، والأكثر حداثة، لأنه يعطى المبرر لكل أشكال الحق فى التدخل باسم الدفاع عن حقوق الإنسان، هو: «الإعلان العالمى لحقوق الإنسان» الصادر عن الأمم المتحدة فى عام ١٩٤٨.

وسنكتفى ببعض القرائن، فهو ينادى بالآتى:

مادة: كل البشر أحرار ومتساوون فى الكرامة والحقوق...

مع التحديدات الآتية:

مادة ٢٣/ ١: «لكل فرد الحق فى العمل...» فى حين أن هناك ٣٥ مليون عاطل فى العالم الغنى ومئات الملايين بلا عمل وهامشيين فى العالم الثالث.

مادة ٢٥/ ١ : «لكل فرد الحق فى مستوى معيشة يضمن له الصحة والرفاهية . . . » فى حين أنه فى الولايات المتحدة هناك ٣٥ مليونا يعيشون تحت خط الفقر، ونفس الأمر فى الجنوب حيث يعيش ثلاثة أخماس البشرية .

مادة ٢٥/ ٢ : «الأمهات والأطفال لهم الحق فى مساعدة ورعاية خاصة» . فى حين أن تقرير اليونيسيف لعام ١٩٩٤ يبين أن ١٣ مليون طفل يموتون سنويّا من الجوع ومن سوء التغذية وأمراض من السهل علاجها، وأنه فى الولايات المتحدة هناك طفل من ثمانية أطفال لا يأخذ كفايته من الغذاء[١٠](*) .

هناك سؤالان أساسيان يطرحان نفسيهما بشدة :

١ ـ عندما نتحدث عن الإنسانية، فعن أى إنسان نتحدث؟ الأبيض؟ المالك؟ الغربى؟

٢ ـ ماذا يعنى «الحق» لإنسان ليس لديه وسائل ممارسة هذا الحق؟

ماذا يعنى على سبيل المثال الحق فى العمل لملايين العاطلين؟ والحق فى الحياة لملايين البشر الذين يموتون فى العالم غير الغربى كى يستمر أصحاب الامتيازات فى الغرب فى متابعة نهبهم بحرية؟

علاوة على ذلك : من يمتلك حق التدخل؟ هل يوجد شعب إفريقى يمتلك هذا الحق كى يضع حدا للتمييز العنصرى فى الولايات المتحدة؟ أو لكى يعاقب مرتكبى جرائم مدينة لوس آنچلوس؟

(*) أصبحت النسبة الآن «واحد من كل سبعة أطفال» . (الناشر)

التدخلات العسكرية للدفاع عن الحدود تمارس بطريقة همجية، بينما لا يوجد أي جزاء، برغم التصويت الإجماعي في الأمم المتحدة، عندما تضم إسرائيل القدس.

يمكننا أن نعدد الأمثلة لهذه الغابة، حيث يسود قانون الأقوى تحت مسوِّغ الدفاع عن الديمقراطية: مساندة پينوشيه وكل ديكتاتوريات العالم عندما تخدم المصالح الأمريكية، وسحقها عندما تتوقف عن خدمتها، من أمثال الچنرال نورييجا في پنما الذي كان يتلقى من بوش عندما كان مديراً للمخابرات الأمريكية نفس معاملة رؤساء الولايات المتحدة، بما أنه عميل مخلص، ولكن تتعرض بلاده للغزو عندما يطالب بحقوق مشروعة في قناة پنما. وصدام حسين الذي أطلق عليه في فرنسا في بعض الكتب «ديجول العراق» عندما كان يتلقى المال والسلاح ليحارب إيران، يصبح فجأة هتلر الجديد عندما يحاول أن يقاوم التدخل الاستعماري للولايات المتحدة وحلفائها.

الكذب الأساسي الذي يسوِّغ كل الجرائم باسم الديمقراطية (مثل الإبقاء على مقاطعة العراق التي تقتل آلاف الأطفال باسم الدفاع عن حقوق الإنسان) قائم على التوحيد المنافق بين حرية السوق وحرية الإنسان.

إن ديمقراطية حقيقية لا يمكنها أن تشيد على تصريح عالمي لحقوق الإنسان والمواطن يكون دائمًا مزيفًا وكاذبا، ولكن على إعلان واع بواجبات الإنسان.

يمكن أن تكون مبادئه الملهمة هي الآتية:

الإعلان العالمى لواجبات الإنسان

ديباجـة:

الإنسانية فى تنوع عناصرها هى كلٌّ واحد لا ينقسم.

الواجب الرئيسى للجماعات ولأعضائها هو خدمة هذه الوحدة وتطورها الخلاق بالتمييز بين الإنسان والحيوان، ويكون هذا الواجب هو أساس كل الواجبات الأخرى.

يُستبعد كل تسلط وتُضمن كل الحقوق.

يُستبعد كل زعم فى الخصوصية (exclusivité) وفى سيطرة معتقَد أو أمة أو جماعة أو فرد.

تُضمن حرية التعبير لكل نزعة إنسانية (أى كل مذهب يخدم مصالح الإنسانية ككل لا يتجزأ، وكذلك حرية التعبير، وحرية الإيمان أو ممارسة كل دين «أى كل معتقد يمنح هذه الوحدة أصلاً إلهيّا»). وكل تطلع قومى يساهم بثقافته الخاصة فى سيمفونية هذه الوحدة العالمية، وفى ازدهار الإمكانية الخلاقة التى يحملها كل فرد فى داخله (أيا كان جنسه وأصله وإيمانه).

العالم اليوم واحد.

ووحدته الموجودة هى فى الواقع خاضعة للتهديدات.

ووحدته المزمع صنعها هى حاملة للأمل.

* * *

الوحدة الموجودة فى الواقع محملة بالتهديدات:

كل أشكال التقدم الرائع للعلم والتقنية، تستخدم فى الغالب فى

تدمير ما هو إنساني أكثر مما تستخدم في ازدهاره، هذا بحُسبانها غير موجهة بأي تخطيط عالمي وبأي تأمل حول معنى الحياة.

إن العلم والتقنية يعطياننا في الواقع قدرات وإمكانيات غير محدودة. ولكنهما غير قادرين على أن يحددا لنا غايتنا النهائية.

إن عالما قائما على مفهوم كمي للسعادة، لا هدف له سوى الإنتاج والاستهلاك بشكل متزايد ومتسارع لأي شيء، لدرجة أن التجارة الأكثر إثماراً اليوم هي السلاح والمخدرات.

في هذا العالم حيث تكتسب الثروات بواسطة المضاربة المالية أكثر مما هي بالعمل المنتج للسلع والخدمات، تقود كل الانحرافات إلى شريعة الغاب، دون أي قانون آخر سوى قانون الأقوى، وقانون العنف والفوضى.

إن تدمير ما هو إنساني بواسطة وحدانية السوق وعبادة المال، تستثير ردود أفعال للتمرد والهروب، كالهرب في المخدرات أو المهدئات، وفي انحدار الفن إلى تسلية لنسيان الواقع والمعنى، والولع بالجديد لأنه جديد حتى ولو كان عبثيّا، أو الفرجة لا من أجل اليقظ ولكن من أجل البلادة وغياب الوعي.

يتمثل رد الفعل أيضا في التمرد الذي يولد من انفجار الإطار القديم للحياة الاجتماعية؛ العائلة، الكنيسة، الأمة. تدهور الإيمان الذي يتجلى في انتشار الأصوليات والغيبيات وقراءة الطالع، وجماعات البدع الدينية. وتفاقم القوميات القديمة بواسطة أساطير الكيان العرقي، والذي يؤدي إلى تفكك النسيج الاجتماعي لوحدات متضائلة وغير قادرة على الحياة.

هذا التفكك للقوميات السياسية والأصوليات الدينية والعرقية يعولم العنف فى فوضى دولية جديدة لا قانون لها ، ولا حق. وحيوات شخصية تحرمها هذه الفوضى من المعنى ومن المستقبل.

الوحدة المزمع صنعها هى حامل للأمل:

أن يكون للحياة معنى هو أمر لا مجال لإثباته.

أن يكون لا معنى لها أمر لا مجال لإثباته أيضا.

هناك إذن رهان أساسى لإيقاف الانحرافات المتجهة إلى انتحار الكوكب.

رهان مع كل ما يتضمن من أنواع الرفض.

رهان مع كل ما يتضمن من مشروعات.

رفض نظام قديم تم تجاوزه:

* الملكية لم يعد يمكنها أن تكون هى الحق الفردى فى الانتفاع وإساءة الاستخدام، والذى أدى إلى تجميع الثروة فى يد قلة على حساب الغالبية.
* الأمة لم يعد يمكن لها أن تكون غاية فى ذاتها، تؤدى إرادة القوة فيها وإرادة النمو إلى حروب ومواجهات لا تنتهى.
* الدِّين لم يعد هو الزعم بامتلاك الحقيقة المطلقة، هذا الزعم الذى أدى إلى الحق، بل قل الواجب، فى فرضه على الآخرين، وهو ما سوّغ محاكم التفتيش والاستعمار.

هى مشروعات لمستقبل لا يكون كما سيكون، ولكن كما نصنعه نحن.

التحول الجذرى والذى يمكنه وحده أن يكفل ازدهارا جديدا للإنسانية، أو على الأقل بقاءها على قيد الحياة، يقتضى الانتقال من النزعة الفردية التى يَعُدّ كل فرد فيها نفسه مركزاً ومقياسا لكل شيء، إلى الجماعية التى يشعر كل عضو فيها أنه مسئول عن مصير كل الآخرين (إن حرية الآخر ليست هى الحد الذى تقف عنده حريتى، ولكن هى شرط حريتى)؛ كما يقتضى الانتقال من الوضعية القائمة على الاعتقاد الزائف فى أن العلم والتكنيك يمكنهما حل كل المشكلات بما فيها مشكلة معنى حياتنا، والتى أصبحت دين الوسائل وعبادتها، إلى الإيمان الذى يسميه البعض الإيمان بالله والبعض الآخر الإيمان بالإنسان، ولكنه دائما إيمان بمعنى الحياة وبوحدة العالم. وذلك فضلا عن الانتقال من الخصوصية التى تحابى مصالح فرد أو جماعة أو أمة ضد مصالح الكل. أى فعل لا يمكن أن يكون خلاقًا لمستقبل ذى وجه إنسانى إن لم يكن قائمًا على الاعتبار الأول للكل.

إن وضع العالم على عتبة الألف الثالثة يفرض علينا هذا الاختيار:

- إما عدم الوعى بفوضى حرب الجميع ضد الجميع(*)، والتى فى مستوى قدراتنا الحالية تقود إلى الموت.
- وإما الوعى بالأولوية المطلقة من أجل إنقاذ الأمل، أى الحياة.

(*) من المصطلحات الأمريكية الشائعة فى مجال الأعمال «قتل المنافسين» أو «دفعهم للجنون». (الناشر)

مشروع إعلان واجبات أى إنسان وكل إنسان

١ ـ الإنسانية مجتمع واحد، ولكن ليس بواسطة وحدة إمپريالية قائمة على سيطرة دولة أو ثقافة. هذه الوحدة هى على النقيض سيمفونية، أى غنية بمشاركة كل الشعوب وثقافاتها.

٢ ـ كل واجبات الإنسان والمجتمعات التى ينتسب إليها تنبع من مساهمته فى هذه الوحدة: أى تجمع إنسانى: مهنى، قومى، اقتصادى، ثقافى، دينى، لا يمكن أن يكون مشروعًا للدفاع عن مصالح وامتيازات خاصة، ولكن لترقية أى إنسان وكل إنسان أيًّا كان جنسه أو أصله الاجتماعى أو العرقى أو الدينى، كى يعطى كل فرد الإمكانية المادية والروحية من أجل استخدام كل القدرات الخلاقة التى يحملها فى داخله.

٣ ـ الملكية، عامة أو خاصة، لا شرعية لها إلا إذا أقيمت على العمل وساعدت على تنمية الجميع، وبالتالى حائزها هو مجرد مدير مسئول عنها. لا مصلحة شخصية أو قومية أو طائفية أو دينية يمكنها أن تجعل غايتها التنافس والسيطرة واستغلال عمل الآخرين، أو الاستغلال المنحرف لوقت الفراغ.

٤ ـ السلطة، على أى مستوى كانت، لا يمكن أن تمارس أو تسحب إلا بواسطة توكيل من قبل من يلتزمون، التزامًا مكتوبًا للوصول إلى المواطنة ومراقبة الواجبات.

والحائزون يمكن أن يستبعدوا بواسطة أقرانهم إذا تعدوا.

وهى لا تتضمن أى امتياز، لكن فقط واجبات واقتضاءات.

وبمتابعة نفس الهدف العالمى، لا يمكن أن نقف كخصم لأى سلطة أخرى.

٥ ـ لا يجوز لأحد أن يزعم امتلاكه المعرفة الكاملة والحقيقة المطلقة، لأن هذه الأصولية الثقافية تولد بالضرورة محاكم التفتيش والشمولية.

والإبداع خاصية من خصائص الإنسان تحول بينه وبين الاغتراب، وتعمل على ألا تحل محله أى آلة، مهما كانت درجة تعقيدها، فلا يسقط فى عبادة الوسائل (التى تستبعد كل أساس للواجب).

٦ ـ هدف كل مؤسسة شعبية لا يمكن إلا أن يكون دستوراً لجماعة حقيقية، أى على عكس النزعة الفردية، هى رابطة يعى كل مشترك فيها أنه مسئول عن قدر كل الآخرين.

تليفزيون ضد المجتمع

هذا الإعلان للواجبات مع القسم والجزاءات التى يتضمنها، لن تكون له فائدة فى أى مكان إلا إذا التفت إلى ما هو اليوم السرطان القاتل للديمقراطيات الغربية: التليفزيون. سوف نعالج هذا الموضوع هنا فى باب السياسة، لأنه يمارس هنا بوضوح كل سلطاته وتخريبه: فلا العائلة ولا الكنيسة ولا المدرسة لهم اليوم تأثير مواز على العقول والسلوك.

وقد قلنا من قبل عن الديمقراطية الأثينية، إن كل شىء يعتمد على الشعوب، وإن الشعب يعتمد على الكلام (أى السفسطائيين والبلغاء).

الرأى العام، الذى من المفترض أن يعبر عن نفسه فى الانتخابات (أصبح سلبيّا بسبب الامتناع عن التصويت فى الانتخابات، بما أن تأثيرها على الحياة الواقعية قليل) يعتمد على التليفزيون، سواء كان لسان حال دولة أو حكومة، أو قنوات خاصة فى يد المؤسسات الكبرى أو مفروضة دوليّا بواسطة الاحتكار العالمى للمعلومات مثل CNN الأمريكية.

سماتهم المشتركة جميعًا هى أن يكونوا خاضعين لقوانين السوق ولوحدانية السوق التى تسهر الولايات المتحدة على متابعة تطبيقها بصوة أرثوذكسية وصارمة.

المعلومات (كلام أو صورة) هى سلعة خاضعة لاقتضاءات المنافسة والتسابق، وفيها يمارس المال رقابة أشد هولاً من النظم الأكثر شمولية.

إنها تملى البرامج بمقتضى معدل الاستماع (audimat) الذى يكرس التلاعب المثير بالعواطف والعنف والجنس، أو الجديد بأى شكل، بذريعة أن المستهلك يحب ذلك. السباق إلى تقديم حدث جديد (scoop) يستبعد أى تحليل وأى تأمل نقدى، وأى ثقافة وفهم للحدث، فى سبيل أن يكون أول من يلقى الخبر.

المثير له الأولوية.

ما الحدث الصحفى؟ ليس هو ما يساعدك على الوعى بالاتجاهات الفكرية فى المجتمع، وما يضعك فى قلبها ويبرز لك مسئولياتك تجاهها، إنما هو ما يؤدى إلى البيع فى حالة الصحافة المكتوبة، أو يزيد معدل الاستماع فى حالة قنوات التليفزيون (وبالتالى حجم وسعر الدعاية المترتب على ذلك).

أن تحب زوجتك، هذا لا يهم أى شخص، لكن لو قتلتها لدخل الأمر فى باب الحوادث وأشارت لك الصحيفة أو حصلت على ٢٧ ثانية فى الأخبار التليڤزيونية، ولكن لو قمت بتقطيعها سيكون لك عمود أو ثلاث دقائق من البرنامج. أما لو أكلتها (كما فعل أخيراً شخص يابانى) فهذا هو المجد الإعلامى!

الاستغلال التجارى لهذه السادية لا يعرف الحدود، منذ العرض المباشر على الهواء لاحتضار فتاة صغيرة فى إحدى البرك، إلى التقديم الإخبارى لإعدام امرأة محكوم عليها بالإعدام ونفذ الحكم بعد ١٤ سنة من ارتكابها الجريمة، مضافًا لها صورة الهوس السادى لمن يتلقون النبأ ويحتفلون به فى حانة بكئوس من الويسكى.

العنف أيضا ثمنه فيه: العرض المستمر لأفلام الرعب الأمريكية يشهد على ذلك. ومثلها مثل الماكدونالدز تستهوى الأطفال بشكل خاص، فهم يجدون فيها علاوة على العدوانية المتزايدة وجنوح الصبية، نماذج تكنيكية للقتل الذى يحدث غالبًا ويستلهمه صغار السن.

وبالنسبة للكبار، الصورة الكاذبة أو الحوار بالخدع لهما نتائج أكثر فتكًا:

فى مدينة تيميسوارا Timisoara الرومانية نخرج من المدافن جثثًا: أم وطفل (ماتا فى وقتين مختلفين) وبمونتاچ ناجح بحيث نعتقد أنها مجزرة همجية تؤثر على الرأى العام لصياغته حسب الحاجة السياسية الآنية.

وهذا دليل كبير على فعالية الصورة ليس فقط كسلعة ولكن كسلاح فى الصراعات .

والتدريب وترويج العنف بدأ مبكراً ، إذ تقدر الإحصاءات الأمريكية أن الطفل بين ٦ ، ١٥ سنة ينفق ٤٠ ساعة فى الأسبوع فى مشاهدة التليفزيون وفى اللعب بألعاب الفيديو (حيث يمكن أن يَعُدّ نفسه بطلاً رياضيا بالضغط على أزرار بلا مجهود ليحقق إنجازاً) .

على جميع المستويات يغذى التليفزيون السلبية ويتجه إلى التنميط هكذا يريد الجمهور من المنبع ، تحت ذريعة أن «الجمهور عاوز كده» ، وهذا الجمهور ليس لديه بالفعل الاختيار إلا بين منتجات هؤلاء الموجهين للوعى غير الواعين وأشباه الرجال الذين يظهرون كنجوم لبرامج المنوعات ومبرمجين للأفلام .

ثقافة مضادة مصنوعة فى هوليود بواسطة النخب المالية للعالم ، مرتبطة من داكار إلى باريس أو إلى تايبيه ، بواسطة السينما والتليفزيون وشرائط الفيديو .

إن ارتياد السينما ، ونسبة دخول الأفلام ، وقائمة تأجير شرائط الفيديو ، ومعدل الاستماع التليفزيونى - كل هذا يشهد بأن : الغالبية الساحقة لصور الحياة التى تبث فى العالم ، تميل إلى ترويج العنف والروع ، وهى أفلام الرعب والإثارة التى تمجد أسطورة الأقوى ، الذى لا يقهر ، من طرزان إلى چيمس بوند ، والعنصرية فى أفلام رعاة البقر ، والنظام القانونى فى الأفلام البوليسية .

إنها ديانة معبودى الجماهير ، وعبادة حيواتهم الزائفة ، مع كل

بديل للمخدرات والضجيج العالى. وهذه هى نتيجة دخول التليڤزيون فى ساحة السوق والشعائر الدعائية.

السيد هرسان Hersant(*) كان يعلن بوضوح القانون السائد: «أقول إن هناك فيلمًا جيدًا أو برنامجًا جيدًا، عندما يكون جاذبًا جيدًا للرسائل الإعلانية».

هكذا تقوم ديكتاتورية معدل الاستماع، التى هى عدد المشاهدين لبرنامج معين. ومعدل الاستماع يحدد ثمن الدعاية ومصداقية البرامج فى وقت واحد. وقد صرح أحد منتجى برامج المنوعات فى القناة الأولى فى التليڤزيون الفرنسى وهو ألبير إنسالم A.Ensalm فى صحيفة تليراما (Télérama):

«كلما هبط مستوانا إلى أقصى حد، زاد معدل الاستماع. هذا هو الواقع. هل يجب علينا أن نتظاهر بالذكاء على المشاهدين؟ إنهم لا يميلون للتفكير، فلنكف عن القيام بدور من يعطيهم دروسًا».

هنا دعوة دائمة وحاسمة إلى الإغواء وإلى الديماجوجية وإلى الخلاعة المداهنة لرأى عام تتلاعب به الإعلانات ووسائل الإعلام والتليڤزيون نفسه الذى لا يحكى التاريخ ولكن يصنعه، فى اتجاه الإهمال وتضليل السوق وتفكيك كل عقلية نقدية وكل شعور بالمسئولية. ابتداء من الاستقصاءات التى تتم لا للتعرف على الرأى ولكن لتوجيهه، والبلاهة الخانقة للألعاب التليڤزيونية واليانصيب الذى يزيد من بريق فرص الحصول على النقود السهلة، وصولاً إلى أخبار ليست فى حقيقتها كذلك، والتى نستحث فيها المشاهد على

(*) من أكبر مالكى الصحف وقنوات التليڤزيون الخاصة فى فرنسا.

التأمل البليد لكوارث العالم. كل شيء يميل، بسبب الانتهازية التجارية، إلى التعامل مع الجمهور كأطفال سذج دون أى شيء يمكن أن يساعدنا فى فهم أحداث هذا العالم فى نهاية الألفية الثانية أو يظهر لنا مشاهد حياة إنسانية حقا (اللهم إلا بجرعات محدودة وبعد الساعة الحادية عشر ليلاً).

والحجة التى تستند إلى أن الجمهور لا يريد شيئًا آخر هى تدليس. فنحن لا نترك له الاختيار - فى استطلاعات الرأى - إلا بين المكروه والأسوإ.

كان جيرار فيليپ Gérard Philippe يمثل مسرحية «السيد» أمام جمهور من ١٥٠٠ مشاهد متحمس، وكان ڤان ڤيلار Jean Vilar يجذب جمهوراً يملأ البهو فى قصر شايو أو فى مسرح الضاحية بتمثيله سواء للترچيديات اليونانية أو مسرحيات برتولد بريخت.

ليس الجمهور إذن هو المذنب، لكن أولئك الذين يجردونه من تحضره. هنا شكل من أشكال تلوث العقول، أكثر خطراً من أى إساءة إلى صحة البيئة الطبيعية أو الجسدية.

ولهذا، ووفقا لروح إعلان الواجبات، لا ينبغى أن نمنح الليبرالية المزعومة حق قتل العقل والجسد بواسطة نجوم مزعومين من الإعلاميين لا وعى لهم بالغايات والمسئوليات التعليمية لرسالتهم.

ومن المفارقة أن نطلب من الأطباء، بعد دراستهم المهنية، كى يعالجوا المرضى، أن يقسموا قسم أبقراط. وأولئك الذين تكون رسالتهم كل يوم هى أن يعلموا الملايين من المستمعين والمشاهدين والقراء، وأن يتساءلوا عن مصير العالم وعن مسئوليتهم الشخصية والنقدية فى الإعداد للمستقبل، لا نطلب منهم شيئًا مشابهًا. وقد تم تعيينهم إما من مدارس الإعلام التى تميل لتدريس تقنيات الفعالية

أكثر من التأمل حول الغايات، هذا فى أحسن الأحوال، وإما يكون تعيينهم من الناشئين فى مهنة أخرى: مذيع فنى أو موسيقى لذلك الذى لم يستطع أن يصبح مبدعًا فى الفن التشكيلى أو فى الموسيقى، والذين لا يمتلكون سوى مبادئ أولية للثقافة تساعدهم فقط على إجراء متابعة الموضة الجارية أو حساب التجار، ولا يطلب منهم أى تعهد بالمسئولية.

وكما يحدث فى نهاية الدراسة الطبية إذ يكون هناك قسم أبقراط، لماذا لا نطلب منهم، بعد أن نعلمهم على الأقل مبادئ أولية فى الثقافة وتساؤلات حقيقية عن الغايات الإنسانية لمهنتهم، قسم هرمس على استقامة حاملى الرسالة.

هذا لا يكفى، ولكنه يجذب الانتباه إلى أحداث كل عصرنا المهمة. إن مدرسة لا تكفى للقيام بالأمر.

كل أعضاء المجتمع المدنى، ينبغى أن يشتركوا فى الإشراف على خريطة البرامج وعلى إدارة التليفزيون، كروابط المستمعين ومشاركة الهيئات الأساسية للمجتمع؛ نقابات عمالية وزراعية، وجامعات وتجمعات ثقافية لفنانين أو أعضاء المهن الحرة والحرفيين. يتعلق الأمر بالحصول على إشراف كل الشعب، لا الخضوع لتسلط أو رقابة هذا الحزب أو ذاك، وهذه المؤسسة فى الاتصالات ذات الهدف التجارى أو تلك الإعلانات التى تحول وتوجه البرامج. لا يتعلق الأمر هنا بإصلاح ولكن بتحول. لأنه فى هذا المجال كما فى أى مجال آخر، من الاقتصاد إلى السياسة والتعليم، فإن أسوأ اليوتوبيات هى الأمر الواقع.

الفصل الثالث

بواسطة تحول فى التعليم

كيف ننشئ تعليماً ذا طابع إنسانى ؟

إن الإنسان هو الحيوان الذى ابتكر الأدوات والقبور. ومنذ داروين شُغلَ العلماء بالبحث عن الحلقات المفقودة، التى بموجبها تم تحَول التركيب الداخلى لجسم القرد إلى التركيب التشريحى الخاص بالإنسان.

ومنذ اكتشافات دوبوا Dubois عام ١٨٩٠ فى چافا Java (بإندونسيا)، واكتشافات ليكى Leaky عام ١٩٥٩ فى أولدواى Oldoway (فى شرقى إفريقيا)، واكتشافات تابعيهما، وهذه الحلقات المفقودة تتزايد. ولكن، وعلى افتراض، أن ثمة عينات تشريحية لم تكتشف بعد، وعلى الرغم من تتابع جهود الباحثين فى الحفريات عن أصول الحياة، من أجل سد هذه الثغرة، فلن تكون المشكلة هى مجرد تماثل البنى التشريحية بين القرد والإنسان: فنحن نتأكد من ميلاد الإنسان، فقط عندما نجد بجوار هذه الهياكل العظمية ـ التى ترجع إلى ما قبل التاريخ ـ أدوات وقبورا.

هنا بالضبط يقع ميلاد الإنسان.

لقد لاحظ ماركس الاختلاف الأساسى بين التطور البيولوچى وبين تاريخ الإنسان: لقد خضعت الحيوانات للتطور البيولوچى حين

أبقت على الغرائز ، فى حين أن الإنسان صنع التاريخ حين طور أدواته وغير بيئته .

يستطيع القرد ـ بلا شك ـ أن يكسر غصنًا أو أن يلتقط حجراً ، ليدافع عن نفسه ، ولكنه يستغنى عنهما بمجرد أن يزول الخطر . أما الإنسان ، فهو يشذب العصا أو ينحت الصوان ، ويحتفظ بهما كوسيلة لإنجاز مئات المهام فيما بعد .

لقد كان فى استعادة الإنسان لهذه الوسائل ـ لأغراض متعددة ـ شكل أولى من أشكال التجريد لفعل الدفاع أو النحت أو البناء .

أما القبر ، فهو يقدم لنا شاهداً آخر على هذا التجريد ؛ إذ لم تُترك جثة الإنسان فى العراء لتفسد أو لتلتهمها الأنواع الأخرى من الحيوانات . فعملية حفر الأرض وتغطية جثة الميت ، أو ترتيب الحجارة لحماية الجثة ، أو فى أحيان كثيرة دفن الجثة مصحوبة بأسلحتها وأدواتها وطعامها : كل هذا يؤكد أن الموت بالنسبة للإنسان لا يعنى نهاية الحياة البيولوچية ، وإنما هو بالأحرى ممرّ إلى شكل آخر من أشكال الوجود . إن أول إنسان نظم هذا الاحتفال بشكل يتجاوز الحياة الحيوانية ، طرح على الأقل على نفسه تساؤلاً عن المستقبل ، حتى وإن كان هذا المستقبل غامضًا .

وسوف تقدم الأسطورة تعبيراً عن هذا التجاوز . فالأسطورة هى ميلاد للمعنى بمنأى عن الحدث . إنها إرهاص للتعالى ، لتجاوز الواقع الملاحظ والمعيش ببساطة ، من أجل تفسير الأصل أو تشكيل الغايات .

هذا هو الإنسان ، كبيراً منذ البدء حتى لا يكتفى بذاته . فهو يعكس نفسه فى مرايا أبطال تتجاوزه حتى يمهد الطريق لإنجازاته الكبرى

الآتيــة : پرومــوثيــوس يختــرع النار والـفنون ، وبالنسبــة للصـينيين يتـحـكم الإمـبـراطور الملحـمـى العظيم يو Yu فى السـيـول ويختـرع نظامًا لتوزيع الماء .

هذه الأساطير ليست تشكيلات بدائية للتصورات المجردة ، وإنما هى مساهمات فى تجاوز هذه التصورات ، إذ إنها لا تكتفى ـ شأن كل تصور ـ بتجزىء الواقع ، ، إنما تتجاوز ذلك إلى الإرهاص بالمستقبل .

* * *

الأسطورة

إن نقطة انطلاق التعليم ، هو هذا الفعل المبدع للإنسان .

وهو أيضًا نقطة الوصـول : أن نصنع من كل إنسـان إنسـانًا ، أى مبدعًا ، شاعرًا .

كـيف يمكن إذن وضع الإبداع الفنى فى مـسـيـرة تطور العـمـل الإنسانى ، أو فى المسيرة المستمرة لإبداع الإنسان للإنسان؟

كيف تكون الأسطورة أحد مكونات الفعل من أجل تغيير العالم؟

إذا كانت الأسطورة هى لغة التعالى ، فهـذا التعالى لا يمكن تـوقعه من الخـارج أو من مـوقع سلطة : فليس هناك تعـال من أعلى ، أى من قبل إله ، ولا تعالٍ من أسفل ، أى من قبل طبيعة معطاة كاملة التمام .

والأسـطورة عنـد ماركـس ، ليسـت ـ كما هـو الحال عند فرويـد ـ ترجمـة وإن تكن متسامية للرغبة الغريزيـة ، وإنما هى لحظة عمل .

وهناك فارق أساسى بين الاثنين ، فالرغبة هى امتداد للطبيعة ، فى حين أن العمل يتعالى بالطبيعة .

أن يصبح العمل هو رحم الأسطورة، كما أصبحت الثقافة هي المقابل للطبيعة - في مقام آخر -، فإن هذا يسمح لنا بأن نضع خطًا فارقا بين الرمز في الحلم وبين الرمز في الأسطورة، الأول تعبير أو ترجمة للرغبة، أما الثاني فهو لحظة في إبداع الإنسان المستمر للإنسان من خلال شكل: شعري، نبوئي، مجاهد، ولكنه دائمًا إبداع مستقبلي.

هكذا، نتجنب الخلط بين الأسطورة بمعناها الحقيقي، وبين ماندعوه خطأ بالأسطورة: فإذا كانت الأسطورة هي لحظة العمل التي تأكد من خلالها ظهور الإنسان كمعيار جديد للوجود، أي كفاعلية للمستقبل، فإننا لا نستطيع أن نطلق لفظ أسطورة على ما هو مجرد استمرار بسيط للماضي، ذلك لأن الأسطورة تفوق العقل الكسول، بما تنطوي عليه من الحكايات الرمزية والحكايات الخرافية التي تتعلق بالبحث عن الأسباب. فأي خير فيما هو إعادة إنتاج بسيطة أو تثبيت للحاضر عن طريق صورة تصبح نمطًا تقليديًا للسلوك؟ مثلها مثل النمط الاجتماعي الذي يتضاعف بفعل الدعاية أو الإعلان، وهو وهم واغتراب. إذ ينزع، لا إلى ترقية التاريخ، بل على العكس، إلى إيقاف التاريخ. وذلك لأنه يكون مجرد وجه للرغبة، ويدفع الإنسان للدوران حول نفسه في دائرة الغريزة المغلقة. الأمثلة على هذا النموذج النمطي عديدة، بدءًا من الدعاية الهتلرية العنصرية، أو استخدام الجنس كوسيلة للدعاية، وحتى انتشار البديل المتدهور للبطل الأسطوري والذي يتمثل في النجم، ذلك الذي يمنح الشباب الوهم التعويضي عن حياة مغتربة، حياة مزيفة نتيجة لتضخم الأسطورة: فديانا Diana تحل محل الإلهة بيرينيس Bérénice، ومادونا Madonna تحل محل أفروديت Aphrodite .

هنـــاك أساطـــيـــر لا تفيدنـــا بـشيء، أو بالأخـــــرى تستعـبدنـــا، فـهى لا تصل بنا إلى أى اتجـاه . وهناك أسـاطيـر أخرى توجـهنا نحـو المركزالخلاق فى أنفسنا، وتفتح لنا آفاقًا جديدة، وتسـاعدنا دائمًا على تجاوز حدودنا. هناك أساطير مغلقة، وأخرى مفتوحة هى وحدها ــ فى الحقيقة ــ الأساطير الأصيلة.

سـوف نحـفظ اسم الأسطورة لكل سـرد رمـزى يُذكِّـر الإنسـان بحقيقته ككائن مبدع ، ويُعرِّفه بما يبتكره فى المستقبل ، لا بما يشده إلى ماضى النوع من غريزة ورغبة .

مثل هذه الأساطير ليست بالضرورة نتاج عقلية بدائية .

إنهـا تنطوى على انتزاع مزدوج ممـا هو معطى لنا : أى من الطبيـعة الخـارجيـة ، ومن طبيـعتنا الخـاصـة . إنهـا عودة إلى مـاهو أسـاسي : الإنسـان الذى ينتصب على قـدميـه ، ويستطيع أن يقـول : "لا" فى مواجهة ماهو معطى له بوصفه الواقع .

كـان ماركس يدعونـا إلى تفسير هذا الإعجاب الدائم بالأسـاطير الكبرى على مر القرون ، بوصفها تعبيراً عن طفولة الإنسان التى تتأبى على تعريف الواقع من خـلال ضرورة واحـدة ، ضـرورة النظام السـائد فى الطـبـيـعـة أو المجـتـمع . وسـواء تعلق الأمـر بپـرومـوثيـوس ، أو إيكاروس ، أو أنتيـجون ، أو جلجامش ، فكلهم يواجـهون المستقبل فيما هو أبعد من الممكن .

فى كل أسطورة كبرى ، شعرية كانت أو دينية ، يلتقط الإنسان شيئًا من تعاليه الخاص فى مواجهة كل ما هو ضرورة معطاة . وذلك انطلاقًا من معيار إنسانى خـالص يتمثل فى العـمل : إنه معيـار وجود المستقبل كخميرة فى الحاضر .

إن أهم ما يميز الأساطير الكبرى «كانفتاح نحو التعالى» هو التحكم فى الزمن أكثر مما هو الخروج من الزمن. «الزمن العظيم للأسطورة» يسمح للإنسان بأن يحيا صباح العالم ولحظة الخلق، فلايدرك ذاته كمقتطع من الكون، أو كجزء من نسيج قوانينه فحسب، وإنما يعى ذاته بوصفه قادراً على التعالى بهذا الكون، والتدخل فيه كمبدع، أيضًا.

پروموثيوس أو أنتيجون، مثلهم مثل أنبياء إسرائيل، أو مثل القصص الإنجيلية، يقولون لنا إن ثمة خروجا ممكنا. «إننى أستطيع أن أعيد حياتي، وأن أغير العالم». هذا هو أعظم ما فى قدرة الأسطورة على إثارة التساؤل.

لقد جاء المسيح ليبشر كل واحد منا بأن الحاضر ليس هو حلقة الوصل الضرورية بين الماضى والمستقبل فى مسيرة القدر. ولكن «الحاضر هو زمن اتخاذ القرار»، والتعالى هو إمكانية البدء المطلق.

التعالى ليس صفة الله فحسب، ولكنه شرط الإنسان. والأسطورة هى تذكرة بهذا التعالى، ونداء موجه للإنسان ليمارس قدرته على المبادرة التاريخية.

لقد ولد معنى التاريخ مع الإنسان الأول، مع العمل الأول، مع المشروع الأول. هذا المعنى يزداد ثراءً بفعل كل مشروعات البشر، وسيظل دوما مهمة ينبغى إنجازها وإبداعها.

فالأسطورة إذن ليست تكنيكًا للخروج من التاريخ، بل على العكس هى تذكرة بما هو تاريخى فعلاً.

إن البطل الأسطورى هو ذلك الذى يدرك أن ثمة سؤالا مطروحا على الإنسان بمقتضى ظرف تاريخى ما، وهو الذى يستطيع أن

يكشف ـ من خلال هذا الظرف ـ عن المعنى الإنساني، أى أن يتجاوز الظرف التاريخي. وعلى هذا النحو يوقظ انتصار أو فشل البطل لدينا حس المسئولية إزاء مشكلات عصرنا.

ليس من الممكن أن نقول مثلما قال فرويد في كتابه «الطوطم والتابو»: إن الأسطورة بالنسبة للجماعة مثلها مثل الحلم بالنسبة للفرد. فالحلم ليس إلا ترجمة لواقع سابق الوجود، والأسطورة نداء لتجاوز حدودنا. الأسطورة ـ في الواقع ـ يصدق عليها ما قاله بودلير Baudelaire عن أعمال الرسام دولوكروا Delacroix: «إنها تعليم للعظمة» (Péliade;1117).

«للعمل» الدورالمكوِّن و الأساسى فى نشأة الأسطورة، التى بدورها تُعَدُّ لحظة من لحظات العمل. وحين يقع العمل الحيوانى ببساطة على خط امتداد الرغبة وحاجات النوع، يصبح أهم ما يتميز به العمل الإنسانى هو انبثاق المشروع، وإبداع نموذج صالح لأن يكون قانونًا للفعل.

إن ما يميز الرمز فى الأسطورة عن الرمز فى الحلم، هو بالتحديد هذا الانبثاق للنموذج. لقد كتب ليڤى شتراوس Lévi-Strauss (*) يقول: «إن هدف الأسطورة هو تقديم نموذج منطقى لتناقض ما». ويضيف: «من الجائز أن نكتشف يومًا أن نفس المنطق هو الذى يعمل فى الفكر الأسطورى والفكر العلمى».

(*) كلود ليڤى شتراوس: عالم أنثروبولوچيا فرنسى (١٩٠٨ بروكسل) وأستاذ فى الكوليج دى فرانس منذ عام ١٩٥٩ ـ هو أول من وضع نظرية التحليل البنائى للأساطير. من أهم أعماله «الأنثروبولوچية البنائية»، «الفكر البدائى».

لقد كان لليفى شتراوس ـ مثله مثل باشلار Bachelard [*] ـ الفضل فى إبراز الوحدة الوظيفية لكل من الأسطورة والفرضية العلمية من خلال فكرة «النموذج» التى تشمل الاثنين.

إن أسطورة هيكتور Hector أو أوديب الملك، مثلها مثل حكايات الآلهة، هى أسئلة عن المعنى، الذى يمكن للإنسان أن يكتشفه أو أن يهبه لحياته. الأسطورة ليست فقط تعبيرا عما هو كائن، ولكنها أيضًا تساؤل عما سيكون، واقتضاء للمضى إلى ما هو أبعد.

فالواقع ليس الطبيعة المعطاة وضروراتها الخاصة فحسب، ولكن الواقع هو طبيعة ثانية يصطنعها الإنسان عن طريق التقنية والفن، والواقع أيضًا هو كل ما لا يوجد بعد، إنه الأفق المتحرك دائما فى إطار الممكن الإنسانى.

و الأسطورة لا يمكن قبولها بوصفها علاقة بالوجود فقط، وإنما بوصفها نداء. فهى لا توحى بالشاهد وإنما بالغائب، بفقد ما، بفراغ ما، وتدعونا لملئه.

هذه الأساطير هى شواهد على الحضور الحيوى الخلاق للإنسان فى عالم دائم التوالد والنمو. وكل عمل فنى كبير هو واحد من هذه الأساطير.

الواقع ليس معطى، ولكنه مهمة ينبغى إنجازها.

(*) باشلار: جاستون باشلار ١٨٨٤ ـ ١٩٦٢ فيلسوف فرنسى تخصص فى الأبستمولوچيا، وله فيها كتاب «الروح العلمى الجديد»، كما قدم تحليلاً وجوديا للمادة فى كتابيه «الماء والأحلام» و«جماليات المكان».

إن الانتقال من المفهوم إلى الرمز يسمح لنا بوضع كل نظام نهائى موضع مساءلة، والوعى ببساطة أنه نظام نهائى بالنسبة للانهائى. يتعلق الأمر هذه المرة بانقلاب لمعنى الكلمة. فقد كان الإنسان موجها ـ فى عنايته بالمعنى أو المفهوم ـ إلى ما تم عمله. أما مع الأسطورة، فهو مأمور بالتوجه إلى ما يجب عمله. فالأسطورة تدعونا لا لأن نكون مجرد مشكلين للأشياء، وحاسبين للعلاقات، ولكن لأن نكون مانحين للمعنى، ومبتكرين للمستقبل. إن الرمز يقتضى منا هذا الانفصال عن الوجود، أو هذا التجاوز للوجود عن طريق استجلاء المعنى والابتكار. هناك مثل بوذى يقول: «عندما يشير الإصبع إلى القمر، فإن الغبى ينظر إلى الإصبع».

إن تعريف الأسطورة كلغة للتعالى، لا يعنىٰ نفى العقل، وإنما يعنى التجاوز الجدلى من داخل عقل واع بتعاليه الدائم على القوانين المؤقتة التى كان قد أرساها من قبل.

إن الميثولوچيا(*) هى انحطاط متعصب للأسطورة، تمامًا مثل النزعة العلمية التى هى انحطاط دوجماطيقى متعصب للعلم. إن الميثولوچيا تطمح للاحتفاظ بحرفية الأسطورة دون روحها، وبمادة الزمن دون دلالته. غير أن أنتيجون Antigone(**) لم تكن لتؤثر فينا

(*) الميثولوچيا: هى العلم الذى يكون موضوعه دراسة الأساطير، وهو يهتم بمجموعة التمثلات الخيالية التى تتعالى بموضوع ما، مثل القيم الخيالية المرتبطة بزىٍّ ما أو بتقاليد معينة، أو بشخص سينمائى، أو نجم فنان.

(**) أنتيجون: هى فى الأسطورة اليونانية ابنة أوديب وجوكاستا. وقد حكم عليها خالها الملك كريون بالدفن حية لأنها خالفت أوامره وأقامت الشعائر الجنائزية اللازمة لأخيها پولينيس الذى عده الخال خائنًا للوطن وغير جدير بإقامة الطقوس الجنائزية عليه.

البتة إن لم تكن تحديا صامدا من أجل إتمام الشعائر الجنائزية لأخيها پولينيس Polynice، كما أن قيامة المسيح لم تكن لتزلزل حياة الناس منذ ألفي عام، لو كان الأمر يتعلق بمشكلة فسيولوچية خاصة بالخلية، أو بحالة إنعاش.

الأسطورة في تحررها من الميثولوچيا تبدأ من حيث ينتهي المفهوم. بعبارة أخرى، تبدأ الأسطورة من معرفة الفعل الخلاق لا من معرفة الوجود المعطى. فالأسطورة ليست انعكاسًا للوجود، ولكنها هدف للفعل. وعلى هذا النحو لا تعبر الأسطورة عن نفسها من خلال مفاهيم ولكن من خلال الرموز.

الأسطورة هي الفعل الخلاق منظورا إليه من داخله، من خلال النوايا التي تحركه. وليس الهدف من هذه المعرفة - أو بالأحرى هذا المستوى من المعرفة - الوصول إلى ما هو عالمي، ولكن إلى ما هو شخصي ومعيش. فالأسطورة تعطي معنى للإبداع وتحفز الفعل المبدع. إنها نداء، إنها أفعال، إنها شخصيات: فهاملت Hamlet، وآرچونة Arjuna، وفاوست Faust لا يمكن اختزالهم في مفاهيم، ولكنهم شخصيات تعبر عن نفسها من خلال أسلوب السلوك الشخصي لكل منهم، حين يجددون نشاط المبادرة التاريخية لدى البطل.

تقع الأسطورة إذن - في معناها الأعلى - عند حدود المعرفة الشعرية(*) والقرار الحر المسئول للإنسان. عند هذا المستوى فقط، أي

(*) الشعرية ترجمة عربية لمصطلح Poetique: ولفظ البويطيقا يرجع إلى أرسطو، ويقصد به قوانين صناعة الشعر، وقد استخدم اللفظ في النقد الأدبي الحديث عند الشكليين الروس ومن بعدهم بمعنى العناصر والأنساق التي تحدد أدبية النصوص، أي ما يجعل النص أدبًا وليس كلاما عاديا أو كلاما علميا.

مستوى الإمساك بالفعل الخلاق المختار، نستطيع أن نؤسس وأن نكتشف معنى الحياة والتاريخ. لأننا لا نكتشف هذا المعنى كمن ينظر من على قمة الجبل إلى منظر طبيعي فحسب: إنما نتلقاه من خلال المعرفة ونشكله من خلال الفعل. إننا نحياه فى الأسطورة كمعرفة وكمسئولية للمضى قدمًا. والمسافة التى نقطعها لمعرفة التاريخ الماضى كمنظر عريض وشامل، تسمح لنا بإدراك ما فى الأسطورة من دلالة النمو، والمشاركة بشكل عملى ومكافح فى تحقيق هذه الدلالة. فالأسطورة تتجلى كنظام مزدوج من الانسجام والإيعاز.

* * *

هذه التذكرة بما يميز الإنسان عن الحيوان، ويميز الأسطورة عن المفهوم أو التصور المجرد، هى طريقة تفكير ضرورية، ودرس تمهيدى لكل محاولة لفهم ما هو التعليم. بهذه التذكرة نضع خطًا موجهًا ومجددًا للتعليم يتمثل فى التساؤل عن الغايات، وعن معنى الحياة الإنسانية الخالصة، وعن دور الفن كدعوة للفعل الخلاق.

* * *

إن التغير الجذرى السريع - بصفة استثنائية - للعالم فى القرن العشرين يشبه التغير الذى لاقاه رجل فى سنى (٨٥ عامًا) ولد فى غمرة التاريخ الإنسانى، ذلك أنه قد حدث فى هذا القرن من التجديدات والتغييرات أكثر مما حدث على مدى ستة آلاف عام من التاريخ المكتوب.

ولن نذكر فى هذا الصدد إلا الاكتشافات الثلاثة الرئيسية التى هيأت الظروف للنهضة الغربية فى القرن السادس عشر:

أولاً: اكتشاف الطباعة بالحروف المتحركة في القرن السادس عشر، (تلك الحروف التى لم يخترعها جوتنبرج Gutenberg، وإنما اخترعها الصينيون فى القرن الأول من التاريخ)، مما أدى إلى ديمقراطية الثقافة.

ثانيًا: اختراع البوصلة الذى سمح بالإبحار فى البحار العليا، وربط البشر فى جميع أنحاء العالم بعضهم ببعض.

ثالثًا: البارود (الذى اخترعه الصينيون، كما اخترعوا الورق والطباعة والبوصلة من قبل، ونقل العرب هذه المخترعات إلى أوروپا) وكانت أداة أوروپا لفرض هيمنتها على العالم. ومن الواضح أن هذه الاختراعات مكنت القرن العشرين من إحراز تطور جذرى.

لقد سمح الورق والمطبعة للنخبة - حتى هذه الآونة - بابتكار النزعة الإنسانية فى القرن السادس عشر. كما سمحا بتحقق ثقافة الأقلية فى القرن التاسع عشر (فموسوعة ديدرو Diderot[*] مثلاً طبع منها ١٥٠٠ نسخة). أما فى نهاية القرن العشرين، فيطبع من رواية حائزة على جائزة ما، مئات الآلاف من النسخ، ويوزع من إسطوانة ما عدة ملايين من النسخ، ويصل التلفزيون إلى عدة مليارات من المشاهدين. فالاتصال - سواء أكان بغرض الإعلام أواحتكار العقول - لا يقارن بأى حال من الأحوال فى نهاية هذا القرن بما كان عليه فى بداية القرن.

(*) ديدرو: (١٧١٣ - ١٧٨٤) كاتب وفيلسوف فرنسى من رموز عصر التنوير. كان مسئولاً عن تحرير موسوعة لعلوم عصره. وكان يراهن على التقدم العلمى.

نفس الشيء يمكن أن نقوله بالنسبة لتنقلات البشر، وانتقال الأفكار: فيوليوس قيصر ونابليون، على ما يفصل بينهما من ٢٠٠٠ عام، كانا يستغرقان نفس الزمن للذهاب من روما إلى باريس (على ظهر الحصان).

وقد حلقت طائرة رايت Wrigt فى أول رحلة لها عام ١٩٠٣ لمسافة عدة مئات من الأمتار. فى حين أن الطائرة ـ فى عام ١٩٩٧ ـ يمكن لها أن تقوم بدورة حول العالم بدون توقف فى مدة أقل من يومين. وفى عام ١٩٩٧ أيضًا يمكن لمحطة فضائية أن تقوم بعدة دورات حول الأرض فى بضع ساعات، ويمكن لها أن تحمل إنسانًا إلى القمر.

أما بالنسبة لوسائل الدمار، فإن مدفع ووترلو Waterloo، لم يكن مداه يتجاوز كثيرا المدى الذى كانت تصل إليه المقذوفات النارية فى بيزنطة فى القرن الثامن. أما چنكيز خان، فكان يلزمه عشرة أيام ليقيم فى أصفهان هرما مكونا من عشرة آلاف جمجمة. وفى عام ١٩٤٤ أدى قذف جوى بالفوسفور إلى تدمير حوالى ١٣٠ ألف من سكان مدينة دريسدن Dresden فى ألمانيا، واستطاعت القنبلة النووية أن تدمر هيروشيما فى عدة ثوان. وفى نهاية هذا القرن نجد مخزونا هائلا من القنابل النووية ذات فعالية أكبر من قنبلة هيروشيما.

* * *

مثل هذا التطور الجذرى يقتضى منا أن نعيد التفكير بطريقة جذرية فى مشكلات التعليم سواء فى ذلك محتوى التعليم أو أبنية نظام التثقيف.

فالملاحظ أن الإصلاحات المزعومة للتعليم منذ القرن التاسع عشر وحتى القرن العشرين هى عبارة عن ترميمات ونزاعات لانهائية حول مدى الجرعة المدرسية من الكلاسيكيات (اليونانى واللاتينى) ومن المواد الحديثة (الرياضيات ثم الحاسوب). أوحول الهيكل الوظيفى والمقتضيات المهنية للمعلمين.

غير أن السؤال الرئيسى لم يطرح البتة: ألا وهو الاستفهام عن غايات التعليم. فى حين أن هذا وحده هو الذى يسمح بتوجيه المحتوى والأبنية التعليمية معًا. فى المجال التعليمى كسائر مجالات الحياة الاجتماعية، تم تغليب مبدإ الحتمية على مبدإ التعالى.

لقد كانت «الحتمية» déterminisme التعليمية ـ ومنذ قرون ـ هدفًا يجعل من التعليم منهجًا لإعادة إنتاج النظام القائم. ففى العصور الوسطى، كان التعليم مؤسسًا على نظام الفئات: بالنسبة للنبلاء، هناك تعليم للفرسان لتكوين محاربين وقادة. بالنسبة للكنيسة، هناك إعداد للرهبان الذين سيصبحون قساوسة وقضاة أو أحيانًا رجال دولة. وكان المهنى يعلم العمال ليصبحوا زملاء له أو أساتذة مهنيين فيما بعد. أما الفلاح ـ الذى كان منعزلاً فى إطاره العائلى والمحلى ـ فقد كان مقدراً له خدمة سيد القرية، الذى كان يقدم له بدوره الحد الأدنى من التعليم الدينى ليضمن خضوعه له.

وقد شكلت الثورة الفرنسية ـ بلا شك ـ انقطاعة مع هذا النوع من التعليم. فقد لزمها ـ منذ البدء ـ تنظيم عملية إحلال التمايزات الجديدة ـ التى أحدثها تدفق الأموال الناتج عن تطور الصناعة ـ محل المراتب القديمة للنبلاء.

وهكذا ارتفعت قيمة التعليم والأهمية الاجتماعية للعلوم والتكنيك فى كتابات كوندورسيه Condorcet[*] ولاكانال Lakanal[**] وهو ما نجد شاهداً عليه فى إنشاء المدارس المركزية فى العام الثالث للثورة الفرنسية Les Ecoles Centrales de l'an III .

كان يلزم أيضًا إعداد الكوادر وفرق النظام الصناعى الجديد، وتهيئة الأطفال للوظائف الاجتماعية والمهنية الجديدة، بل ومحاولة إحلال دين جديد ـ يكون عامل انسجام وطنى ـ محل الدين الكاثوليكى التقليدى. لقد انطلق التقرير المقدم إلى الجمعية الوطنية الفرنسية من هذا التعريف الموسوعى (الذى كان قد أقره من قبل ديدرو): «يتمثل فن التعليم فى تقديم كل المعارف الإنسانية فى إطار نظام عام».

* * *

لقد قامت الحضارة الغربية ـ التى تدعى أنها حضارة استثنائية ـ منذ عصر النهضة، على ثلاث مسلمات كانت قد أثمرت ثمارها الكبرى ـ بصفة خاصة ـ على يد الفلسفة الإنجليزية، والفلسفة الفرنسية، والفلسفة الألمانية.

(*) كوندورسيه: فيلسوف وعالم رياضيات فرنسى (١٧٩٩ ـ ١٨٤٣)، وهو من كتّاب الموسوعة الفرنسية. قبض عليه فى أثناء الثورة الفرنسية بحسبانه منتميا لجناح چيروند المعتدل. كتب فى السجن كتابه الشهير: «مخطط لتقدم العقل الإنسانى» الذى ذهب فيه إلى أن هناك تقدما مطردا للعلم سوف يؤدى إلى تقدم مماثل فى الأخلاق. حكم عليه بالإعدام، فتجرّع السم ليفلت من المقصلة.

(**) لاكانال: سياسى فرنسى (١٧٦٢ ـ ١٨٤٥) أدّى دوراً كبيراً فى رسم سياسة الثورة الفرنسية فى التعليم وتنظيم المدارس.

فعلى الرغم من نزوع هذه الفلسفات إلى العالمية، وانفصالها عما هو محلى، فإن كل واحدة منها هى ـ تاريخيا ـ مرتبطة بتجربة خاصة لنمو الطبقة البورجوازية القومية فى كل بلد على حدة.

إن من نطلق عليهم الفلاسفة الإنجليز، يرتبطون جميعا بمرحلة نمو الليبرالية الاقتصادية التى سمحت بالتوسع الاستعمارى لشركة الهند الشرقية، ومعظم هؤلاء الفلاسفة، بل أكثرهم أهمية كانوا موظفين أو مثقفين عضويين (بحسب تعبير جرامشى Gramsci (*)).

أما المدرسة الفلسفية الفرنسية ـ التى كان ديكارت Descartes الأب الروحى لها ـ فقد ارتبطت بشدة بنمو الثورة الصناعية، فقد كانت الآلية الديكارتية هى المحرك لهذه الثورة. كما كان فلاسفة التنوير هم الورثة الأكثر تشددا لهذا النظام. كما واءمت الثورة الفرنسية بين العلاقات السياسية والسلطات الاقتصادية الجديدة. فأصبحت سيادة البورجوازية حقا مكتسبا من خلال الثورة الفرنسية. وتمت هيكلتها بانتظام منذ نابليون. لكنها أصبحت موضع تساؤل ـ إلى حين ـ فى عصر الإصلاح. ولم تجد البورجوازية قوتها إلا فى إطار وضعية أوجست كونت August Comte (**)، الذى تمسك باستقرار هذا النظام ضد أى انبثاق للنظام القديم أو للدين، بل أيضا ضد كل محاولة لتجاوز الوضع القائم.

(*) جرامشى (١٨٩١ ـ ١٩٣٧)، فيلسوف ورجل سياسة إيطالى، ساهم فى تشكيل الحزب الشيوعى الإيطالى عام ١٩٢١ وقد أسلمه الحكم الفاشى فى إيطاليا إلى الموت بعد حكم بالسجن لمدة عشرين عامًا.

(**) أوجست كونت: ١٧٩٨ ـ ١٨٥٧. فيلسوف فرنسى، مؤسس المدرسة الوضعية. وكان يؤمن بأنه ما من شىء مطلق. ولكنه دعا فى أواخر حياته إلى دين جديد للإنسانية جمعاء.

لقد ظل التيار الوضعي تيارا مباطنا لمفهوم العالم لدى الكثيرين من علماء الطبيعة والبيولوچيا حتى القرن العشرين، ونضرب مثلاً على ذلك بكتاب چاك مونو Jacques Monod(*) «المصادفة والضرورة» Le Hasard et la Nécessité.

إن السرعة المتزايدة لنمو التاريخ، بالإضافة إلى المشكلات الجديدة التي تطرح نفسها بشكل جذري، تقتضي منا تحويلاً جذريا للتعليم: غاياته وأبنيته.

غير أن مسار التعليم القومي كان يمضي من تعديل رديء إلى تعديل أردأ، ومن إصلاح إلى آخر، منذ چول فري Jules ferry(**) وحتى وزراء التعليم الحاليين.

لقد كان كل من پانتجرول Pantagruel وإميل Emile، أبطال معظم البحوث الفلسفية حول التعليم (العلم بدون ضمير ليس إلا انهياراً للروح). ولكن ما من مؤسسة تعليمية كانت على استعداد لقبولهما. كما كان تلاميذ كل من ألكوفريباس Maitre Al-cofribas وروسو Rousseau غير مرغوب فيهم بالنسبة لمدارسنا، لأنهم يلحون في التساؤل عن غايات التعليم، وهو ليس حال هذه المدارس.

(*) چاك مونو: (١٩١٠ ـ ١٩٧٦) طبيب وبيولوچي فرنسي. حصل على جائزة نوبل عام ١٩٦٥، وكان مديراً لمعهد پاستير حتى وفاته. وهو يضع في كتابه «المصادفة والضرورة» الأسس الفلسفية للاكتشافات البيولوچية الحديثة.

(**) چول فري: (١٨٣٢ ـ ١٨٩٣) محام ورجل سياسة، تولى عملية إصلاح التعليم في فرنسا في بداية الجمهورية الثالثة (١٨٧١) وأرسى مبدأ التعليم العلماني والإلزامي والمجاني للجميع. وكان من أشد المتحمسين لسياسة فرنسا الاستعمارية.

هذه القضية وحدها كان من الممكن أن تعطى معنى للحياة ولانسجام المجتمع من خلال هدف عظيم ومشروع كبير مشترك.

وطيلة القرن العشرين، كان ثمة بحث عن البديل لهذه الغائية، وهو العلمانية.

وعلى الرغم من الامتياز المبدئى لفكرة الفصل بين الكنيسة والدولة(*)، فإنه سرعان ما تم خلط هذا المبدإ ـ لا باحترام تدين أو عدم تدين المرء ـ وإنما بفكرة استبعاد جوهر العقيدة الدينية نفسه، أى استبعاد التساؤل عن الغايات النهائية للحياة الشخصية والاجتماعية للفرد.

وهكذا لم يساهم هذا الدين الجمهورى الجديد فى خلق الائتلاف، بل بث التنافر بين أفراد الأمة، سواء تعلق الأمر فى هذا الصدد بمعارضة هذا الدين الجديد للمدارس الحرة (أى المدارس الطائفية

(*) كانت أوروبا خاضعة تمامًا لسلطة الكنيسة الكاثوليكية التى انفردت بالتواطؤ مع الملوك وبالإشراف على التعليم الذى كان دينيًا بحتًا، كما كان للبابوات سلطان هائل على تسيير أمور البلاد بما لهم من قداسة وعظمة، كما ضمت الكنيسة العديد من أراضى الدولة إلى ملكيتها الخاصة.
وقد ضعف نفوذ الكنيسة منذ القرن السادس عشر نتيجة لحركة الإصلاح الدينى التى تزعمها مارتن لوثر فى ألمانيا، ولتصاعد الطبقة البورجوازية المضادة لطبقة النبلاء من الإقطاعيين الذين كانت الكنيسة تحميهم. وقد توجت هذه الجهود الثائرة على التسلط الكنسى بالثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، والتى عملت على فصل الكنيسة عن الدولة، وحرمان الكنيسة من قوتها وثروتها، فقد قدرت الأراضى التى تملكها الكنيسة فى فرنسا وحدها فى ذلك العهد بما يزيد على ثلاثة بلايين فرنك، كما جعلت من رجال الدين مجرد موظفين فى الدولة. وعلى ألا تتدخل الكنيسة فى تعيين الأباطرة أو حرمانهم من الحكم وألا تتدخل فى التعليم. وفى عام ١٩٠٤ أصبح هذا الفصل قانونًا رسميًا فى الجمهورية الفرنسية.

بصفة عامة) أو الكاثوليكية بصفة خاصة، أو حتى المنازعات العنصرية الخاصة بحجاب بعض الفتيات المسلمات. تلك القضية التى شن فيها التطرف العلمانى (وليست العلمانية) هجوما دعائيّا ضد التطرف الإسلامى (وليس الإسلام). هذا على الرغم من أن هذا الاستنكار لم يشمل الصلبان المسيحية أو غطاء الرأس اليهودى الذى يرتديه الطلاب. فى هذا الهجوم البشع ضد ٤٢ فتاة بدا حجابهن مهددا للجمهورية!!

انقاد الكثيرون من المعلمين السذج، وكذلك الجمعيات الأهلية، لهذا الهجوم، مثلهم مثل الثورالهائج أمام الرداء الأحمر، لا يفقهون أن العنصرية هنا هى التى كانت تلبس قناع الدفاع عن العلمانية.

غير أن الخصومة بين المدرسة الدينية والمدرسة العلمانية كانت أكثر دواما وأكثر عمقا من هذا .

فى هذا الإطار نستطيع أن نفهم دوافع المؤيدين للمدارس الطائفية (التى تسمى باسم المدرسة الحرة) إزاء تدهور أحوال المدارس العامة، التى تصادر على ما هو أساسى بالنسبة للإنسان، أى على بحثه عن معنى لحياته، ذلك أن هذه المدارس تستبعد كل النصوص التى تطرح هذه القضية فى كل أدبيات التصوف والحكمة عند أنبياء بنى إسرائيل، وآباء الكنيسة، والصوفية المسلمين، والزهاد الهنود. هذه المدارس العامة تترك الناس فى طريق بلا معالم. وتسلمهم إلى نزعة علمية مبرمجة للإنسان، يعتقدون أنهم قد عثروا فى الآلة، كمورد هائل للوسائل، على أداتهم لاستكشاف الغايات. فصار حتميّا إذن، أن يسود اعتقاد بأن هناك مدرسة أخرى يمكن لها أن تملأ هذا الفراغ فى

العالم، الذى لا يعمل فقط بدون إله، ولكنه يعمل بدون إنسان أيضا، إنه عالم اللا معنى.

إن إرادة إرشاد الطفل التائه بين فراغ السماء وفوضى الأرض، إلى بعض العلامات والغايات لهو شىء قيم بالتأكيد.

وهذا الأمر كان من الممكن تنفيذه لو كانت هناك استجابة لنداء الأب يوحنا الثالث والعشرين ومجلس الڤاتيكان الذى قضى بأن تظل مهمة الكنيسة على الطريق الذى افتتحه السيد المسيح، أى أن تكون مهمتها خدمة العالم لا إدارته. فمثل هذا اللقاء الرائع بالعالم كان من الممكن أن يرأب الصدع.

ولكن، بعد قليل، عرفت الكنيسة الكاثوليكية مرحلة من التجمد بإقامة حكم كنسى مطلق، (تجلى بعد محاكمة أصحاب لاهوت التحرير الذين كانوا يترجمون أقوال ونوايا مجلس الڤاتيكان الثانى، وخصوصا دستور جوديوم وسب Gaudium et Spes، إلى أفعال) فى كتاب التعاليم المسيحية لعام ١٩٩٢ والذى يعود بنا إلى مجلس الثلاثين لعام ١٥٥٤(*).

(*) مجلس الثلاثين (١٥٥٤ ـ ١٥٦٣) هو اجتماع للأساقفة وعلماء اللاهوت للكنيسة الكاثوليكية، والذى بمقتضاه وضعت أصول العقيدة المسيحية والكنسية. وقد أعقبه استقرار للڤاتيكان فى عام ١٥٨٨ كأصغر دولة فى العالم يرأسها البابا وتعنى بأمور المسيحيين الكاثوليك.

وقد مر بالڤاتيكان حركتان للإصلاح، الأولى تعرف بالڤاتيكان الأول فى عام ١٨٧٠، والثانية الڤاتيكان الثانى عام ١٩٦٢. وقد أقرت الحركة الثانية بضرورة تجديد علاقة الكنيسة الكاثوليكية بالعالم المعاصر. لكن البابا يوحنا بولس الثانى أصدر حديثًا (عام ١٩٩٢) كتاب التعاليم المسيحية للكنيسة الكاثوليكية، وقد رأى البعض فى هذا الكتاب تشدداً يعود للتقاليد القديمة.

وقد سجل راعى كنيسة متعصب على مدخل كنيسته هذه العبارة : **«هنا سوف تجد الإجابة»**. فى المقابل كتب طفل بالطباشير على باب الكنيسة : **«ولكن أين هو السؤال؟ »**.

وعلى هذا النحو، استطاع أبسط الناس أن يوجهنا إلى المسألة الأساسية : هل الإيمان سؤال أم إجابة؟

ذلك هو العمق الإنسانى (آخرون سيقولون العمق الإلهى، ولكنى أعتقد ـ وبصرف النظر عن هذا التمييز اللغوى البسيط ـ أنه ما من إنسان بدون إله، وما من إله بدون الإنسان، وسوف نحاول تفصيل هذه الفكرة فيما بعد) لمشكلة العلمانية. فالسؤال يطرح دائما بشكل مغلوط، ومن ثم فما من حل له، ذلك أننا نخلط العلمانية بإلحاد الدولة، (كما لو كان للدولة دين)، ونخلط الإيمان بالطاعة للكنيسة (كما لو كانت الكنيسة الكهنوتية هى المملكة المثالية التى يجب على العالم أجمع أن يخضع لها).

ليس ثمة حوار ممكن بين شكلين متوازيين من التطرف، وإن كان هناك حوار فلن يسفر إلا عن تسوية بين مثالين ضالين.

ولا يمكن أن نطرح القضية الأساسية للتعليم بعيدا عن هذه التعارضات الزائفة.

فى هذا الإطار لن نتحدث إلا عن ثلاث مواد : تعليم القراءة، والتاريخ، والفلسفة، ذلك أن كل شىء فى نظامنا التعليمى يجب أن يعاد بناؤه انطلاقا من البدايات والأسس. وتتمثل البدايات فى تعليم القراءة.

* * *

لقد كشف بحث لمنظمة التعاون للتنمية الاقتصادية OCDE النقاب عن أن ربع سكان العالم يعانون من صعوبات جادة فى القراءة والكتابة.

كما أن ملايين البالغين يقفون عند حدود الأمية فى البلاد النامية. كما أظهر بحث للمعهد الوطنى للإحصاء بفرنسا Insee ـ كان قد تم تطبيقه على الشباب ـ أن حوالى ١٠٪ من هذه الشريحة العمرية فى فرنسا يعانون من صعوبات فى القراءة. أى أن مجموع ٣ ملايين و٣ آلاف شخص يعانون من الأمية فى فرنسا (٩٪ من السكان البالغين). ونجد نتائج مشابهة فى بلاد أوروبية أخرى، ففى ألمانيا نجد نفس الرقم: ٣ ملايين أمى، وذلك إذا ما رأينا أن الأمية بحسب تعريف اليونسكو **«فهم لقطعة بسيطة ومختصرة عن وقائع الحياة اليومية مع عجز عن قراءتها وكتابتها»**.

وفى إنجلترا، وطبقًا لبحث منشور من قبل المكتب الوطنى للإحصائيات ONS، نجد ٨,٤ ملايين بريطانى يعانون من هذا المستوى من الأمية، أى واحد ضمن كل خمسة أفراد من البالغين.

كما أن ٢٢ ٪ من البالغين مابين ١٦و٦٥ سنة يعجزون عن مقارنة معلومتين مكتوبتين، أو عن قراءة جريدة، أو عن فهم جدول المواعيد، أو عن ملء بطاقة بيانات.

وتضرب الولايات المتحدة الرقم القياسى فى هذا النوع من الأمية، وفى كل أشكال التدهور التعليمى التى سبق عدها مقارنة بالبلاد التى يقال عنها نامية.

فخارج حدود الجامعات العليا التى تتكلف فيها الأسرة دفع مصروفات للطالب تبلغ من ٢٠ إلى ٣٠ ألف دولار فى العام الواحد، وفيما يخص الجماهير العريضة **«نجد نظام التعليم العام الأمريكى**

متدهورا» كما يخلص إلى ذلك تقرير المتخصصين فى جامعة كولومبيا (The global economy ;1990) . فهناك ٤٠ ٪ من طلاب المدارس الثانوية الأمريكية يعرفون أنهم لا يجيدون القراءة الصحيحة . وهناك ٢٣ مليونا من البالغين (أى ما يقرب من ١٠٪ من السكان) يعانون من الأمية .

إن تدهورالمجتمع الذى تديره قوانين السوق العمياء وحدها ، يعانى بالضرورة من افتقاد للمرتكزات وللمعنى ، مما يؤدى إلى اضطراب المعلمين ، وعدم أهمية المؤسسة المدرسية بالنسبة لقطاعات كبيرة من الشباب ، وسيادة العنف الأعمى فى مجتمع يقوم نظامه على حدة تنافس الكل ضد الكل ، وغياب الشعور بالانتماء لدى ملايين العاطلين عن العمل ، والمطرودين من وظائفهم . فهؤلاء يعانون من الشعور بعدم أهميتهم فى المجتمع ، وافتقادهم لأى منظور للمستقبل أو لأى معنى لهذا المجتمع .

إن درجة التدهور هذه ليست صنيعة النظام التعليمى الحالى، بل هى صنيعة المجتمع الذى يعكسه هذا النظام التعليمى. وهذا يقتضى شيئًا آخر غير إصلاح التعليم، أى غير مجرد التكيف مع الضرورات المستجدة، بما أن هذا المجتمع لا ينتمى إلى أى ضرورة إنسانية، وإنما إلى التغيير الجذرى فحسب.

مثل هذا المجتمع يدعونا إلى تفكير أساسى حول غايات التعليم ، وإلى قلب كامل لمعطيات المشكلة . فدرجة التنافر الاجتماعى التى بلغتها مجتمعات السوق اليوم تستدعى أفكاراً مختلفة فى الأساس ، وهى أن هدف التعليم لا يمكن أن يكون تكيف الإنسان مع الفوضى القائمة ، ولكن على عكس مسار الحتمية الذى ساد لعدة قرون فى نظام التعليم ، لابد أن نوفر للإنسان وسائل للتعالى بالإنسان ، وسائل لابتكار مفهوم جديد للإنسان والمجتمع والعالم .

فالتعليم لا يمكن أن يكون انعكاسا وإنما يكون مشروعًا.

فى هذا الإطار سوف نعرض لثلاثة أمثلة فقط لضرورة التغيير الجذرى للتعليم: تعليم القراءة، التاريخ، الفلسفة.

* * *

كل شىء يبدأ مع القراءة، ومنها يكون الالتزام بأى مفهوم للثقافة. هنا أيضا، إذا كان التاريخ المكتوب للإنسانية يرجع إلى حوالى ستة آلاف عام، فمن الضرورى، أن نفهم - فى البدء - التطور الجذرى الذى أحدثته الكتابة فى مرورها من مرحلة ما قبل التاريخ إلى مرحلة التاريخ المكتوب. تلك المرحلة التى استخدم فيها الإنسان الكلمة والعلامة - لا ليشير عن طريق الصوت إلى خطر يتهدد الجماعة - كما هو حال الحيوانات، التى تصدر أصواتا للإشارة إلى حرب أو فرار أو طيران - وإنما ليبدع مستقبله الخاص.

ففى نهاية الأمر، لا يصنع الإنسان إلا تاريخه الخاص، والكلمة المكتوبة هى أداته لتغيير البيئة والجماعة، ولنقل المعرفة، وللإرهاص للتغيرات الجديدة.

عن تعليم القراءة، لن نتحدث إلا عن الخطوط العريضة، ذلك أن كتاب پاولو فريرى Paolo Freire (*) (١١) يقدم لنا المناهج الأساسية لتحقيق هذا المشروع الكبير:

(*) پاولو فريرى: مفكر معاصر من البرازيل يعمل فى مجال التربية والتعليم، وقد قدم إسهامات مهمة فى مجال التعليم البديل تتميز بالإبداع فى طريقة التعليم، وخصوصًا فى آليات التكيف مع شروط بلدان العالم الثالث. وأهم كتبه فى هذا الصدد كتاب «الفعل الثقافى فى سبيل الحرية» وقد ترجم إلى العربية وصدر عام ١٩٩٥ عن مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان بالقاهرة.

وهو التعليم العملى للحرية، فى هذا المنهج يبدو تعليم القراءة نوعا من الوعى بالواقع (توعية).

أن تتعلم القراءة، فهذا لا يعنى فقط أن تتذكر أو أن تتهجى الكلمات، وإنما يعنى أن تتعلم كيف تفسر الواقع، أى أن تدرك أن الكلمات لا تكشف، وإنما - على العكس - تخفى. إن الطلاب الأميين - فى بداية المرحلة الثانوية - ليسوا أميين لأنهم لا يعرفون كيف يفهمون أو يلخصون نصا يستطيعون فك حروفه فحسب، بل لأنهم حتى لو استطاعوا الفهم والتلخيص، يعجزون عن فك شفرة الكلمات التقليدية، والفطنة إلى التناقضات والفخاخ التى تكمن خلف النص.

أن تعرف القراءة، لايعنى أن تترجم شفاهيا العلامات المكتوبة فى جريدة أو كتاب ما، وإنما أن تجيد قراءة الواقع، وفك شفرات شراك الكلمات، أن تتبصر العالم وتصدعاته، لتغيره.

لم يقبل پاولو فريرى التمييز المبدئى بين المعلمين والمتعلمين، فالتعليم هو أساسا حوار، ومهمة المعلم - فى إطار هذه الدوائر الثقافية - هى الاستماع، والتعرف على مشاغل وحاجات هؤلاء الذين سوف يجرى معهم حوارا تعليميًا.

المهمة الأولى للمعلم هى أن يستمع ويكتشف مع الجماعات - التى يشكل هو نفسه جزءا منها - الكلمات المفتاحية التى يجب على الجميع «فك شفرتها» معا، وذلك دون أن يفصل البتة بين الكلمة وما تمثله. (فمثلاً نجد فى عرض الشرائح المصورة، أن الكلمة تُتبَع بما تمثله)، وعلى المعلم أن يدير الحوار حول ما يضعه كل فرد تحت الكلمة وتحت الصورة من معنى بحسب تجربته المعيشة[١٢].

إن تعلم القراءة، لا يمكن أن يكون مجرد تذكر للعلامات، وإنما وعى بما تعنيه، أى بالواقع الذى تستهدفه، والمشكلات والتناقضات والحركة التى تحفز إليها.

إن الصورة، أو بالأحرى مضاعفة الصور ومقابلاتها وتناقضاتها هو الذى يسمح بتحقيق مثل هذا الوعى، فهذه الصور تقوم بدور منبه للفكر، ولا تلعب مجرد دور تبسيطى توضيحى مثلما نرى فى كتب الأبجديات التعليمية التى تُرسم فيها قطة بجانب كلمة «قطة».

فإذا تعلمتُ مثلاً كلمة «كساء»، فذلك ليس من أجل الوقوف على معناها فى المعجم: «كل ما يستخدم لتغطية الجسد»، ولكن من أجل أن أفكر - بواسطة صدمة الصور - فى الحقيقة الاجتماعية والإنسانية التى يحيلنا إليها اللفظ. سواء أكانت الصور مرسومة أوعبارة عن شرائح مصورة. فهناك البنطلون الواسع للأخ الأكبر، بما عليه من رقع، ومن حزام مصنوع من حبال تمنعه من السقوط على الأرض. وربما يكون هناك بجواره عرض لأزياء الموضة الراقية، وأزياء اجتماعيات مجلة چور دى فرانس Jours de France الأسبوعية، ثمة طرق شتى - إذن - لتغطية الجسد.

فإذا ما كتبت على السبورة «مسكن»، وهو ما يعنى فى قاموس لاروس: «المكان الذى نقيم فيه عادة»، فإن صورة المتسول الذى ينام عند فتحة تفريغ الهواء الساخن فى محطة المترو ليحمى نفسه من البرد، يتلحف صفحات الجرائد، ويستدفئ بها، فهذا هو «المكان الذى يقيم فيه عادة»، والضواحى العشوائية للعاطلين عن العمل، أو المساكن الشعبية التالفة، أو حجرة الصالون فى ڤيلا بحى نويى Neuilly الراقى، وغيرها هى أى مكان آخر «نقيم فيه عادة».

يتعلق الأمر هنا بشيء أكثر من مجرد التعريف، إنه الوعى بالحركة التى يفجرها اللفظ .

هكذا نخرج من مقام التجريد اللفظى، إلى مقام تهيئة الطفل لأن يكون إنسانًا، أى بناء للمستقبل . وإلا ظل ـ وإن تلجلج فى نطق العلامات، وتكرار تعريفات القاموس المجردة ـ أميًا، أى عاجزًا عن تفسير الحياة ومعناها .

إذ إنه يصبح مؤهلاً لأن ينخدع بكل الكلمات المشبعة بالتجريد .

فالطفل الذى يتعلم بهذه الطريقة سوف يقرأ دون أن يرتجف أمام المادة الخاصة بالمساواة فى الحقوق فى الإعلان العالمى لحقوق الإنسان لعام ١٩٤٨ . أكثر من ذلك، سوف تبدو له هذه المساواة أمام القانون أكيدة . فكما هو محظور على العاطل عن العمل كما على المليونير أن يسرق رغيفا، كذلك من المسموح أن يشيد الواحد منهما أو الآخر استراحة له فى كان Cannes أو ميجيف Mégéve .

هذه المساواة غير المدانة أمام القانون، هى أساس كل نظام ديمقراطى .

فى كل مستويات التعليم، من بدايات تعليم القراءة وحتى تعليم الفلسفة أومدرسة الإدارة العليا ENA، كانت الوظيفة الأولى للتعليم هى تطويع الفرد للفوضى القائمة، أى تشكيله كذات هى قطب للملكية وللسلطة من جهة، وإخضاعه للقبول بالأمر الواقع «هكذا هو الحال، يجب أن تتكيف معه»، من جهة ثانية .

هذا هو السر الأكبر للفكر الأحادي، أى لما لا يتفكر فيه، للخضوع للموجود، وللذى مازال يعنى فى قاموس لاروس فى تجريد تام «كل ما يوجد» .

أن تعرف القراءة، فهذا لا يعنى أنك تستطيع فقط أن تقرأ الكلمات والعبارات، وإنما يعنى أيضا أنك تستطيع أن تقرأ العالم الواقع بكل تناقضاته ومقتضيات تغييره.

إنى أتحدث هنا بالضبط عن الوضع العكسى لما أسماه پاولو فريرى «بالأمية البنكية» (نسبة إلى بنك المعلومات)، والتى تتمثل فى التذكر وتراكم المعلومات التى يتكفل التعليم بتخزينها لدى المتعلمين، دون الاهتمام بالحاجات الخاصة لهؤلاء المتعلمين.

وهكذا، ومنذ الانطلاقة الأولى للتعليم، نجد مفهومًا منحرفًا للثقافة وللنظام الاجتماعى معًا.

يجب أن يتيح التعليم للجميع وسيلة للتفكير فى الوقائع، وتحقيق هذه الأفكار.

فى حين أن كل شيء فى التعليم الحالى يغرق الطفل فى عالم غير واقعى، ويرسخ فى ذهنه أيديولوچيا مبررة للسلطات.

فإذا ما بدأنا بالتاريخ، الذى قال عنه پول ڤاليرى Paul Valéry(*)، فى صفحات تنبئية، فى كتابه «نظرات على العالم الحالى»، وهو يقارن بين مختلف الكتب المدرسية فى أوروپا: « **الظاهر أن أوروپا تطمح لأن تحكمها هيئة أمريكية، فكل سياستها تسير فى هذا الاتجاه**». (Ed. Péliade; p 930)، (لقد كتب هذا الكتاب فى عام

(*) پول ڤاليرى: (١٨٧١ - ١٩٤٥) كاتب فرنسى يتمتع بفكر لامع في مجال المعرفة. كتب الشعر والنثر والمقال. وكان مهتمًا بقضايا عصره وبالمثقف وآليات تكوينه وقدراته، والكتاب المذكور صدر عام ١٩٣٨، وهو من أهم كتبه فى هذا الصدد.

١٩٣٨ ، أى عشر سنوات قبل خطة مارشال (Marshal Plan)، ومنذ أكثر من نصف قرن قبل معاهدة ماستريخت (Maastricht) .

وبعد عدة صفحات يقول پول ڤاليرى، ملخصا : **«التاريخ هو النتاج الأكثر خطرا للكيمياء، إنه يسلمنا للحلم، إنه يخدر الشعوب، يجلب لها الذكريات المزيفة، ويقودها إلى هذيان العظمة أو الاضطهاد. إن التاريخ يبرر ما يريده، لأنه يحتوى على كل شيء، ويقدم أمثلة لكل شيء، وفي الوضع الحالي للعالم** (كنا فى عام ١٩٣٨ عند كتابة هذا النص ، أى قبل عام من حدوث الحرب العالمية الثانية ، ذلك أن الحرب العالمية الأولى لم تعلمنا شيئًا)**صارت غواية التاريخ أكبر مما كانت عليه فى أى فترة مضت»** .

وبعد عشرين عامًا ، وبما أن تجربة الحرب العالمية الثانية قد أثبتت الرأى المخيف لڤاليرى ، نجد كينيث بولدينج Kenneth Boulding يقول بشكل أكثر صراحة : **«إن الدولة هى اختراع المؤرخين»** .

[Journal of conflict resolution III 1959; p122]

وقد كتب من قبل ، هنرى پيران Henri Pirenne وهو من المتخصصين فى هذه المادة ، فى عام ١٩٢٣ ، يقول : **«إن المؤرخين يتعاملون مع الدولة كما يتعامل المهندسون المعماريون مع زبائنهم، إنهم يصنعون لهم تاريخا صالحا للسكنى»** (عن المنهج المقارن للتاريخ) (De la méthode comparative de l'histoire) .

وفى هذا المقام سوف نذكر مثالين فقط على هذه المركزية الأوروپية التى تنفى وجود ـ أو على الأقل قيمة ـ الآخر وثقافته :

أولاً: دور التاريخ المدرسى فى اختراع الأساطير المؤسسة للانسجام القومى .

ثانيًا: الاحتقار الاستعماري وما بعد الاستعماري Post-colonialist لقيم الآخر، الذى لا نتعلم منه شيئًا عن طريق الحوار بين الثقافات .

(أ) إضفاء الطابع الأسطورى على فكرة الدولة:

فى البدء نجد إضفاءً للطابع الأسطورى على فكرة الدولة . مثلاً فى دولة فرنسا الخالدة ، تلك التى أعيد بناؤها بطريقة لاتراعى التاريخ ، وإنما بأثر رجعى ، تم فيه إسقاط فرنسا الحالية على الماضى ، كما تم تشكيل شخصية فاعلة للشعب الفرنسى موجهة نحو هدف بعينه ، حتى قبل أن يوجد مثل هذا الشعب ، وعلى الرغم من الأصل الأسطورى الذى نعزوه إليه .

لقد وجدت بلادنا منذ الأزل ـ أو ربما كانت سابقة على الوجود ـ على النحو الذى هى عليه فى واقعها الحالى . إذ أصبح تاريخ فرنسا بالنسبة للمؤرخ لافيس Lavisse(*) ، مثله مثل المؤرخ ميشليه Michelet(**) من قبل ، قالبا لصناعة الأسطورة ، وذلك على الرغم من التقدم الهائل لمدارس التاريخ التى لم تفلح فى تحطيم هذا القالب تماما .

(*) إرنست لافيس مؤرخ فرنسى (١٨٤٢ ـ ١٩٢٢) ، وكان رائدً فى تجديد مناهج التحليل التاريخى . من أهم كتبه «التاريخ العام منذ القرن الرابع حتى العصر الراهن) وكتاب «تاريخ فرنسا ١٩٠٠ ـ ١٩١٢» .

(**) ميشليه : (١٧٩٨ ـ ١٨٧٤) مؤرخ فرنسى . كتب تاريخ فرنسا من عام ١٨٣٣ إلى عام ١٨٦٧ فى ٦ مجلدات ، ومن عام ١٨٥٥ إلى عام ١٨٦٧ فى ١٢ مجلدا ، وتاريخ الثورة الفرنسية فى ٧ مجلدات . وهى كلها عبارة عن نشيد وطنى للشعب الذى يعده ميشليه المحرك الحقيقى للتاريخ .

«منذ ألفي عـام، كانت فـرنسـا تسمى بلاد الغـال La Gaule وبعد ذلك، غيرت هـذه البلاد اسمها إلـى فرنسا» ، ولا يهم ـ عندئذ ـ إذا ما كان مجموع الأراضى التى تتشكل منها فرنسا الحالية هو نتاج سلسلة من الحروب والغزوات والمذابح للبشر والثقافات .

هذه الإلهة الأسطورية الوهـمية تتمتع بكل خصائص الشخصية التى كانـت تستهـدف هدفا محـددا تماما منذ البدء : ألا وهو مناهزة الوضع الحالى لفرنسا .

إن نقطة الانطلاق ، فى مـثل هذا التـصور ـ هى المصـادفـة ، وهى تستند إلى السلطة الحالية .

وفى كل الأحوال تصبح «فرنسا خالدة» ، لأنها «فرنسا الهابطة من عند الله» .

أما ملوكها ، الذين يحكمون ، وعلى مدى القرون ، بالحق الإلهى الممنوح لأسـلافـهم فى التـوراة ، فـهـم وحـدهـم يجسـدون فـرنسـا وطمـوحـاتهـا الغـازية . وعلينا أن نصدق على ما يقوله چان لومار دو بلج Jean Lemaire de Belge ، فى كـتابه «مـلامح بلاد الغـال وتفـرد طروادة Illustrations de Gaule et singularités de Troie » من أن ملوك فرنسا هم سلالة ساموث الابن الرابع ليافث بن نوح .

باختصـار ، يعود تاريخ فرنسا إلى آدم ، أو إلى كـونها هابطـة من عند الله .

وإلى جانب مثل هذا التراث الذى يرجع تكوين فرنسا إلى أصـول لاهوتيـة ، هناك تراث آخر يرجع بها إلى أصول يونانية : فقـد هرب أمير من هذه العـائلة المالكة إلى آسيا ، وهناك أسس طروادة ، حـاملاً بذلك حضارة بلاد الغال إلى اليونان وروما .

ونجد فى كتب التاريخ الكبرى لفرنسا ، والتى كتبت فى نهاية القرن الثالث عشر فى بطريركية سان دونيس Saint Denis ، أن أول ملوك فرنسا هو الملك فارامون Pharamon ، (وهو نفس الملك الذى تشير إليه طبعة جديدة لتاريخ فرنسا للكاتب راجوا Rageois ظهرت فى عام ١٨٣٨ ، على أنه أول ملوك فرنسا)

وفى كتاب ملحمة فرنسا Franciade الذى أهداه رونسار Ronsard إلى الملك المسيحى جداً شارل التاسع Charles IX ، نجد المؤرخ يستعير النموذج الملحمى لأساطير طروادة لكتابة تاريخ الملكية الفرنسية ، وتاريخ مؤسسيها الملحميين فارامون ، وفرانسيون Pharamon ; Francion . . . إلخ ، ولهذه الأسطورة تنوعاتها أيضا ، فمثلاً ، نجد فيها أن التعارض القائم بين الغوغاء القادمين من بلاد الغال وبين الأرستقراطية ذات الأصل الجرمانى ، لن ينتهى الجدل بشأنه إلا مع حلول الثورة الفرنسية ، تلك الثورة التى وضعت حداً لهذه الخصومة حين أحلت امتيازات الثروة محل امتيازات الدم .

ولا يمكن أن نعد الإلحاح على هذه الأسطورة القومية ضربا من اللهو ، ذلك أن المفهوم الأسطورى للتاريخ القومى ، يؤدى باستمرار إلى تدمير عقول وأجساد الشعوب .

إذ تظل فرنسا خالدة ، على الرغم من شهادتها على مذابح اليهود ، ومذابح المسيحيين فى بيزنطا ، ومذابح المسلمين فى القدس ، وعلى الرغم من التطهير العرقى لطائفة الكاثار Cathares(*) ، وحتى بعد أن أجبر الملك الورع القديس لويس Saint Louis أو لويس التاسع ،

(*) الكاثار : فرقة دينية انتشرت فى فرنسا وإيطاليا بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر ، تجمع بين المانوية والمسيحية ، وقد تعرضت لاضطهاد الكنيسة الكاثوليكية حتى انتهت تماماً فى أوروبا .

اليهود على أن يحملوا شارة لتمييزهم عن غيرهم (وهى شارة القرص التى تتكون من قطعة قماش صفراء مستديرة، لم تكن قد أخذت بعد شكل النجمة). إنها فرنسا الخالدة التى احتدمت فيها معارك سان پارثلماوس Saint Barthélémy(*) بين الكاثوليك والپروتستانت، وشهدت حملات الخيالة فى عهد الملك لويس الرابع عشر Louis XIV، والقمع الشنيع الذى مارسته الثورة الفرنسية ضد سكان إقليم القانديه Vendée، والمذابح الأوروپية على يد ناپليون، والذى ظل رغم ذلك بطلاً قوميّا، مع أنه قد ترك فرنسا أصغر مما كانت عليه قبل أن يتولى الحكم. لقد ظلت فرنسا هى جندى الله والقانون، على الرغم من تشييدها لإمبراطورية استعمارية، باستباحتها للمذابح، وللاشتراك فى حرب الأفيون فى الصين، وتجارة العبيد السود فى كل موانيها الواقعة على المحيط الأطلنطى.

هذا الماضى المجيد هو التبرير الرسمى للعنصرية الاستعمارية التى أقرها چول فيرى Jules Ferry فى الجمعية الوطنية يوم ٢٨ من يوليو عام ١٨٨٥ حين قال:

« يجب أن نقولها بصراحة وبدون مواراة: فى الواقع، إن الأجناس الأرقى لها حقوق على الأجناس الأدنى» J.O du 28 Juillet 1885.

(*) معركة سان پارثلماوس وهى التى قام فيها الكاثوليك بمذابح ضد الپروتستانت، وكان مسئولاً عنها البابا بيوس وفيليب الثانى ملك إسپانيا. بدأت فى أغسطس عام ١٥٧٢ فى عيد القديس پارثلماوس، انطلق فيها الجنود الكاثوليك يذبحون الپروتستانت فى الشوارع. ولقد عم الاستياء فى جميع الممالك التى أقرت الإصلاح فى إنجلترا وألمانيا وسويسرا، وقد استمر ذبح الآلاف من الپروتستانت ستة أسابيع كاملة، ونهبت بيوتهم، ومع ذلك احتفل البابا بهذه المجزرة. واستمر التمييز حتى عام ١٥٩٨ حينما انتهت الحرب بمرسوم نانتسى الملكى الشهير الذى أعطى الپروتستانت حقوقهم.

وستظل فرنسا هذه للأبد جندى الله أو جندى القانون، وذلك بحسب المقام، سواء أكان المقام مقام احتفال بتعميد كلوڤيس Clovis[*] كما حدث فى عام ١٩٩٦ ، أم كان المقام مقام احتفال وقح ومبالغ فيه بالعيد المئوى الثانى للثورة الفرنسية. هذه الثورة التى لم يبق منها إلا إعلان على الورق يحرم ثلاثة أرباع الفرنسيين من حق الانتخاب.

أسطورة فرنسا هذه ليست خاصة بفرنسا وحدها، فنفس الطابع الأسطورى ينطبق على الإمبريالية الإنجليزية صاحبة المجازر فى الهند، تلك التى وصفها روديار كيپلنج Rudyard Kipling بأنها المهمة الثقيلة للرجل الأبيض، وتنطبق أيضا على وحشية النازى المستباحة باسم رقى الجنس الآرى، وتنطبق فى النهاية على ممارسات الاغتصاب والنفى والاضطهاد الوحشى التى تمارسها دولة إسرائيل باسم الوعد القبلى للإله. أو باسم «المستقبل البارز» للولايات المتحدة الأمريكية، هناك حيث طابق الغزاة الإنجليز البروتستانت الأوائل ـ أصحاب مذهب التمسك بأهداب الفضيلة ـ بين الهنود وبين أعداء يشوع، يبررون بذلك اغتصاب أراضى الهنود، ونفيهم، وقتلهم.

يمكن لنا أن نتأمل أيضا، على هامش منتدى روما Forum de Rome، خريطة الإمبراطورية الرومانية، التى كان موسولينى يدعى أنه وريث لها، وراح بهذا الادعاء يبرر مجازره فى إفريقيا، تلك التى امتدت حتى إثيوبيا.

(*) كلوڤيس: ملك فرنسا فى القرن الخامس، حررها من الرومان، ثم اعتنق الكاثوليكية، وبدأ معه اعتناق فرنسا للمسيحية. وفى عام ١٩٩٦ أقيم احتفال هائل بمناسبة مرور ١٥ قرنا على تعميد كلوڤيس ودخول الكاثوليكية لفرنسا. وقد حضر الاحتفال البابا يوحنا بولس الثانى.

إن استخدام مثل هذا الكيان المجرد الذى يدعى «فرنسا الخالدة»، فرنسا السابقة فى الوجود على شعبها وتاريخها، كان مسوِّغا لكل الجرائم التى اقترفت باسم هذا الكيان، وظل الأمر كذلك حتى اللحظة التى تم فيها التخلى عن هذه الأسطورة لصالح التاريخ. فقد أعدنا التعرف على فرنسا في عام ١٩٩٨ كإبداع مستمر مكون من خليط من عشرين عرقا. لقد أثرت ثقافة فرنسا بما حمله لها كل جنس من عطاء، سواء فى ذلك استلهامات التروبادور(*) - كما لاحظ ستندال Stendhal - لمفاهيم الحب والشعر التى حملوها عن الشعراء العرب في الأندلس، أو ملاحم الملك آرثر Arthur فى مقاطعة بريتونيا Breton، أو ثقافات البحر المتوسط اليونانية والرومانية، أو التأثيرات الجرمانية فى الموسيقى والفلسفة، أو آثار زحف الشرق إلى فرنسا الذى استفز الثقافة الفرنسية وأثراها.

ولمثل هذا النقد التاريخى - الذى يضع حدّا للكيانات الميتافيزيقية لأسطورة فرنسا الخالدة - أهمية كبرى الآن، من أجل حل الصراعات المزيفة التى تدور حول مشكلات المواطنة والهجرة.

إنه لصراع مزيف، ذلك الذى يدور حول مفهوم المواطنة، التى تمنح على أساس حق الأرض وحق الدم، كما لوكان الانتماء إلى جماعة ما، يرتبط بعوامل خارجة عن الإنسان ومشاعره: أن تولد فى مكان بعينه، فهذا لا يعتمد على رغبة الفرد على الإطلاق، ومن ثم فهو ليس مدعاة للفخر أو الخجل.

(*) التروبادور: كلمة تعنى المطربين، وهى مكونة فى مقطعها الأول من الكلمة العربية «طرب»، ومقطعها الثانى هو الزائدة الختامية التى تضاف للفاعل فى الإسپانية. وكانوا عبارة عن فرق من الشعراء والموسيقيين الجوالين يطوفون بأنحاء أوروپا، وقد نقلوا إليها الشعر العذرى العربى.

أما عن حق الدم: فهو يعتمد على عامل آخر مستقل عن إرادتى، كما هو الحال مثلاً بالنسبة للحيوان، فهو يكون إما فيلاً وإما ضفدعا بغير إرادته.

إن الرابطة الإنسانية الوحيدة حقا، لجماعة إنسانية حقا، تتمثل فى اشتراك هذه الجماعة فى مشروع عام، وتعاونها على تحقيق هذا المشروع، بوصفه مشروعا مشتركا للإنسانية كلها كوحدة كلية، وهكذا يساهم كل شعب من خلال ثقافته الأصلية فى أنسنة الإنسان، ونموه وتقدمه الحقيقى فى الإنسانية.

كذلك هو الحال بالنسبة لمشكلة الهجرة، تلك المشكلة التى لا يمكن أن تظل ـ ووفقا لقواعدها الحالية التى يترتب عليها مبادئ عدم المساواة فى إطار وحدانية السوق ـ مجرد أداة لنفى المنافسين فى مجال العمل أو السوق.

على مسألة الهجرة أن تصبح مجالاً للحوار الذى يشارك فيه كل طرف، بما يوسع الرؤية للإنسان، وللمشروع الإنساني، كما يراه كل على حدة. (مثلاً الحوار بين معنى الجماعة لدى البعض، ومعنى الشخصية الفردية لدى البعض الآخر، وتبادل هذه المعانى واقتسامها، من أجل كفاح مشترك ضد الفردية المتوحشة أو الشمولية الهدامة).

كذلك، يجب أن يكون هناك تبادل للآراء ومشاركة من أجل تجنب الرأى الدوجماطيقى والدين الذى يرمى إلى التسلط على المجتمع كله، والعلمانية التى تصادر على البحث عن الغايات النهائية للفعل. يجب أن نكافح معًا من أجل وحدة الإيمان، ومن أجل تلاقح خصب بين الثقافات والمؤسسات التى تعيش هذا الإيمان.

يجب أن يتم تغيير وضع مادة التاريخ فى التعليم بشكل جذرى:

لا يتعلق الأمر هنا، بنقل المعلومات التاريخية، عن طريق الكتب المدرسية، التى يعقب بعضها بعضا، وينقل بعضها عن بعض، اعتمادا على نموذجين أو ثلاثة تتنوع من حيث طريقة عرض المادة، ولكنها تخضع جميعا لنفس المنطق، منطق الفكر الأحادى، فكر الأساطير المعبرة عن الأصل، أو التكوين التاريخى للأمة، مما يؤدى فى النهاية إلى تشكيل مواطنين ذوى فكر أحادى مبرر لصحة الوضع السياسى القائم.

وتتكشف لنا العواقب الوخيمة لهذه الأساطير أكثر فأكثر، كلما اقتربنا من الوضع المعاصر. أى من الحرب العالمية الأولى التى حقق فيها الجنود ـ المدافعون عن القانون ـ حلفا مقدسا ضد أعداء لهم بالوراثة.

فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، كان محظورا فى محكمة نورمبرج، التعرض للأسباب التى أدت إلى ميلاد المارد النازى (ابتداء من معاهدة ڤرساى(*) التى جعلت من صعود النازى أمرا ممكنا، وحتى عام ١٩٣٣ الذى أصبح فيه هتلر ـ من خلال أكثر الأساليب ديمقراطية فى العالم ـ طاغية فى شعبه).

هذا علاوة على أن العالم الرأسمالى كله كان يدعم هتلر، إذ كان يرى فيه «أفضل درع ضد البولشفية». وبذلك كان جديرا عقب

(*) معاهدة ڤرساى: هى معاهدة استسلام ألمانيا أمام الحلفاء بعد نهاية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨، وكانت معاهدة مجحفة أجبرت ألمانيا على التخلى عن كثير من أراضيها، وتخفيض عدد جيشها، ودفع تعويضات للحلفاء، وكانت هذه المعاهدة سببًا فى تأجج الروح الألمانية القومية وصعود النازى.

انتصاره بتحيـة تشرشل، وتحية رؤساء الكنيسة الألمانية، وبالتـبعية سائر الكنائس فى فرنسا وإيطاليا وإسپانيا وكل أوروپا.

وبعد هزيمة هتلر، أصبح التاريخ غير مفهوم، إذ نُسبت ـ فى إطار الوضع العكسى لعبادة الشخصية ـ كل مآسى العالم إلى هذا الهذيان العنصرى العنيد لهتلر المجنون. هذا هو هتلر الذى كان من قبل ثمرة تدبير طويل، بدأ منذ اتفاقيات ڤرساى، واستمر فى شكل الدعم الذى قدمه كل رجال البنوك فى العالم بالمال والصلب، سواء فى ذلك إنجلترا أو فرنسا أو الولايات المتحدة الأمريكية، وفى شكل التنازلات السياسية (التى كان مينيش Minich رمزا لها، وفى الاتفاقيات الألمانية السوڤييتية التى جاءت كرد دفاعى ضد هؤلاء الذين كانوا يريدون توجيه هتلرنحو الشرق). وفى شكل الشركاء الصهاينة لهتلر (وهم الحلفاء الطبيعيون له ضد اليهود الألمان) الذين كانوا يريدون ـ عن طريق إنشاء دولة إسرائيل القوية ـ مساعدة هتلر على «**إخلاء أوروپا من اليهود**»، (Judenrein)، وهو ما كان هتلر يحلم به. فى حين أن طائفة اليهود الألمان كانوا يريدون البقاء فى ألمانيا، يطالبون فقط باحترام الدولة لديانتهم وثقافتهم. وهؤلاء كانوا محل اضطهاد النازيين، وكانوا يمثلون ٩٥ ٪ من الطائفة اليهودية فى مقابل ٥٪ من الصهاينة.

ومنذ ذلك الحين، بدأ التاريخ فى تشكيل محرَّمات Tabou جديدة: إذ تحالف الصهاينة، وتعهدوا ـ فى اتفاقيات هاڤارا Haavara ـ بأن يكافحوا من أجل كسر المقاطعة المفروضة على ألمانيا ـ فى مقابل ترحيل المليونيرات اليهود وثرواتهم. كما قُدِّمَت اقتراحات للتعاون العسكرى بين عصابات مسلحة من جماعة شترن Stern وإسحق

شامير وبين الجيش الهتلرى . وهى اقتراحات نابعة من اشتراكهم فى هدف واحد . ومن هذه الاقتراحات أيضا ، الاقتراح الشنيع الذى قدمه هتلر فى عام ١٩٤٤ ـ والذى قبله القادة الصهاينة ـ الذى يقضى بتبادل مليون يهودى مقابل ١٠ آلاف شاحنة ، على شرط ألا تستخدم إلا على الجبهة الشرقية . لم يكن هتلر وحلفاؤه يحلمون إلا بسلام منفرد ، وبوساطة الصهاينة . (Ed ; Liana Levi; 1996; pp;87; 227 et 80 et 88 .

لقد صيغ ـ هذا التزييف المتعمد للتاريخ منذ سقوط هتلر- بوضوح فى عام ١٩٩٠ ، وذلك فى إطار قانون أثيم أطلق عليه قانون جيسو Gayssot ، ذلك القانون الذى وضع بالتواطؤ مع رئيس البرلمان الفرنسى لوران فابيوس Laurent Fabius ، وهو يشرع لمعاقبة كل محاولة تاريخية نقدية للجرائم الهتلرية . ويجعل من كل نقد لقرارات محكمة نورمبرج أمرا محرما(*) . ذلك على الرغم من أن رئيس محكمة نورمبرج نفسه ، القاضى الأمريكى چاكسون ، كان قد اعترف بأن هذه المحكمة «كانت آخر عمل من أعمال الحرب» وبالتالى فإنها لم تلتزم «بالقواعد القانونية للمحاكم العادية فيما يخص الأدلة» .

(*) لهذا القانون توائم فى ألمانيا وسويسرا ، وحتى أقصى الغرب فى كندا. فقد قام إرنست زوندل بتأليف كتاب سماه : Did Six Milion Really Die? ، وقُدم المؤلف للمحاكمة ، وأدين وسجن ، برغم أن محاميه استعان بـ «لوشتر» الخبير الأمريكى فى تصميم غرف الغاز ، كلفه بالسفر فى مهمة علمية إلى المواقع المزعومة لغرف الغاز فى پولندا ، وأعد الخبير تقريره ، وخلاصته أن تلك الغرف لم تصمم ، ولم يكن ، ولا يمكن استخدامها كغرف إعدام بالغاز . (الناشر)

(ب) الاستعمار الثقافى:

من الدالّ والكاشف، أنه فى عصر الاستعمار الثقافى، يكون التاريخ هو تاريخ الغزو الشرعى للأراضى الجديدة من أجل حمل الحضارة إلى «البرابرة».

وهكذا يكتسب كل غزو أو عدوان استعمارى شرعيته باسم الحضارة. أما مقاومة الشعوب المستعمَرة، والمغتصَبة، والمقتولة، فيسمى إرهابا.

وليس للتاريخ المدرسى، أو بالأحرى للتاريخ المدرسى فى الغرب، (كما هو حال الغرب كله) ـ بالتأكيد ـ إلا مصدران: **التراث اليهودى المسيحى، والتراث اليونانى الرومانى.**

وفى عام ١٩٧٥، قام كل من پريسفرك Preisswerk ومارو Marrot بدراسة ثلاثين كتابا مدرسيا هى من أكثر الكتب استخداما فى المدارس (٣ كتب ألمانية، ٦ إنجليزية، ١١ فرنسية، ٨ روسية). وقد استوقفهما فى هذه الدراسة مشكلة تشويه التعصب القومى لكتب التاريخ، ومشكلة الاستعمار الثقافى الذى يجعل من التاريخ: **تاريخا للغرب بصفة أساسية مع ملاحق تشمل سائر الشعوب** (Ethnocentrisme et histoire; Ed. Anthropos; 1957).

ويسمح هذا المنظور الخاص بالمركزية العرقية للغرب ـ المستأثر بالتقدم والحداثة، والمتخذ من التكنيك سلطة وحيدة على الطبيعة والبشر ـ بوضع قائمة لتوزيع الجوائز. وتأتى أوروپا على رأس القائمة، ليس فقط بمقتضى حقها الطبيعى فى ذلك، ولكن أيضا بمقتضى واجب ترقية البدائيين إلى مستوى الكفاءة الأوروپية. وعندما نجد كتابا من هذه الكتب المدرسية يقول: «عند وصولهم إلى هذا البلد،

وجد الأوروپيون حضارة لامعة» ، نعلم أن هذا اللامع ليس إلا ما يتوافق والمعايير الخاصة بالأوروپيين .

فى هذا المقام ، نبدو بعيدين عن الحياء العلمى ، أو ببساطة عن هذه الموضوعية العالمية التى ضرب عليها ليفى شتراوس Lévis Strauss مثلاً فى كتابه «العرق والتاريخ Race et Histoire» إذ يقول : **«فى القدم كان اسم البرابرة يطلق على كل من لا يشارك فى الثقافة اليونانية، (أو فى الثقافة اليونانية الرومانية فى مرحلة متأخرة)، وقد استخدمت الحضارة الغربية مصطلح «الوحشى» بنفس المعنى، فالوحشى هو من يقطن الغابة، وهو ما يدل على نوع من الحياة الحيوانية، فى مقابل «الثقافة» (p20).**

ويقدم لنا استعمار الجزائر ، وتصريحات المارشال بوجو Bugeaud(*) نموذجا ناصعا على مثل هذا الفكر . فقد أعلن بوجو فى ١٤ من مايو عام ١٨٤٠ ، فى مجلس النواب **«أنه يجب أن يكون هناك غزو كبير لإفريقيا على غرار غزوات الفرنج وغزوات القوط Goths»(**) .**

(*) توماس : روبير بوجو : (١٧٨٤ ـ ١٨٤٩) القائد العسكرى الفرنسى ، والحاكم العام للجزائر (١٨٤٠ ـ ١٨٤٧) . وهو الذى مكن فرنسا من احتلال الجزائر ، وأقر نظام الاحتلال ، وقاتل المغاربة فى عام ١٨٤٦ .

(**) القوط : شعب من أصل جرمانى ـ امتدت غزواتهم إلى حوالى عام ٢٣٠ بعد ميلاد المسيح وشكلوا دولة قوية ، غير أن غزوات الهون لهم أجبرتهم على التقلص داخل الإمبراطورية الرومانية . وقد شنوا فى هذا الإطار غزوات مدمرة على الإمبراطورية الرومانية فى القرن الثالث الميلادى . وإليهم ينسب الفن القوطى الذى انتشر فى أوروپا فى القرن الثانى عشر الميلادى والذى حل محل الفن الرومانى .

وقد أصبح بوجو هذا حاكما للجزائر، وفى إطار تطبيقه للدعوة التى نادى بها، وجه إلى قادة المقاومة الجزائرية هذا الإنذار: **«اخضعوا لفرنسا، وإلا سوف أقتحم جبالكم، وأحرق قراكم ومنازلكم، وأقطع أشجاركم المثمرة، وعندئذ لا تلومن إلا أنفسكم، لأنى سأكون بريئا تماما أمام الله من كل هذه الكوارث التى ستحيط بكم»** (Moniteur Algérien ; J.O; 14 Avril 1844).

برنامج للتخريب والقتل، تم تنفيذه بدقة على يد المارشال بوجو ومأموريه من أمثال سانت آرنو Saint Arnaud، الذى صار بدوره مارشالاً فيما بعد وقال: **«نحن نخرب، نحرق، نسلب، نسحق البيوت والأشجار»** (رسائل سانت آرنو، فى كل صفحات الرسائل Saint-Arnaud: Lettres du Maréchal de Saint Arnaud; à toutes les pages du receuil).

وفى كتاب «رسائل جندى Lettres d'un soldat » للكولونيل مونتانياك Montagnac، نجد هذه العبارة عن مقاطعة ماسكارا Mascara:

«نحن نتقفى أثر العدو، ونسلبه نساءه وأطفاله وأنعامه وقمحه وشعيره». ثم يضيف: « إن الجنرال بيدو Bedeau ــ وهو نبيل من الطراز الأول ــ قد عاقب قبيلة على الحدود فى شيليف Chélif، وسلبها بالقوة النساء والأطفال والأنعام».

ويصف لنا الكونت إيريسون Le Conte D'Herisson فى كتابه: «صيد الإنسان La Chasse à l'Homme (p133-347)» الممارسات الاستعمارية التى كان مشددا عليها:

«لقد ظل زوج الأذن للرجل يساوى عشرة فرنكات لفترة طويلة، أما النساء فقد ظللن لفترة طويلة صيدا ثمينا» .

وتدلنا كل هذه النصوص، وغيرها، على أن بناة الإمبراطورية، الذين صدروا فى ذلك عن جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية، لم يرد لهم ذكر فى أى كتاب مدرسى. وقد أوثر أن يتعلم الأطفال فى هذا الكتاب قصائد لطيفة، ومقطوعات رقيقة عن قبعة الأب بوجو(١٣) .

لا يتعلق الأمر هنا بإخراج الجثث من القبور: فهذه الأساطير الدامية مازالت تؤثر ويشكل حاسم فى الوضع الحالى، الذى تشكله هذه الأكاذيب التاريخية.

فحين عطلت العصبة العسكرية الحاكمة فى الجزائر الانتخابات الحرة، لأنها لم تكن لصالحها، وافق الديمقراطيون المتحضرون الطيبون فى بلادنا ـ والذين كانوا يطالبون من قبل بضرورة إجراء انتخابات نزيهة ـ على الفور، على هذا التعطيل، وعلى استتباب ديكتاتورية عسكرية فى الجزائر، مع ما ترتب على ذلك من فوضى دموية لم يكن من الممكن تفاديها، بسبب من استبعاد أغلبية السكان من الحياة العامة.

وترسم لنا المعلومات المنشورة فى وسائل الإعلام ـ والتى تهدف إلى احتكار الرأى العام ـ صورة أشباح لم تنته بالنسبة لهم الحروب الصليبية، ولا حرب الجزائر بعد.

أشباح أناس كثيرين، يمزجون بين الدفاع عن الذاكرة، وبين التراتيل المعتادة للكراهية التى تجتر على الدوام ثأرا عمره ألف عام.

فـقـد نادى الجنرال جـورو Goureaud فى عـام ١٩١٨ يقـول : « يا صـلاح الدين، ها نحن أولاء نعـود»، وها هو ذا قـد عـاد بالفـعل إلى لبنان، ليؤسس حزبا دينيا عرقيا، حتى خيم الخراب التام على لبنان طيلة قرن من الزمان.

وأمـام قـبـر صـلاح الديـن، وقـف الجنرال الإنجليـزى أللنبى Allenby(*) فى عام ١٩١٨ يقول: « اليوم انتهت الحروب الصليبية». ووضع فى فلسطين أسس نظام تمييز عنصرى، يقضى بفصل الأهالى الأصليين فى مناطق معزولة، مولدا بذلك الكراهية والحروب التى كان صلاح الدين قد وضع حدّا لها منذ عام ١١٨٧، وحتى عدة قرون من بعده، وذلك حين دخل منتصراً إلى القدس، فأعاد فتح المعابد اليهودية والكنائس المسيحية.

اليوم، أيضا، وفيما يخص دراما الجزائر، نجد نفس الكلام المعاد ـ عن الأسطورة التاريخية الألفية ـ طافيا على السطح فى تصريحات كل أحزاب اليمين واليسار فى الغرب. ففى الجزائر مجازر تعيد إلى الذهن كل المذابح الاستعمارية السابقة، بوصفها نماذج مصغرة لها: فالبعض يلقى بالمسئولية على عاتق العنصرية الوحشية للإسلاميين، والبعض الآخر يدين الاستبداد الشرقى لرجال السلطة. كما كان الحال بالنسبة لرواندا، التى أدينت فيها النزاعات القبلية العرقية البدائية. ولكن لا بد من التصريح بأن الزعماء الفرنسيين (وبالمثل يفعل الإنجليز فى بلد مـجـاور لرواندا) هم الذين لم يكفوا عن الدعم المالى والعسكرى للجلادين لحساب مصالحهم الخاصة، أو أنهم هم الذين

(*) أللنبى: قائد عسكرى بريطانى (١٨٦١ ـ ١٩٣٦) ـ استطاع خلال الحرب العالمية الأولى أن يدخل فلسطين بعد هزيمته الأتراك وبمساعدة القوات العربية من شبه الجزيرة.

أفسدوا معاونيهم ـ كما فعلوا مع موبوتو مثلاً ـ للحفاظ على البقية الباقية من مصالحهم .

وسأعرض لمثلين يعبران عن هذا الطموح الكاريكاتورى للمركزية العرقية الأوروبية :

المثل الأول هو القصة الرسمية لحروب ماراثون وپواتييه Marathon et Poitiers(*) ، التى تقدم بوصفها نموذجا لانتصار الغرب على بربرية الشرق .

وحتى نزيل عن معركة ماراثون Marathon هذا الطابع الأسطورى الذى أسبغ عليها ، يكفى أن نستعيد قصص هيرودوت ، التى حذرنا منها پلوتارك Plutarque ، حين يذكرنا بأنها رويت فى «مدح الأثينيين من أجل الحصول على حصة كبيرة من الأموال» .

وقد وضع تيوسيديد Thucidide الحدث فى حجمه الحقيقى إذ لم يخصص له إلا سطرين فى كتابه حروب پيلوپونيس Péloponése(**) . ولكن ذلك لم يمنع أحد أفضل المتخصصين فى الدراسات الهيلينية فى جامعة السوربون ، فرنسوا شامو François Chamoux ، من أن يكتب فى عام ١٩٦٨ فى كتابه عن الحضارة اليونانية La civilisation Grecque ما يلى عن هذه الحرب : «إن الأمر يتعلق هنا بانتصار حاسم للغرب على الشرق ، فاليونانيون لم يحاربوا فقط من أجلهم ، وإنما من أجل إرساء مفهوم للعالم سوف يصبح فى فترة لاحقة ميراثا مشتركا للغرب كله» .

(*) معركة ماراثون التى هزم فيها الأثينيون الفرس فى عام ٤٩٠ ق.م ـ ومعركة پواتييه التى هزم فيها شارل مارتل العرب فى عام ٧٣٢م .

(**) حروب پيلوپونيس : هى التى دارت بين أسبرطة وأثينا ، والتى انتهت بهزيمة الأثينيين ، ومن ثم تدخل الفرس فى شئون البلاد .

وقدكتب باحث آخر متخصص هو الأستاذ روبير كوهين Robert Cohen فى كتابه: «اليونان وهيلينية العالم القديم»، عن حملات الإسكندر الأكبر يقول: «إن تاريخ اليونان يختلط وعلى الدوام بتاريخ العالم» (p396).

مع أنه فى عصر الإسكندر كان هناك، ومنذ حقبة بعيدة، كتاب الأوپنشاد للهندوس Upanishads(*)، وتراتيل بوذا ولاوتسى Lao Tseu(**) وكونفوشيوس فى الصين(***)، وتراث شعوب أخرى كثيرة، كانت تجهل الإسكندر وملحمته، ولكن وجهة النظر الغربية سرعان ما حصرت العالم فى مجالها الخاص. مما جعلنا ننسى فى دواخلنا حقيقتين تاريخيتين أساسيتين:

أن هذا النزاع لم يكن حاسما تماما، فمن بعد ماراثون، بحوالى قرن من الزمن، أى فى عام ٣٨٦ق. م، أملى حاكم فارسى بسيط - من بلدة إيونيه Ionie يدعى تيريباز-Tiribaz إرادته، باسم ملكه العظيم، على الوفود القادمة من أثينا وإسبرطة وأراجوس وتيبس Athénes; Sparte: Aragos; Thébes;.

(*) الأوپنشاد: الاسم الذى يطلق على نصوص سنسيكريتية صوفية ضمن كتاب الڤيدا الهندى.

(**) لاو تسى: فيلسوف صينى فى القرن السادس ق. م. وقد كان لتعاليمه أثر واسع فى التطور الثقافى والتاريخى فى الصين، وتعرف فلسفته باسم «الطاوية».

(***) كونفوشيوس: فيلسوف صينى يمثل الجناح الثانى المقابل للطاوية فى التراث الصينى القديم فى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد. وتدعو الكونفوشية إلى التمسك بأخلاقيات اجتماعية معينة وفضائل إنسانية عامة.

ويقول لنا زينفون Xénophon (*) فى كتابه الهيلينيات Helléniques (الكتاب الخامس الفصل الأول)، إن اليونانيين قد بادروا إلى دعوته. وأنه قد شاهد الأمر المفروض من ملك الفرس الطاغية كسرى Artax-ercés الذى يقول: « **إنه من العدل أن تكون مدن آسيا ملكًا لي، وإنه فى حالة عدم استجابتكم لهذا السلام، فسوف أعلن الحرب عليكم فى البر والبحر**». وقد حمل الرسل هذا الإنذار كلّ إلى دولته، وأقسموا جميعًا على تأييده.

ويعلق إيزوقراط Isocrate على ذلك بقوله: «**والآن هاهو ذا البربرى يدير شئون اليونانيين، ألا ينبغى لنا أن نطلق عليه اسم الملك العظيم وكأننا أسرى له؟!**» (Panégyrique p120 - 121).

فى الغرب، عند أقصى الطرف المقابل، نجد نظيرا لعقدة ماراثون فى فرنسا متمثلاً فى حروب پواتييه Poitiers والتى ادعى أنها كانت تدفقا للبربرية الآسيوية على الغرب.

إذ يتحدث إرنست لاڤيس Ernest Lavisse ـ فى الفصل الخاص بالعائلة المالكة وريثة شارلمان فى كتاب تاريخ فرنسا الذى أشرف عليه ـ عن پواتييه بنفس الطريقة التى ذكرنا بها ماراتون من قبل، فيقول: «إن معركة پواتييه هى يوم لا ينسى فى تاريخنا ـ وقد استطاع مؤرخ آخر أن يطلق على جنود الفرنجة اسم جنود أوروپا ـ ذلك أن الأمر كان قد حسم فى هذا اليوم، بألا تكون الغال مثلها مثل إسپانيا عربية مسلمة، إنها أوروپا كلها التى كان يدافع عنها الفرنجة ضد الآسيويين والأفارقة».

(*) زينفون: كاتب أثينى، تلميذ سقراط. تابع حروب اليونانيين فى آسيا وكتب عنها فى القرن الرابع ق.م.

هزيمة غير حاسمة تماما، بدليل أنه بعد عامين، أى فى عام ٧٣٤، أطلق ليـڤى پروڤـينسـال Lévi-Provençal على هذه الحـروب اسم «الغـارات» أو «الهـجمـات» (ومثل هذا لا يقارن بالمرة بالاجتياح السـاحق لحرب مـثل حـرب الهـون Huns (*) التى وقـعت قـبل ذلك بثلاثة قرون والتى شنت على إقليم ڤالنس Valence فى مقاطعة الرون Rhone، وتمسكت بشدة بإقليم ناربونه Narbonne) .

وهنا أيضا نجد أن المؤرخين المحترفين ليسوا هم الذين أتلفوا النسخة الأخرى المختلفة من أسطورة معارضة المانوية للحضارة الغربية فى هجومها على البربـر ـ ففى رواية الحياة الورديـة La vie en fleur لأناتول فرانس Anatole France نجده يقول: لقـد سـأل السيـد دوبوا Dubois السيدة نوزيار Nozière عن أسوإ يوم فى تاريخ فرنسا، ولم تكن السيدة تعرف الإجابة، فاستطرد السيـد ديبوا يقول: «إنه يوم معركة پواتييه فى عام ٧٣٢، حين تراجع العلم والفن فى الحضارة العربية أمام بربرية الفرنجة».

أما أنا فسأحتفظ بهذه العبارة دوما فى ذاكرتى، إذ إنها كلفتنى الاستبعاد من تونس عام ١٩٤٥، لأن فيها دعاية ضد فرنسا!! وكان محظورا علينا أن نؤكد أن الحضارة العربية كانت تهيمن ــ وعلى نطاق واسع ــ على الحضارة الأوروبية فى القرن الرابع عشر!

لقد بين الكاتب بلاسكو إيبانز Blasco Ibanez فى كتابه «فى ظل الكاتدرائية à L'ombre de la cathédrale»: **«أن نهضة إسپانيا لم تأت**

(*) الهـون: شـعب من أصل منغـولى أتى إلى أوروبا فى القـرنين الرابع والخامس الميلاديين، وقد وصل الهـون إلى بلاد الغـال، وهزمهم الرومان، فتركوا الغال، وتوغلوا فى إيطاليا وتركستان وإيران والهند، قبل أن يهزموا فى الهند عام ٥٣٠م.

من الشـمـال حـيث يقطن البـرابرة، ولـكن من الوسط مع العـرب الفـاتحين». كمـا كـتب عن الحـضارة العـربيـة يـقـول: «بمجـرد أن ولـدت الحضارة العربية، عرفـت كيـف تتمثل أفضل ما فـى اليهودية والعلوم البيزنطية، لقد حملت التـقاليد الهندوسية العظمى، والبرهـان الفارسـى، واستعـارت الكثيـر من الصين الغـامضة، وهذا هـو الشرق الذى أثر تـأثيـرا عـمـيـقـا فى أوروبا . لـقـد وصل دارا Darius وكسرى Xérxés إلى أوروبا لا عن طريق اليونان التى لفظتهما لتحافظ على حـريتها، وإنما عن طـريق إسپانيـا التى كانت مـستـعبدة مـن قبل ملوكهـا اللاهوتيين، وقساوسـتها الشغـوفين بالحرب، والتى استـقبلت بذراعين مفتوحتين فاتحيها (من العرب)».

ويضيـف بلاسكو: «لقـد استـولى العـرب خلال عـامين على مـا أمضيـنا سبعة قرون لاسـترداده منهم، إذ لم يكن غزوهـم مـفروضـا بقـوة السلاح، وإنما كـانوا يمثلون مجتـمعا جديدا تضـرب جذوره فى كل الاتجاهات».

ومن قبل كان ليڤى پروڤنسال فى كتابه «تاريخ إسپانيا المسلمة» قد وضع الحدث العسكرى فى حجمه الصحيح، إذ خصص له عشرين سطراً فى كتاب مكون من عدة مجلدات.

ولكن كان يجب الانتظار حتى الثلث الأخير من القرن العشرين حتى يستطيع هاو إسپانى يدعى إينيـاكو أولاج Ignaco Olague أن يتبين من خلال التحليل الدقيق للمصادر، أن النص الذى اعتمد عليه لوصف الحـدث فى كتب التاريخ، وكان أكثر النصوص استخداما، هو نص كتب فى ديـر مواسـاك Moissac، ذلك الدير الـذى قام فى معـركة پواتيـيه بنفـس الدور الذى لعبـه من قبل هيرودوت بالنسبة لمعركة ماراثون.

لقد قام أولاج في كتابه : «الثورة الإسلامية في إسپانيا»، الذي تم تحريفه عند ترجمته إلى الفرنسية، وتفريغه من المصادر الأساسية، بتحليل لكيفية نشأة الملحمة، واختراعها بعد وقوعها بعدة قرون، في عصر حروب الموحدين والمرابطين التي أدت إلى انحسار الإسلام في إسپانيا.

لقد قام الملوك الكاثوليك بدور في تطوير الملحمة التي عاشت حتى نهاية القرن العشرين.

أما عن دور شارل مارتل Charles Martel كمنقذ للغرب، فإنه يظهر بشكل أكثر جلاء حين نضعه في سياق عصره.

١ ـ فهذا المنقذ لفرنسا وللغرب بعد انتصاره على القائد العربي عبد الرحمن في عام ٧٣٢، واصل انتصاراته على البرابرة المسلمين من خلال غزوه لإقليم الأكيتان في جنوب فرنسا Aquitaine de la Bergogne ثم إقليم البروڤانس Provence الذي كان حتى هذه اللحظة مستعمرة رومانية.

٢ ـ إن هزيمة العرب المسلمين كانت ساحقة إلى الحد الذي ظل معه العرب يسكنون إقليم ناربونه Narbonne، وأن يظلوا أسيادا لإقليم البروڤانس، وأن يحتفظوا بقاعدتهم الأساسية في مدينة فريجوس Fréjus، و أن يصعدوا إلى إقليم الرون، كما تشهد على ذلك كاتدرائية پوي Puy التي مازالت تحمل واجهتها كتابات عربية بالخط الكوفي.

وفيما يخص «حالة اليقظة»، فمن المناسب أن نتذكر، مثلاً أنه بعد مرور عدة قرون بعد معركة پواتييه، كانت قرطبة هي المركز الثقافي

الذى أيقظ أوروپا من سباتها الفكرى الطويل : وذلك حين أمدتها بكل هذا التراث الثرى للصين والهند وإيران، بل بتراثها هى الموجود عند اليونان . فمن خلال شروح ابن رشد، و محاوراته لأرسطو، استطاع ألبير الأكبر Albert Le Grand وتوما الأكوينى Thomas D'Aquin أن يطورا مذهبهما، وأن تنمو الرشدية اللاتينية(*) فيما بعد فى جامعة پاريس على يد سيجر دى بارينت Siger de Barbant، وفى جامعة أكسفورد، ثم فى جامعة إيطاليا على يد پيك دى لا ميراندول Pic De La Mirandole فى القرن الخامس عشر .

إن الإدريسى(**) المولود فى سبتة(***)، والذى درس فى قرطبة فى القرن الثانى عشر، قد وضع خرائط، استعان روچيه الصقلى بها لوضع تلك المناهج التى سمحت له بالانتقال من فكرة المجال إلى فكرة نصف الكرة، وهى مناهج شبيهة بتلك التى استخدمها

(*) الرشدية اللاتينية : استقبلت أفكار ابن رشد فى الغرب منذ عام ١٢١٠ استقبالاً حسنًا واعتنقها بعض المفكرين المسيحيين فى تمردهم على القساوسة ورجال الدين المسيحى وعرفوا بالرشديين اللاتينيين. فتحركت السلطات الدينية ضدهم ووجهت إليهم ضربة قوية بإدانتهم عام ١٢٧٠، وبدا الحين أنه قد قضى على الرشدية اللاتينية، لكنها تشبثت بالبقاء وظهرت من جديد بعد ذلك واستمرت حتى عصر النهضة.

(**) أبو عبد الله محمد الإدريسى : (١٠٩٩ ـ ١١٦٥) جغرافى عربى شهير، وقد كانت خرائطه هى الأساس الذى قام عليه كل الخرائط التى نشرت فيما بعد فى الغرب.

(***) مدينة مغربية، تحت الاحتلال الإسپانى، حتى اليوم، هى ومدينة مليلة. تقع المدينتان فى الأرض المغربية، يفصلهما من إسپانيا مضيق جبل طارق فى البحر المتوسط. (الناشر)

ميركاتور Mercator(*) بعد ذلك بأربعة قرون، وسمحت له باكتشافات هائلة.

لقد كانت رسائل الجراحة التى كتبها أبو القاسم(**) حجة فى مجال الطب لمدة خمسة قرون فى كل كليات الطب فى الغرب، فى مونپلييه Mont pellier كما فى پاليرمو Palerme، وپاريس، ولندن.

لقد عُدّ روجر بيكون Roger Bicon (١٥٦١-١٦٢٧) رائد العلم التجريبى فى أوروپا (وهو العلم الذى يقوم على وضع فرضية رياضية وإقامة نظام تجريبى للتحقق من صحتها) ولكننا إذا نظرنا إلى الجزء الأخير من كتابه «العمل الأكبر Opus Majus» فسوف نجده يقوم بعملية انتحال، وأحيانًا بعملية ترجمة حرفية لكتاب البصريات للعالم المصرى ابن الهيثم. وأحيانا يعترف بيكون بما استعاره فيقول: **«الفلسفة مستمدة من العرب، وما من لاتينى يستطيع الفهم الصحيح للحكمة والفلسفة دون أن يعرف اللغات الأصلية التى يترجم عنها»** (Métalogicus; IV;6).

لقد كانت روح الوحدة تسود العلوم التى امتاز بها العرب، بدءا من الفيزياء وحتى علوم الفلك. من البيولوچيا حتى الطب. «لقد كان حجر الزاوية فى الثقافة الإسلامية فى كل مجالات اللاهوت والفلسفة والعلوم والفنون يتمثل فى فكرة الوحدة (أو التوحيد) التى لا تقتصر على مجرد التوكيد بأن الله واحد».

(*) چيرار كريمر ميركاتور: (١٥١٢ ـ ١٥٩٤) رياضى وجغرافى، إليه يعزى اختراع نظام التمثيل الجغرافى على الخرائط.

(**) أبو القاسم ويعرف بـ Abulcasis، توفى فى عام ١٠٣١ وله رسائل هى الأولى من نوعها فى مجال الطب الجراحى.

فالتوحيد ليس مسلمة، ولكنه عمل، والتوحيد هنا ليس مؤسسا على فلسفة للوجود، كما هو الحال عند اليونانيين، ولكنه، على العكس من ذلك هو فلسفة للفعل، وهذا ما سمح بتجدد كل العلوم. فإذا ما تخلينا عن الوهم الذى يعتبر أوروبا مركز تاريخ العالم، فيجب عندئذ أن نعترف أنه منذ القرن الثامن وحتى القرن الرابع عشر، لم يكن هناك ثقب أسود فى التاريخ. ولكن على العكس، كانت هناك الحضارة العربية الإسلامية كواحدة من ألمع حضارات التاريخ.

لقد مضى ابن عربى ـ (١١٦٥ـ١٢٤١) المولود فى مرسيا Murcie بإسپانيا ـ بفلسفة الفعل إلى أقصى مدى لها، معارضا بذلك فلسفة اليونان للوجود عند الأفلاطونيين والأرسطيين. فما من شىء يبدأ من واقعة تامة الاكتمال، معطاة، سواء فى ذلك إن كانت واقعة محسوسة أو مفهومة، وإنما تبدأ الواقعة من الفعل الخلاق اللانهائى لله.

والقضية الأساسية بالنسبة لابن عربى هى البيان عن كيفية مشاركة الإنسان فى فعل الخلق لعالم فى حالة توالد دائم.

ومثل هذه الرؤية الحيوية للعالم، نجدها فى القرآن، متدفقة من الفعل الخلاق اللانهائى لله: ﴿لا إله إلا هو الحى القيوم﴾ [آل عمران: ٢]، هذا الخلق المستمر يوجد كل شىء، والله بخلاف المخلوقات لا يكف عن الخلق ولا تأخذه سنة ولا نوم: ﴿كلَّ يوم هو فى شأن﴾ [الرحمن: ٢٩]، ﴿ يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ [يونس: ٤].

إن النظرية الإسلامية للمعرفة تنطلق من الفعل الخلاق، وهى النظرية التى استعارتها بعد عدة قرون الفلسفة الغربية، وبصفة خاصة

عند كـانت Kant ونظريتـه عن الخيـال المتعـالى ، وأكـثر من ذلك عند جـاسـتـون باشـلار Gaston Bachelard الذى عكف على البـحث عن تاريخ هذا الخيال . إن المنهج التجريبى وكم الاكتشافات الهائلة ليسا وحدهما دعـامة صرح العلم الإسلامى ، فهناك أيضا تلك القدرة على ربط العلم بالحكمة والإيمان .

وبعيدا عن قصر حركة العلم على التصاعد من علة إلى علة ، كانت هناك الحكمـة التى ترتفع من غـاية إلى غـاية أسـمى ، من الغـايات الوظيفـيـة إلى الغايات العليا . حتى لا يستخدم العلم فى تدمير أو مـسخ الإنسـان ، وإنما من أجل ازدهاره . وذلك عن طريق تثـبـيت غـايات إنسانيـة للعلـم ، فالعلـم التجـريبى والعلم الرياضى لايمنحـانا الغايات ، فى حين أن الحكمة ـ وهى التفكير حول الغايات ـ تتيح لنا استخداما آخر للعقل . ومثل هذه الحكمة قد أصيبت بالضمور فى الغرب . فلا الفلسفة ولا اللاهوت عادا قادرين على القيام بهذا الدور التكميلى : للعلم الذى يوفر الوسائل ، وللحكمة التى تحدد الغايات .

إن العقل الغربى المحصور فى البحث عن الوسائل بوصفها غايات فى ذاتهـا ، يقـود العـالم إلى الدمـار ، عن طريق اسـتـغـلاله للذرة والصواريخ والجينات بدون حكمة .

إن الإيمان هو البعد الثالث لكل عقل متكامل . فلا العلم فى بحثه عن الأسباب ، ولا الحكمة فى بحثها عن الغايات ، يصلان إلى علة أولى أو غـاية نهـائيـة . يبـدأ الإيمان مع الوعى الواضح بحدود العـقل وحـدود الحكمـة ، ومن ثم فـهـو مـسلمـة ضـرورية لانسـجـامـهـمـا ووحدتهما . هذا الإيمان ليس منافسا للعقل أو تحديدا له ، وإنما الإيمان هو عقل بلا حدود .

* * *

الخلاصة، يجب تغيير دور التاريخ فى التعليم بشكل جذرى، ويجب أن يحل البحث فى المصادر محل نقل الأساطير.

فما قد جرت العادة على تسميته بالعالم المستَعمَر حتى منتصف القرن العشرين، أو تسميته بالعالم الثالث فى عصر تصارع الكتلتين الشرقية والغربية، أو ما يطلق عليه بشكل ثابت اسم البلاد النامية (وفق معايير الغرب للنمو). كل هذه الأسماء لا تظهر فى الكتب المدرسية ووسائل الإعلام إلا بوصفها تهديداً لأمن الغزاة: سواء كانوا هنودا حمرا أو فلسطينيين. فأمام رعاة البقر الأمريكان لا يمكن للهندى الطيب إلا أن يكون قتيلاً أو عميلاً لهم، أو الفلسطينيين المنفيين من أراضيهم المسلوبة، والمقتولين بطلقات الرصاص، والذين لا يملكون من أسلحة فى المقابل سوى بعض أحجار قديمة من أرض أجدادهم. فإن حال هؤلاء الفلسطينيين يسمى هنا أيضا بنفس الاسم الذى كان يطلق على المقاومة زمن الاستعمار، أو فى زمن هتلر حيث كان التصدى للمحتل يسمى إرهابا. فى حين أن إسرائيل تطالب بأمنها وهى تهدد أمن كل جيرانها، وتحتل حدود بلادهم، فى استهانة بكل قانون دولى، أو حتى بأية إدانة أفلاطونية من قبل الأمم المتحدة. مع أنها تصر إصرارا مستمرا على وضع برنامج لزلزلة وحدة كل الدول المجاورة لها من الفرات إلى النيل(١٤).

هنا نجد مسيرة استعمارية نموذجية، فقد كتب تيودور هرتزل Théo-dore Hertzl مؤسس الصهيونية منذ قرن من الزمان يقول: «سوف نكون حصنا بارزا ومتقدما للحضارة الغربية فى مواجهة بربرية الشرق». مثله فى ذلك مثل هانتنجتون Huntington منظر البنتاجون الذى وضع - بعد قرن من بداية الحركة الصهيونية فى كتابه «صدام

الحضارات» ـ الحضارة اليهودية المسيحية فى مقابل التحالف الإسلامى الكونفوشى.

هنا نجد نفس التصور الأسطوري، ونفس الصيغ التى توائم بين نفى وقتل الهنود من قبل الولايات المتحدة، ونفى وقتل الفلسطينيين من قبل صهاينة إسرائيل، الذين تتطابق سياستهم العملية مع سياسة التمييز العنصرى والتوسع الاستعمارى لحليفتهم أمريكا.

نفس الرفض للآخر وللحوار الخصب بين الثقافات هو الذى دفع منذ قرون، منذ عهد يشوع حتى يوليوس قيصر، ومنذ عصر بيزار حتى نيتنياهو، الغربيين لأن يكونوا صيادين للناس، لأن يكونوا أبطالاً أسطوريين أو تاريخيين لكل الحملات الصليبية، ولكل الغزوات الاستعمارية، ولكل أشكال السيطرة والقتال.

لقد اقتضى التاريخ المكتوب دائما بقلم الغالبين، أن يكون الانتصار لحضارة وقانون الأقوى(١٥).

وحل التعميد الرسمى لهذه النزعة الأسطورية محل ما هو تاريخى بمعنى الكلمة، من أجل التغطية على خديعة أخرى، ألا وهى أن كل الشعوب والحضارات غير الغربية ليست إلا ملاحق ثانوية لتاريخ الغرب. فهى لا تدخل فى حيز التاريخ إلا إذا اكتشفت من خلال الغرب. إن التاريخ الذى تنقله لنا الكتب المدرسية ليس إلا تاريخ الغرب وقد ألحق به تاريخ الشعوب الأخرى، تلك التى تبدو دراستها عملاً قاصرا على المتخصصين فى الكوليج دى فرانس Collége de France، أو فى مدرسة اللغات الشرقية. أما بالنسبة لطالب المدرسة الابتدائية أو الثانوية، فليس لديه إلا بضعة

فصول للقراءة عن ماركو پولو Marco Polo(*) فى آسيا، أو عن سوفرنيان دى برازا Savorgnan de Brazza(**)، أو عن فادهرب Faidherbe(***) فى إفريقيا. وليس لديه أى شىء عن الصين، التى أدت اكتشافاتها العلمية إلى نهضة أوروپا. كما أنه لا يعلم شيئًا عن إمبراطوريات شنغهاى التى جعلت من إقليم تومبوكتو واحدا من أكبر مراكز البحوث الرياضية، وهو لا يعلم أيضا شيئًا عن حضارة المايا التى اخترع علماء الفلك فى رحابها تقويما أكثر دقة من التقويم الجريجورى Grégorien، وقبل هذا الأخير بعدة قرون.

إن المركزية العرقية للغرب هى من القوة بحيث إن موسوعاتنا وكتبنا المدرسية تجعل مثلاً من جوتنبرج Gutenberg مخترعا للطباعة، فى حين أنها قد اخترعت فى الصين وموَرست من قبله بخمسة عشر قرنًا من الزمان. كما أن هذه الموسوعات والكتب تجعل هارڤى Harvey هو مكتشف الدورة الدموية، فى حين أن الطبيب العربى ابن النفيس - الذى ولد عام ١٢١٠ أى حوالى ٤٠٠ سنة قبل ميلاد هارڤى، و ٣٠٠ سنة قبل ميشيل سيرڤى - Michel Servey - كان قد قدم فى ثنايا شروحه لابن سينا وصفا مبسطا ورسما توضيحيا للدورة الدموية.

(*) ماركو پولو: رحالة من ڤينيسيا (١٢٥٤ - ١٣٢٤) استطاع عبور آسيا مع والده وعمه، ووصل إلى الصين حيث عاش فى حضرة الإمبراطور لمدة ١٦ عاما عاد بعدها إلى بلاده وأملى كتابه «كتاب عجائب العالم» فى عام ١٢٩٨ ضمنه رحلاته الطويلة المثيرة.

(**) برازا: (١٨٥٢ - ١٩٠٥) مكتشف فرنسى من أصل إيطالى - استطاع أن يضمن سيطرة فرنسا على الكونغو (١٨٧٥ - ١٨٨٥).

(***) فادهرب: (١٨١٨ - ١٨٨٩) عسكرى فرنسى، حكم السنغال ساهم فى إنشاء ميناء داكار. كما ساهم فى توسع الاستعمار الفرنسى فى غربى إفريقيا.

هكذا اتخذ كل غزو أو عدوان استعمارى شرعية له باسم الحضارة، كما كانت توسم كل مقاومة من قبل الشعوب المنهوبة دائما باسم الإرهاب .

(جـ) الأسطورة والتاريخ فى إسرائيل

إن الأسطورة التى حلت محل التاريخ قد وصلت إلى أقصى مدى لها من الوحشية فى الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية ، وفى الحيز الواقع بين الشرق والغرب ، أى تحديدا فى فلسطين .

وقد بينا ذلك فى كتابنا «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية»(*) ، وشجبنا التزييف الوقح للتاريخ ، ولهذا حظى الكتاب باهتمام عالمى ، وترجم فى ثلاثين بلدا : فى اليابان والصين و روسيا وكل أوروبا من اليونان إلى إنجلترا ، ومن أمريكا الشمالية إلى البرازيل . كما يلتقى الكتاب مع الأبحاث الحالية التى يقوم بها المؤرخون الجدد فى إسرائيل نفسها ، حيث أصبح تعبير «الأساطير المؤسسة» شائعا ، وخصوصا منذ فتح أرشيفات الدولة الإسرائيلية بعد خمسين عاما من السرية .

فى الواقع أن الأساطير الصهيونية المنتشرة بشكل مكثف فى كل أرجاء العالم ، تجعل من الجرائم النازية أمرا غير مفهوم . فأحيانا تعزى هذه الجرائم إلى سبب وحيد هو الهذيان المعادى للسامية لدى هتلر ، وأحيانا أخرى تعزى إلى الجنون الشيطانى للشعب .

(*) أصدرت دار الشروق ثلاث طبعات منه .

فى الحالة الأولى نسلم بوجود شيطان غريب على التاريخ كغربة أحد سكان الفضاء الهابطين من السماء إلى الأرض، وفى الحالة الثانية ـ وحتى يمكن لنا أن نفسر وجود شعب وافق معظمه على الهذيان ـ نسلم بوجود شعوب ملعونة، كما نسلم بوجود شعبا مختارا من قبل إله منحاز يلقى من عليائه بأقدار اللعنة والبركة على شعوب بأكملها. وهذا التصور الأخير هو الأكثر شيوعا لأنه هو الوجه الآخر للزعم بالاصطفاء الإلهى. وهو ما نجده على سبيل المثال عند كاتب مثل جولدهاجن Goldhagen الذى يرى أن كل الشعب الألمانى وثقافته كان مقدرا لهما القيام بهذه الجريمة، وهو نفس التصور الذى يراه برنار هنرى ليفى Bernard Henri Lévy بالنسبة للشعب الفرنسى(١٦).

إن كل هذا ينسجم مع المنطق التام للاعتقاد فى شعب مختار انتشله الله من الفسق الذى يغمر باقى الشعوب.

هناك عقيدة أخرى، مترتبة منطقيا على الاعتقاد فى فكرة شعب الله المختار، وهى الخاصية الفريدة لمذبحة اليهود، التى اتخذت بعدا استثنائيا مقدسا لاهوتيا: فمصطلح الإبادة الجماعية L'holocauste(*) هو مصطلح خاص باليهود وحدهم.

وأمر كل الضحايا الآخرين ـ على مر التاريخ ـ بما فيهم ضحايا الهمجية الفاشية، ليس إلا أمرا تافها ودنيويا. فهؤلاء الضحايا لا يدخلون فى إطار الاعتبار الإلهى الذى ينتخب ويستثنى.

(*) مصطلح يهودى يعنى فى الأصل الاحتراق الكامل للضحية، وقد تم استخدام هذا المصطلح للتعبير فيما بعد عن الإبادة النازية لليهود فى عهد هتلر.

فباستثناء الشعب المختار، ليس الآخرون سوى وحوش للعرض، ويحتل هتلر وأتباعه من الجلادين المتطوعين مقدمة العرض. فسواء اخترع الإنجليز معسكرات الاعتقال فى حرب البوير Boers(*) وسواء أكانت الهندسة الوراثية تستخدم المعوقين فى تجاربها وتقتلهم، أوكان فاتحو أمريكا قد ذبحوا ملايين الهنود، أم أن كل أوروبا ساهمت فى تجارة العبيد السود، أم أن الأرمن كانوا ضحايا للمجازر، أم أن هملر Himmeler(**) كان قد حدد لنفسه هدفًا ألا وهو تصفية السكان السلافيين، وقصرهم على ٣٠ مليونا. (Jean - Marc Varaut: Le Procés de Numreberg: 1992; p57) ـ فإن كل هذا لا يساوى شيئا إزاء اضطهاد اليهود «اليهود وحدهم» كما يقول جولدهاجن Goldhagen (فى كتابه p3. 319 à 7) .

وهكذا يصح على كل ماعدا هؤلاء المختارين التعبير الذى أطلقه بيجين بعد مذابح صابرا وشاتيلا الدامية التى كان قد دبرها آريل شارون: («غير اليهود» قتلوا «غير اليهود»، ما دخلنا نحن فى ذلك؟).

(*) حرب البوير فى عام (١٨٩٩ ـ ١٩٠٢). هاجر بعض الأوربيين البروتستانت إلى جنوب إفريقيا وكونوا دولة هناك طردوا على أثرها المواطنين الأصليين، فى عام ١٨٣٦ ـ ١٨٥٢. ولما رفضوا السيطرة البريطانية على المنطقة شنوا حربًا على البريطانيين منذ عام ١٨٩٩ حتى ١٩٠٢. وقد انتهت الحرب بهزيمة الأوائل، وإن ظلت إرادة الهيمنة الأوروبية سائدة فى جنوب إفريقيا حتى تم تحررها مع الزعيم الإفريقى مانديلا.

(**) هملر: (١٩٠٠ ـ ١٩٤٥) سياسى ألمانى. وكان زعيم الجستابو فى عام ١٩٣٤، ثم رئيسًا لكل قوى الشرطة الألمانية وإليه يعزى اضطهاد أعداء ألمانيا، وقد مات منتحرًا بعد القبض عليه.

ولكن هناك شعبا واحدا آخر يستمتع بامتياز الطهارة هو شعب الولايات المتحدة الأمريكية، التى حدد واحد من رؤسائها هو تيودور روزفلت سياسته العنصرية بقوله :

«إن أكثر الحروب عدلاً على وجه الأرض هى الحرب ضد المتوحشين البدائيين. إن المستعمر القاسى الفخور الذى يطرد الهمجيين من أراضيهم يستحق العرفان بالجميل من قبل كل المتحضرين. إن العالم لم يكن له أن ينجز أى تقدم لولا نفى وسحق الشعوب البدائية والبربرية بواسطة مستعمرين مسلحين، من جنس أولئك الذين يقبضون على مصير القرون القادمة بأيديهم»
.(Victoire de L'Ouest ; N.Y.1889: 1. p119)

(وقد استشهدت محكمة نورمبرج بقول تيودور روزفلت هذا فى معرض إطراء وتقريظ، فى المجلد الرابع ص ٣٥، ٢٧٩، ٤٩٧، من النسخة الإنجليزية)

وفى طبعة عام ١٩٧٠، عن تصريحات الرئاسة لتيودور روزفلت، نجد ما يلى :

«إن الحرب التى مدت جذور الحضارة على حساب البربر والبدائيين، كانت واحدة من أكفأ عوامل التقدم الإنسانى»
.(Vol I; p62- 63)

من الملاحظ أن محكمة نورمبرج قد نصت فى مناسبات عديدة على اقتباسات مشابهة مما قاله هتلر، مثل: **«الجنس الأسمى أخضع جنسًا أدنى بسبب حق الأقوى على الضعيف، كما هو الحال فى الطبيعة، لأنه الحق الوحيد المقبول المؤسس على العقل»**.

وفى عام ١٩٤٥ ، وبعد دك طوكيو بالقنابل ، التى أدت إلى مصرع ١٠٠ ألف شخص من المدنيين ، كان قائد العملية يقول لجنوده : «اسلخوهم، اسلقوهم، اشووهم» ، ولم تكن هناك احتجاجات ذات بال لدى الرأى العام الأمريكى . فقد أضاف إليوت روزفلت ابن الرئيس روزفلت يقول : «إنه يجب قصف اليابان حتى نتمكن من تدمير ما يوازى نصف السكان المدنيين» .

وفى إحصائية لمجلة فورشون Fortune ، فى ديسمبر ١٩٤٥ ، نجد أن ربع الذين تم استجوابهم من الأمريكيين ، يتمنون أن تستخدم الولايات المتحدة المزيد من القنابل الذرية قبل أن تتمكن اليابان من استعادة قواها (Dower, War without mercy.p30;4à;-41;53-55) .

هيروشيما ونجازاكى لم تكن كافية لهؤلاء الذين يدافعون عن حقوق الإنسان .

إن الإعدام التعسفى لثلاثة آلاف زنجى فيما بين عامى ١٨٨٩ و١٩٣٠ ، والآذان المقطوعة للأسرى اليابانيين فى عام ١٩٤٥ ، وجماجمهم التى كانت تستخدم كزينة للعربات الحربية ، أو كوحدات للديكور خلف الفتيات فى الصور المنشورة فى مجلة «لايف Life» (Ibidem p65)ـ هذه الروح مازالت تلهم جولدشتين ونيتنياهو وأشباههما ، فقد تعلم كلاهما فى الولايات المتحدة على نحو ما بينه الصحفى الإسرائيلى آرى شافيت صبيحة الجريمة التى وقعت ضد الإنسانية فى قانا ، إذ قال :

«لقد قتلنا ١٧٠ شخصا بعضهم كانوا من النساء والشيوخ، وكان من ضمنهم طفل عمره عامين، لقد حرصنا على قتلهم عن بعد، لقد قتلناهم لأن هناك فجوة تفصل بين سمة القداسة التى نضفيها على

حياتنا أكثر فأكثر، وننكرها على الآخرين أكثر فأكثر، وهذا هو ما سمح لنا بقتلهم» (Journal israélien Haartz ; New York Times
. Syndication ; traduit dans Libération du 21 Mai 1996) z

إن الفلسفة الكامنة خلف هذه الرؤية للعالم هى من إنجاز الكاتب اليهودى إيلى ڤيزيل Elie Weisel ، فهو يجعل من نفسه شاهداً مطلقًا، إذ يقول: «إن الذى يرفض أن يصدقنى، فهو بالضرورة يناصر هؤلاء الذين ينفون الإبادة الجماعية لليهود». وهو يدين بهذه العبارة المعارضين لقصف لبنان بالقنابل، والذين قد بذروا بذور الشك فى إسرائيل. عندها كتب إيلى ڤيزيل يقول:

«ألم يكن من الأفضل دعم إسرائيل بلا شروط وبلا مقابل، دون الالتفات إلى العذابات الدائمة لسكان بيروت» (Against Silence; N.Y. 1984.Vul. II 213 -216).

منذ حرب الأيام الستة، كتب نورمان پودوريتز Norman Podoretz يقول: «إن دولة إسرائيل هى اليوم دين اليهود الأمريكيين» (Breaking Ranks ; N.Y 1979) .

هذا التحريف للتاريخ، وما ترتب عليه من نتائج دامية يرجع إلى هذا التوافق الغريب الأمريكى الإسرائيلى الذى تحقق فى الخمسين سنة الأخيرة، والذى إذا قلبنا موازين القوى فيه، لأدركنا أن الولايات المتحدة هى اليوم مستوطنة من مستوطنات إسرائيل.

أما المثل الأكثر دلالة على التلاعب بالتاريخ واستخدامه لتبرير أسوإ أشكال الابتزاز، فهو ما يقوم به الصهاينة ـ الذين أصبحوا قادة لدولة إسرائيل ـ من تلاعب بالتاريخ. وهذا هو ما يفسر غضبهم الشديد من كتابى «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية». هذا

الكتاب الذى يرصد محصلة خمسين عاما من أكاذيبهم الدامية، وهو ما يفسر أيضا الصدى العالمى المدوى لهذا الكتاب الذى ترجم فى ٣٠ بلدا و٤ قارات من العالم.

لم أكن الأول ولا الوحيد الذى قام بهذا العمل النقدى للتمييز بين الأسطورة والتاريخ .

ولا أدعى لنفسى الفضل، ولكن فداحة الكارثة تأتى من الانتقادات، وذلك لسببين رئيسيين :

الأول : أن أطروحتى جاءت بعد وقت قليل من اللحظة التى أصبح الكذب فيها، ليس فقط مقدسا، بل ومشروعا بقوة القانون الفرنسى، للأسف !!

فالقانون المسمى بقانون جيسو يدين بشكل غير مسبوق كل دراسة نقدية للحكم الذى أطلقه المنتصرون على الجرائم التى ارتكبها المهزومون فى الحرب العالمية الأخيرة، وهو ما كرسته محكمة نورمبرج، فى حين أن رئيس المحكمة نفسه وهو القاضى الأمريكى جاكسون، قد أقر بأن هذا الحكم هو آخر أعمال الحرب، مسوّغا كونها محكمة طوارئ، غير ملزمة باتباع القواعد القانونية والإدارية للتقاضى. ومن هنا فلا يمكن لها أن تكون حجة قانونية، وبالأحرى لا يمكن أن تكون معيارا للحقيقة .

السبب الثانى لهذا التحامل القانونى والهجوم الإعلامى على كتابى، يرتبط بكونه يلتقى بالدراسات النقدية التى يقوم بها المؤرخون الإسرائيليون الجدد، الذين شجبوا نفس الأساطير، وأبطلوا بذلك ادعاءات الهيمنة الاستعمارية للقادة الإسرائيليين. فنقضوا هم أيضا ما كان حتى الآن إجماعا على الأسطورة المؤسسة .

لقد أطلق كتابى «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» العاصفة حين صدوره فى عام ١٩٩٦ ، وهاهو ذا فى عام ١٩٩٧ الأستاذ زيف شترنل Zev Sternell أستاذ العلوم السياسية فى الجامعة العبرية بالقدس يكتب كتابه : «الأساطير المؤسسة للقومية الإسرائيلية» ، الذى نشر عن طريق دار النشر الشديدة الأكاديمية Princeton University Press ، وقد نشرت صحيفة لو موند ديپلوماتيك Le Monde Diplom-atique فى مايو عام ١٩٩٨ ، وقبل صدور الترجمة الفرنسية لكتاب هذا الأستاذ ، مقدمة له يقول فيه : «التساؤل عن أساطيرنا المؤسسة لم يكن أبدًا بمثل هذا الانتشار» .

هذا النقد التاريخى يسمح بالكشف عن سوء النية السياسى لاستغلال «الأسطورة اليهودية» . إن القومية اليهودية ـ كما يقول ـ لا تختلف كثيرا عن القومية فى أوروپا الوسطى أو الشرقية التى يطلق عليها «الشعب» Volkishe (أى القومية المؤسسة على رابطة الدم) والثقافة والدين ، كعناصر موجهة لعبادة الماضى التاريخي . وهذه القومية اليهودية لا تجد أى صعوبة فى أن تنزع عن الآخرين نفس الحقوق الأساسية التى تنسبها لنفسها . كما أن التصوف الذى ينشد الأرض ، والذى يملى على حكامنا المتتالين سواء أكانوا من اليمين أو من حزب العمل قرارهم السياسى المتعلق بالأرض ، يحيل دائما إلى تلك الاستمرارية التاريخية الدينية ، التى كانت الأساس الأول للحركة الصهيونية . هناك عالم يفصل الكتاب والفنانين اليوم عن الأسماء الكبيرة للجيل السابق المرتبطة دائما بفترة التأسيس للعمل من أجل إسرائيل الكبرى بعد حرب الأيام الستة» .

إن كتاب شترنل Sternell، ليس كتابا فريدا، إنه ليس إلا واحدا من المراجعات، التى أظهر المؤرخون الجدد فى إسرائيل ضرورتها.

واحدٌ منهم، هو بينى موريس Benny Morris، تخلى حتى عن اسم المؤرخين الجدد: فالأمر عنده يتعلق بالمؤرخين فحسب، لأن ـ كما يقول فى جريدة هاآرتز ـ حتى الآن، لم تكن هناك إلا الميثولوچيا، وها هى ذى كل الأساطير تتساقط الواحدة تلو الأخرى.

أولاً: أسطورة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»(*).

هى قديمة قدم قرن من الزمن، والتى استعيدت بشكل رسمى من خلال السيدة جولدا مائير، التى نفت حتى وجود الشعب الفلسطينى. وحتى يعطوا مصداقية لأسطورة بلا جذور، قام القادة الصهاينة بتدمير ٨١٪ من قرى الفلسطينيين بالبلدوزر، وذلك ليقنعوا الزوار أنهم قد خضّروا الصحراء. ومنذ عام ١٩٧٥ وضع البروفيسور إسرائيل شحاك من الجامعة العبرية فى القدس ـ وفى كتابه «عنصرية دولة إسرائيل» ـ قائمة لـ ٣٨٣ قرية فلسطينية كانت قد هدمت مع سبق الإصرار. واليوم بعد فتح الأرشيفات الرسمية، كانت هذه «الخطيئة الأصلية لإسرائيل» طبقا لعنوان كتاب دومينيك ڤيدال Dominique Vidal، الذى يلخص أعمال المؤرخين الجدد (بنى موريس Benny Morris، آڤى شلاعيم Avi Schlaim، إيلان پاپ Ilan Pape، ورائدهم سمحة فلاپان Simha Flapan)، تدمر بصورة جذرية الأسطورة الرسمية، وتكشف عن أن الفلسطينيين لم يخرجوا طواعية

(*) ترجع هذه العبارة إلى الصهاينة المسيحيين المتطرفين فى الولايات المتحدة الأمريكية. انظر كتاب تلمود العم سام ـ منير العكش.

استجابة لنداء الإذاعات العربية. لقد طردوا بالقوة العسكرية. وقد تم العثور على الأوامر المكتوبة بذلك والتى صدرت إلى الضباط المسئولين.

إن اكتشاف هذه الوثائق الدامية أصبح ملحوظا لدرجة أنه أصبح موضوعا لمسلسل فى التليفزيون الإسرائيلى هو مسلسل تيكوما Teku-ma، الذى عرض أمام جمهور المشاهدين كيف تم اقتلاع ٧٠٠ ألف فلسطينى من ٤١٨ قرية تم تدميرها (وهو عدد يفوق ما ذكره إسرائيل شحاك)، وكيف ظل «١٥٠ ألف عربى فى إسرائيل كمواطنين من الدرجة الثانية» (مقال فى جريدة لو موند بتاريخ ١٤ من إبريل عام ١٩٩٨، تحت عنوان من الأسطورة إلى التاريخ)[١٧].

هذه هى نتائج أبحاث المؤرخين الشجعان الذين (وبحسب عبارة المقال نفسه) قد قاموا بتقويض الأساطير.

هناك باحثون من مركز البحوث القومية C.N.R.S فى فرنسا على خلاف چان كريستوف Jean Christophe وآتس Attis وإيستر بنباسا Esther Benbassa لا يسمحون بأقل نقد لإسرائيل، على العكس من بعض قطاعات للجماعات اليهودية الموجودة فى المهجر الذين كانوا يرون أن هذه الخميرة النقدية شديدة الفائدة (جريدة لو موند فى ٢٩ من إبريل عام ١٩٩٨).

كان الأمر يتعلق فعلاً بقطاعات من اليهود، لأنه فى مقابل ملايين اليهود الفرنسيين، هنالك ٥١ ألفا فقط ينتمون إلى منظمات صهيونية CRIF و LICRA وغيرهما. وكما كان الحال، حين تقلد هتلر السلطة، ٥٪ فقط من اليهود المنظمين كانوا ينتمون إلى الحركة الصهيونية (هؤلاء الذين تحالف معهم هتلر لأنهم كانوا يقرون ـ حسب

رغبته ـ برحيل اليهود إلى فلسطين. فى حين أن رابطة الألمان اليهود وهم يمثلون ٩٥٪ من الطائفة، كانوا يطالبون بأن يصبحوا ألمانا كاملى الأهلية، مع الاحترام المشروع لديانتهم، وهؤلاء هم الذين تحامل النازى عليهم).

هذه المراجعة الجذرية لدور الدولة فى الدعاية للأساطير يهدم بلاشك مصداقية الصهيونية فى عبادتهم للشواه Shoah[*] بدعوى «الذود عن الذاكرة». وهكذا يتحول هذا الحدث الدامى إلى أقصى تبرير للصهيونية، ولإقامة دولة إسرائيل. ويصر ما بعد الصهاينة على أن نفصل الفحص التاريخى «للشواه» عن الصراع العربى الإسرائيلى. فالعرب لم يكن لهم أدنى مسئولية عن مذابح اليهود التى ارتكبها الأوروبيون. فالشواه لا يمكن أن تستخدم كذريعة للاستعمار الصهيونى.

وقد خلص كل من آتيس Attis وإيستر بنباسا Esther Benbassa إلى أن نقد الأساطير الرسمية هو نقد ثرى بلا مراء، ليس فقط لأن هذا النقد يكشف الأكاذيب المبررة للاستعمار الحالى على لسان القادة الإسرائيليين، ولكن لأنه يفتح طريقا للبحث الأصيل فى تاريخ اليهود كله «الذى أعيدت كتابته فى القرن العشرين وفق المنشور الأيديولوچى الصهيونى» (مقال منشور فى ٢٠ من إبريل عام ١٩٨٨).

(*) الشواه: كلمة عبرية تعنى «حرق القربان» فى الديانة اليهودية، ولكنها فى استخدامها المعاصر تشير إلى ما لاقاه اليهود من ترحيل واعتقال واضطهاد فى الحرب العالمية الثانية ـ والغرض من استخدام هذه الكلمة هو إضفاء طابع القداسة على معاناة الشعب اليهودى.

هذا التمييز الجذرى بين السياسة الصهيونية والدين اليهودى، يتلاقى والتقاليد العظيمة لبرنار لازار Bernard Lazare وحنا آرنت Hannah Arendt(*) الذين يعرفان الصهيونية بما يلى: «نظرية بمقتضاها تكون هناك دائما علاقة من العداء للسامية بين اليهود وغير اليهود» The Jew as pariah ; New York 1980

حنا آرنت تذكرنا «بأنه بالنسبة للصهاينة، كل من هم غير يهود هم معادون للسامية، ووفق هرتزل، يمكن تقسيم العالم بين هؤلاء الذين يعادون السامية بشكل واضح، وأولئك الذين يخفون عداءهم للسامية».

وهى تخلص إلى أن «هذه الحالة - هى بلا شك - حالة شيفونية عصبية خالصة. وهذه القسمة بين اليهود وسائر الشعوب لا تختلف عن النظريات الأخرى الخاصة بالأجناس الأرقى» (Pour sauver la partie juive; dans Commentry ; mai 1948; p 401).

وفيما يخصنى، أنا فخور، لأنى شاركتُ فى هذا الجدل الواسع حول التاريخ والأساطير التى كشف البروفيسور شترنل عن استخداماتها السياسية والقومية، إذ يقول: «التاريخ هو دائما أداة لبناءفوقى، وقد كلفنا الأمر ٥٠ عاما حتى نرى الصهيونية بشكل مختلف، ونرى أنفسنا فى المرآة بشكل أكثر موضوعية».

اليوم، الأمر لا يتعلق قط ببضعة أعمال منعزلة لبعض المؤرخين، ولكنه يتعلق بحركة واسعة تعى خطر السياسة الإسرائيلية الاستعمار

(*) حنا آرنت: (١٩٠٦ - ١٩٧٥) فيلسوفة يهودية أمريكية من أصل ألمانى. هى الأولى التى وازنت بين النظام النازى والنظام الستالينى. ولها العديد من الكتب فى الفلسفة السياسية التى حازت بها شهرة واسعة تدين بها الحكم الشمولى والإرهاب مثل كتابها «مصادر الحكم الشمولى» (١٩٥١).

المستفزة، وهو ما يمكن أن يكون مفجراً لحرب عالمية ثالثة . ونجد علامات على هذا الوعى فى دعوة يهود المهجر، وأصدقاء إسرائيل لإنقاذ السلام . وهو ما يدين الانحراف الحالى لحكومة إسرائيل القائم على الاستهانة والكذب والاستفزاز . هذه الحكومة لا تستطيع أن تدير ظهرها للأبد للعالم كله، ولا أن تستمر فى فرض الاحتلال العسكرى على الفلسطينيين، علاوة على التضييق الاقتصادى عليهم، ووأد كل طموح قومى لديهم، وذلك عن طريق تقليص الأراضى الفلسطينية إلى سلسلة من الأحياء المتناثرة .

هذا النداء قد تم توقيعه من قبل سبعة من الحائزين على جائزة نوبل، ثلاثة من معهد الدراسات العليا، وأربعة من الكوليج دى فرانس، وغيرهم من الأساتذة والباحثين الأكاديميين من أمثال روبير بادينتر وچاك ديريدا وپيير نورا وپيير فيدال Robert Badinter ; Jacques Derrida ; Pierre Nora ; Pierre Vidal -Naquet ومن الفنانين والعلماء من أمثال يهودى منوهين، آريان موشكين، سوزان سونتج، پيير سولاج Yehudi Menuhin ; Ariane Moushkine ; Suzan Sontag ; Pierre Soulages، وغيرهم .

وإن لم نذكر إلا مثلين فقط، فإن الكتب الأخيرة عن تاريخ إسرائيل لا تشير حتى إلى وجود الفلسطينيين، وهى تكرر الملحمة الذهبية لنشأة العالم الجديد بفضل الرواد، وبفضل الكيبوتز (المزارع الجماعية للإسرائيليين) . وهؤلاء كانوا بالفعل طوباويين ومثاليين فى البداية، ولكنهم لا يمثلون إلا ٣٪ من السكان . وقد شوهت روحهم الأصلية بفضل أمركة المدن (إسباغ الطابع الأمريكى عليها) واستعمار الكوكا كولا . وكما يقول عالم الاجتماع الإسرائيلى عاموس عوز Amos Oz : «فما من أحد يسمعنا، الإعانات المالية تذهب

للمستوطنات، والكيبوتز الذين رفضوا التكيف وقواعد الرأسمالية، من ضمن ال٢٨٣ كيبوتز ـ أصبحوا على حافة الهاوية» (جريدة لوموند، ٢١ من أبريل عام ١٩٩٨).

إن قلق الشباب كبير، كما يقول عاموس عوز وهو يشعر بالغربة: «فى الماضى كانت الحياة قاسية، ولكنها كانت ذات معنى، أما اليوم فلا نجد إلا العدم» (جريدة لو موند ٢٩ من إبريل عام ١٩٩٨)، وتوجز المغنية الإسرائيلية الشهيرة نوا Noa هذا الشعور بالسخط فى قولها فى نفس الصفحة:

«خمسون عاما مضت، ونحن لا نعرف أبدا ما الذى نريده؟ دولة يهودية، دولة لليهود، أم دولة ديمقراطية ذات طابع ثقافى يهودى... وحتى لو اقتضى الأمر تعديل الحدود هنا أو هناك، يجب أن توجد دولة فلسطينية، وستوجد».

ثم تضيف واضعة يدها على موطن الخلل: «إن المجتمع يتجمد عندما يفرض رجال الدين سلطتهم على كل مظاهر حياتنا دون اختيار منا، إنهم سرطان يسرى، وسوف يقتلنا».

ثانيًا: أسطورة ٦ ملايين يهودى ضحية للنازى.

المثل الثانى للانتهاك المتعمد لحق النقد التاريخى، وللاستهانة بالمصادر الأصلية الكامنة وراء الأسطورة، يتمثل فى الدفاع اليائس عن أسطورة لستة ملايين من البشر، مازالت تمثل العقيدة المركزية للهرطقة الصهيونية. فى حين أنه ما من أحد يستطيع أن يسوّغها.

إن المنهج الإحصائى يصطدم بهذا الفعل الأسطورى العنيد: ففى عام ١٩٤٢ كان هناك فى كل أوروبا عند أقصى توسع للنازية التى

وصلت إلى روسيا، بفضل هتلر، ٣ ملايين و١١٠ آلاف يهودى (كتاب اليهود الأمريكيين السنوى، ١١ سبتمبر عام ١٩٤٢) ـ مجلد ٤٣ ص ٦٦٦) (The American Jewish year book ; n-5702 du 11 Septembre 1942 Publié par The jewish Publication society of America; Vol 43; p 666) وطبقا للإحصائيات الموثوق فيها مثل: إحصائيات روپين Ruppin قبل الحرب، وإحصائيات المؤتمر اليهودى العالمى بعد الحرب ـ وأيا كانت فرضيات التقدير الاستقرائى لعدد وفيات ومواليد الجماعات اليهودية، فإنه على مدى ٢٠ عاما أمكن حصرهم وفقا لمعطيات أكيدة للوصول إلى نتائج أقرب إلى الصحة. فإذا ما افترضنا أن النازيين قد أبادوا كل المعتقلين (وهو ما يبدو مستبعدا لأنه فى عام ١٩٤٤ كان هناك ثمة اقتراح بمبادلة مليون يهودى بـ١٠٠ ألف عربة نقل)، فكيف أمكن قتل ٦ ملايين يهودى ؟

فرقم ٦ مليون لا يستند فى صحته إلا على شهادة اثنين من النازيين فى نورمبرج، كانا يؤكدان أن إيخمان Eichman قال لهما إنه قد قيل له إن. . . .

١ـ ووفق المعلومات الرسمية اليهودية، نجد أن عدد اليهود الذين كانوا يعيشون فى أوروپا أثناء تقلد الحزب الوطنى الاشتراكى للسلطة يبلغ ٦ , ٥ ملايين يهودى (وأثناء محاكمة إيخمان قال وكيل النيابة إن عدد اليهود ٧ , ٥ ملايين يهودى). وقد اتفق الصليب الأحمر السويسرى (Basler Nachrichten du 13-4-1966) وجريدة ييديش Yiddish فى نيويورك فى ١٣/ ٤/ ١٩٤٨، حول عدد المهاجرين اليهود ما بين عامى ١٩٣٣ و١٩٤٥، بمليون و٤٤٠ ألف يهودى. منهم ٤١٣ ألفا يعيشون

فى بلاد محايدة، أو فى إنجلترا بحسب ريتلينجر Reitlinger(فى كتاب الحل النهائى La Solution Finale : p34). ويقدر عدد اليهود المهاجرين إلى روسيا بمليون و٥٥٠ ألفا. مما يعنى أن عدد اليهود الذى كان من الممكن أن يسقط فى أيدى النازيين هو مليونان وستمائة أو سبعمائة ألف يهودى.

ولدينا طريقة أخرى للتحقق من صحة هذا العدد عن طريق مقارنة المعلومات: ففى عام ١٩٣٨، كان هناك ١٥ مليونا و٧٠٠ ألف يهودى فى العالم (World Almanach 1947، وقد صدر هذا الرقم عن الجالية اليهودية الأمريكية، وعن مركز الإحصاء للمعابد فى أمريكا).

بعد عشر سنوات من عام ١٩٣٨، كان هناك ١٨ مليونا و٧٠٠ ألف يهودى فى العالم (جريدة التيمز New York Times 22 Février 1948) بحسب الخبير الإحصائى هنسون وليام بالدوين Hanson Wil-liam Baldwin. وأيّا كانت نسبة المواليد اليهود (وفق أى شبهة ولو ضعيفة فى حقبة الاضطهاد هذه)، فمن المستبعد أن يكون عدد الذين أبيدوا ٦ ملايين يهودى.

وفى مجلة Die Tat فى زيورخ، فى عددها الصادر بتاريخ ١٩ من يناير عام ١٩٥٥، نشرت إحصاءات الصليب الأحمر الدولى والتى تقدر القتلى اليهود بـ٣٠٠ ألف يهودى لم يتم إبادتهم، وإنما أصيبوا بالأمراض ووباء التيفود، والمجاعة، والإنهاك وضربات القنابل.

يجب أن تطرح كل هذه الأرقام للمناقشة، فهى تستدعى بحوثا تاريخية عميقة، وما يجب استبعاده هنا هو وضع عقيدة غير قابلة للمساس أمام هذه البحوث. وخاصة فيما يتعلق بالبحث فى صحة

عدد الستة ملايين يهودى الذين أبيدوا، والذى هو غير قابل للتصديق على كل الفروض.

الطريقة الثانية الأكثر مباشرة للتحقق من صحة العدد، هى الطريقة التى أوصى بها بولياكوف Poliakov، وهى تقضى بجمع عدد الضحايا فى كل معسكر من معسكرات الغاز، ومن المستحيل بهذه الطريقة أن نصل إلى حاصل مجموع ستة ملايين. ولنبدأ بأكثر الاحتمالات بشاعة لعدد القتلى، فى أوشفيتز Auschwitz وهو الاحتمال الذى ورد فى التقرير السوفيتى بعد التحرير، والذى بموجبه تم تسجيل ٤ مليون قتيل عند مدخل المعسكر، وهو العدد الذى اعتمد رسميا فى نورمبرج، بموجب المادة ٢١ لقوانين المحكمة: «الوثائق والتقارير الرسمية لبعثات التقصى الموفدة من قبل حكومات الحلفاء لها قيمة الدليل الأصلى».

كان يجب أن يمر أربعون عاما، لتغيير هذا التسجيل: ذلك أن أفراد البعثة العلمية كافة كانوا يرون «أن الرقم ٤ ملايين هذا لا يستند إلى أى أساس جاد يمكن الوثوق به» بحسب عبارة السيد بيداريدا Bedarrida المدير الحالى لمعهد التاريخ والزمن فى مركز البحوث الوطنية الفرنسى C.N.R.S.

فإذا ما طالعنا أحدث البحوث والإحصائيات الموثوق بها، مثل البحث المقدم من راؤل هيلبورج Raoul Hillberg فى كتابه تدمير يهود أوروبا La Destruction des juifs d'Europe والصادر عن دار فايار Fayard عام ١٩٨٨، لوصلنا إلى مليون قتيل فقط فى أوشفيتز Auschwitz.

لقد تحول التسجيل التذكارى إلى نتيجة. والأكثر غرابة هو أن حاصل مجموع الضحايا (وفق الطريقة التى أوصى بها بولياكوف)

يظل دائماً ٦ مليون قتيل فى غرف الغاز، حتى بعد طرح ٣ ملايين من ٤ مليون يهودى(*) .

ونستطيع أن نستنتج، دون أن نغير حاصل الرقم النهائى، أنه عند المراجعة تبدو أعداد القتلى من اليهود بالنسبة لجميع المعسكرات أقل .

فمثلاً كم قتيلا يوجد فى ميدانيك Majdanek؟

ـ مليون و١٠٠ ألف قتيل بحسب لوسى داويدوڤريز Lucy Dawidovriez فى كتاب الحرب ضد اليهود، ١٩٨٧، The War against the jews ; Penguin books; 1987 p 191.

ـ ٣٠٠ ألف قتيل بحسب ليا روش وإبرهارد چايكل Lea Rosh et Eberhard Jaeckel ; Der Iod ist Meister im Dritten Reich ; Ed .Hoffmann und Camp ; 1991; p217

ـ ٥٠٠ ألف قتيل بحسب رول هيلبرج Raul Hilberg (op cit).

السؤال إذن الذى يطرح نفسه هو: أليس المقصود هنا هو الدعاية للنازيين الجدد (أو لحزب اليمين المتطرف فى فرنسا) أكثر من إرادة التحقق من هذه الحجة؟ «وإذا كان الكل يكذب فيما يتعلق بقضية عدد الضحايا اليهود، فلماذا لا يبالغون فى جرائم هتلر؟» .

إننا لا نكافح هنا من أجل التقليل من شأن جرائم النازية البشعة استنادا إلى أكاذيب التقوى، ولكننا نؤمن بأن الكشف عن الحقيقة هو أفضل طريقة لمقاومة البربرية .

(*) أوشڤيتز: معسكر فى پولندا، زعم اليهود إعدام ٤ ملايين بالغاز فى غرفه الثلاث. ثم هبط الرقم إلى مليون؛ أى بعد هبوط ضحايا أوشڤيتز من ٤ ملايين إلى مليون، يظل ضحايا النازى ٦ ملايين. (الناشر)

وفى الواقع ، يبدو الرقم نفسه ذا أهمية ضئيلة . فكما قلت مرتين من قبل فى ص ١٥٩ وص٢٤٧ فى كتابى ، إنه ما من أحد يقتل أحدا بسبب دينه أو انتمائه العرقى ، سواء أكان يهودياً (أو غير يهودى) ، إلا وكان مرتكبا لجريمة ضد الإنسانية ، فى كل الأحوال .

ولكن ما هو جريمة بالفعل ، هو استغلال هذا الرقم وتقديسه . فهذا الرقم يظهر فى الكتب المدرسية والموسوعات ، وهو مذكور بصفة دورية فى وسائل الإعلام والتليفزيون لإخفاء الجرائم الأحدث .

الأمر يتعلق فعلاً بتقديس ، لعقيدة ، لتابو ، ذلك أنه ما من مؤرخ يشعر بالقلق إذا حاول تقدير عدد الهنود القتلى فى أثناء الغزو الأمريكى من قبل الفاتحين الغربيين .

وقد قدر بعض المؤرخين عدد القتلى من الهنود بـ ٨٠ مليونا ، والبعض الآخر ٢٨ مليونا ، ويبدو أن الإجماع العلمى يدور حول ٥٧ مليون قتيل هندى .

كما أن لكل مؤرخ الحق فى أن يحسب بطرق مختلفة عدد قتلى تجارة العبيد السود . وقد جمع الرئيس سنجور Senghor (*) مجمل البحوث حول هذه القضية ، وتوصل إلى هذه النتيجة : لقد نفى حوالى من ١٠ إلى ٢٠ مليون عبد أسود إلى أمريكا ، ويبدو أنه عند كل محاولة للإمساك بواحد منهم كان يموت حوالى عشرة أفراد ، هذا علاوة على الخسائر الرهيبة فى الأرواح التى تسببت عن مشاق نقلهم إلى أمريكا . نستطيع إذن أن نقدر أن تجارة العبيد قد تكلفت حياة ١٠٠

(*) سنجور : رئيس السنغال المنتخب عام ١٩٦٠ وهو شاعر ورجل ثقافة ، عمل على تدعيم القيم الثقافية الإفريقية . وقد اعتزل الرئاسة عام ١٩٨١ ليعقبه الرئيس عبده ضيوف .

أو ٢٠٠ مليون إفريقي . ومع ذلك يمكن لنا أن نعدل هذا الرقم الذى يشمل ما يمكن أن يكون أكبر إبادة جماعية لشعب ما عرفها التاريخ . ولكن إذا تعلق الأمر بستة المليون يهودى ، وأيا كانت طريقة الحساب والاكتشافات المتوالية ، فمن المحظور تحت طائلة النفي ، والتهديد بالموت ، والمتابعة القانونية ، والتشهير الإعلامى ، أن يتم تغيير ولو رقم فى خانة الآحاد فى هذا العدد .

الكلمة الأخيرة فى كتاب پريساك Pressac ، Les crématoires d'Auschwitz 1995 «معسكرات الغاز فى أوشڤيتز» أن الحساب الختامى لضحايا أوشڤيتز هو ٨٠٠ ألف (p149) ، وذلك بعد مؤتمر ڤانسى Wannsee الذى تقرر فيه أنه لم يتم إبادة اليهود ولكن استبعادهم ، وبذلك ألغيت شهادة هوس Hoes حاكم أوشڤيتز .

فلسفة للوجود أم فلسفة للفعل ؟

لقد قلنا من قبل بأى معنى كان أوجست كونت قد وقع شهادة موت الفلسفة .

إن التركيب العظيم للفكر الغربى ، والذى وصل إلى أوجه مع هيجل(*) ، قد خط ـ فى الواقع ـ نهاية الفلسفة .

فبعد هيجل كان يجب على أساتذة الفلسفة فى الغرب الخروج من هذه الدائرة السعيدة ، فالبعض مثل كيركجارد(**) أعطوا

(*) هيجل : (١٧٧٠ ـ ١٨٣١) فيلسوف ألمانى مثالى ، أسس المنهج الجدلى الذى يرى أن الجديد يولد من الصراع بين المتناقضات ، وعن فلسفته ولدت الفلسفة الماركسية .

(**) كيركجارد : فيلسوف دنماركى (١٨١٣ ـ ١٨٨٥) عارض الفلسفة الهيجلية بفلسفته الوجودية المسيحية .

انطلاقـة جـديدة للاهوت عندمـا بينوا أن الإيمان ينتـمى إلى مـجـال السؤال وليـس مجال الإجابة .

وآخرون مثل ماركس أنزلوا الفلسفة إلى الأرض ، مرورا بفلسفة الوجود وفلسفة الفعل ، ليفتحوا مجالات جديدة لفكر بعينه ، فكر هو الذى سيشعل (الحماسة أو الكراهية) لدى ملايين الرجال والنساء (مع أو ضد) المنهج الماركسى الذى يحث على المبادرة التاريخية .

يقلب نيتشه(*) ـ فى النهاية ـ الأصنام التقليدية للثنائيـة الغربيـة رأسا على عـقب : الخيـر والشـر ، الوجـود واللاوجـود ، الصـحـيح والخطأ . ويمضى هذا الشـاعـر النبى إلى مـا هـو أبعـد مـن هـذه الثنائيـة ليطلـق سـراح الحياة : « فعـل الإبـداع و التهيـؤ والتجاوز» (Notes et aphorismes).

وعندمـا حطم نيتشه كل الأصنام اليـهـودية والهـيلينيـة «عرف فى سقراط وأفلاطـون أعـراض الانحطاط» (Le Gai Savoir;I;1) وتجرأ على التصريح بأن اليهودية قد تم إصلاحها على يد القديس بولـس ، لتسود على مـدى عشرين قرنا من الزمان : « فـالعهـد الجديـد ليـس إلا الطائر أبو زريق اليـهـودى وقـد تزيـا بريـش الـطاووس اليونانـى» (René Girard).

هذه هى مسيحية بولس ، «فالمسيحية ـ كما يقول نيتشه ـ هى ما أدانه المسـيح » (Note et aphorisme) المسـيح الذى يدعـوه نيـتـشـه «بالرسول السعيد بالبشرية الجديدة ، والذى مات ليبين لنا كيف نحيا» (L'Antéchrist : p3).

(*) نيتشه : فيلسوف ألمانى (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠) تأثر بفلسفة شـوپنهـاور . وهو يرى أن الوجود فى حالة إبداع دائم .

من أجل تدشين هذا التجديد، كان يجب على نيتشه أن يعلو على الفلسفة الغربية إذ يقول: «ولى فى ذلك رواد سابقون هم ڤادنتا(*) Vedanta وهيراقليطس(**) »(Notes et aphorisme).

فماذا كانت الفلسفة الغربية خارج إطار هؤلاء العمالقة؟

إن كتاب «حساء من أجل القطط» La bouillie pour les chats لڤيكتور كوسان Victor Coussin هو الرمز الذى يلخص هذه الفلسفة. ثم نجد بعد ذلك هذه النماذج الفكرية التى لا تتجاوز الحى اللاتينى، مع فلسفة الروح عند: هاملين Hamelin(***)، وبرونشڤيج Brunshvicg(****)، ودى لاڤال De Lavelle(*****)، ولو سين Le Senne(******)، الفكر فى هذه النماذج ينفصل عن

(*) ڤادنتا: نظام فلسفى ينسب إلى الهنود البراهمة، مؤسس على نصوص الأوپنشاد الصوفية، وعلى القوانين التى وضعها له الحكيم الهندوسى سنكارا فى نهاية القرن الثامن الميلادى وبداية القرن التاسع.

(**) هيراقليطس: فيلسوف يونانى فى القرن الخامس ق.م. وترتكز نظريته الفلسفية على التغير الدائم فى الوجود، وعبارته الشهيرة: «إننا لا ننزل إلى نفس النهر مرتين».

(***) هاملين: فيلسوف فرنسى (١٨٠٦ ـ ١٨٥٦) أثرت فلسفته الروحية فى مدرسة النقد الجديد.

(****) برونشڤيج: فيلسوف فرنسى (١٨٦٩ ـ ١٩٤٤) فلسفته المثالية مؤسسة على التحليل الرياضى.

(*****) لاڤال: فيلسوف فرنسى (١٨٨٣ ـ ١٩٥١) يهتم بالجانب الروحى فى الإنسان وبدور التسامى الإلهى فى إخراج الإنسان من عزلته الوجودية ومن أعماله «خطأ نرسيس».

(******) روبير لوسين: فيلسوف فرنسى (١٨٨٢ ـ ١٩٥٤) من أشهر أعماله: «مقالة فى علم الطباع» وقد أسس بهذا الكتاب «علم الطباع»، وهو علم يدرس الطبع من حيث هو مجموعة من الاستعدادات الفطرية التى تشكل الهيكل النفسى للإنسان.

الحياة، عن عالم «أكل العيش» كما يقول هوميروس، ليصبح الفكر هو «تاريخ خضوع الإنسان» كما يقول جيل ديلوز Giles Deleuze(*)، أو تاريخ الثورات العاجزة: «فأنت لست إلا تجريدا للثائر»، كما كان سارتر Sartre(**) يقول مخاطبا كامو Camus(***)، ولكن أكان سارتر شيئا آخر غير هذا؟

الفلسفة فى العالم المعاصر هى من ألعاب التسلية للمتخصصين المتميزين، هى الألعاب البهلوانية اللغوية. فالمفكرون بعيدون عن المشكلات الحياتية اليومية، وعن حركات حياة الشعوب، بقدر بعدهم عن الأزياء الراقية أو لعبة بنك الحظ monopoly .

ولنضرب مثلاً نموذجيا على دور هذه الفلسفة، عند أكثر هؤلاء الحواة اعتدالاً وشهرة فى وسائل الإعلام. إنهم مشعوذو الواقع:

فى عام ١٩٤٣، وفى غمار العاصفة النازية الدامية، كان سارتر يلعب «البينج بونج» فى كتابه «الوجود والعدم»، مسالما إلى الحد الذى مر كتابه أمام الرقيب الديكتاتورى دون أن ينفعل إزاءه (١٨). هذه مرة أخرى ينغلق فيها الكاتب على الوجود، فلا يستوعب الحرية إلا بوصفها تصدعا فى هذا الوجود، الأكثر اعتباطية من فلسفة أبيقور، ومن فلسفة انحراف الذرات وسقوطها فى الفراغ.

(*) ديلوز: فيلسوف فرنسى (١٩٢٥) يرى أن العقلانية تعوق الحرية وله دراسات عديدة عن نيتشه وبرجسون و«منطق المعنى».

(**) سارتر: فيلسوف فرنسى (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠) وعلم من أعلام الفلسفة الوجودية. من أهم مؤلفاته: الوجود والعدم، والوجودية مذهب إنسانى.

(***) كامو: كاتب فرنسى ولد فى الجزائر عام ١٩١٣ وتوفى عام ١٩٦٠ من أهم أعماله: رواية الغريب، وأسطورة سيزيف.

إن الحرية التى يؤسسها سارتر على هذا النحو لا تستطيع أن تكون إلا حرية سلبية : «إنها القدرة على أن تقول «لا» دون أن تكون لديك القدرة على الإبداع» . والخلاصة لديه كانت واضحة : «الحياة نوع من الشغف غير المجدى» ، كما كتب فى الصفحات الأخيرة من «الوجود والعدم» .

لقد كان هذا فى الوقت الذى كان القسيس بونهوفر Bonhoeffer(*) محبوسًا فى سجون الجستابو Gestapo ، بتهمة الاشتراك فى مؤامرة ضد هتلر . كان القسيس بونهوفر يتفكر فى الحياة والكفاح الحى ، كان يعارض التصدى والخضوع ، لا المفاهيم الميتة لكتاب «الوجود والعدم» أو لكتاب «الوجود والزمان» لهيدجر(**) ، وذلك قبل أن يقتل على يد النازيين .

وكثيرا ما كنت أتسبب فى غضب سارتر فى أثناء محادثاتى الودية معه ، فقد قلت له مرة : « إننى لم أجد شيئا إيجابيا فى فلسفتك ، لم أكن قد قرأته من قبل عند فيخته (Fichte(***)) . والفارق بينكما أن فيخته كان قد قطع علاقته بالوجود وبادر لوضع فلسفة للفعل ، فهو يعرف ضرورة مسلماته واستحالة البرهنة عليها فى نفس الوقت» .

ونستطيع أن نقول مثل هذا عن هيدجر ، فى ألمانيا ، وفى نفس الحقبة ، إذ جعل من نفسه راعيا للوجود ، واستمر فى غزل «الوجود

(*) بونهوفر : رجل لاهوت ألمانى . ومثّل روح مقاومة أبدتها الكنيسة البروتستانية ضد النازى مما كلفه الحكم عليه بالإعدام عام ١٩٤٥ .

(**) هيدجر : فيلسوف ألمانى (١٨٨٩ ـ ١٩٧٦) . اهتم بمشكلة الوجود ، وبتحليل اللغة الشعرية كتجلٍ للوجود .

(***) فيخته : فيلسوف ألمانى (١٧٦٢ ـ ١٨١٤) كانت الحرية مبحثه الأثير . وبذلك عُد من رواد الفلسفة الحديثة . أهم كتبه «نظرية العلم» ويقصد به علم الفلسفة .

والزمان» فى مكتبه الرئاسى الآمن فى المقاطعة، بمأمن من الوجود الواقعى الذى كان هتلريا فى ذلك الحين، ومن الزمن الواقعى زمن معسكرات الموت فى وقت الحرب.

أهون مما يستحق العناء أن نذكر آخرين، دون أن نبين عن نقطة وصولهم المشتركة: إنهم يخلطون بين غاية فلسفتهم وغاية الإنسان. والمثال النموذجي على هذا هو ألتوسير Althusser (*)، لأنه يعرض للماركسية وهى الفكر الأكثر حيوية فى قلب الجماهير، دون أن يصل إلى جذور هذه الفلسفة. فهو لا يتجاوز فى فلسفته حدود شارع الألما فى پاريس، وحدود دائرة مريديه فى الحى اللاتيني. ولا يعنى هذا الانتقاص من موهبة ألتوسير الشخصية والمهنية، ولكن لأنه يعكس روحا يائسا من الزمن، ويطبق بنيوية جافة، قاد تلاميذه إلى الظن «بأن الإنسان هو عروسة خشبية متحركة تتحكم فيها الأبنية».

ويصل ميشيل فوكو Michel Foucaut(**) إلى نفس النتائج، ألا وهى موت الإنسان.

وأساتذتنا فى الفلسفة يتبعون نفس الموضة، ويكملون نفس التقليد الوقور لهؤلاء الحكماء (***).

(*) ألتوسير: فيلسوف فرنسى (١٩١٨ ـ ١٩٩٠) خصص مباحثه فى دراسة الماركسية وميز بين أعمال ماركس الشاب المتأثر بهيجل، وماركس الناضج الذى وضع فلسفته الماركسية، كما أظهر الدولة بوصفها جهازا أيديولوچيا، هى ومختلف مؤسساتها.

(**) فوكو: فيلسوف فرنسى (١٩٢٦ ـ ١٩٨٤) من أهم مؤلفاته «تاريخ الجنون» و«أركيولوچيا المعرفة» و«الكلمات والأشياء» و«تاريخ الجنس».

(***) بالمعنى الذى نطلقه على الطفل المؤدب المطيع. وكلمة Sage بالفرنسية تعنى الحكيم، وتعنى المؤدب المطيع.

فى الفصول والمدرجات الجامعية التى يعزل فيها هؤلاء الأساتذة طلابهم عن ضجيج الشارع وعن زلازل الشعوب، يبدو الفكر الأحادى (أى غياب التفكير النابع مما هو صحيح سياسيا) متجاهلاً النظريات الرامية إلى الحفاظ على الوضع العالمى على ما هو عليه quo universel، فأصحاب الأيديولوچيات فى البنتاجون مثل فوكوياما(*)، يرون نهاية التاريخ فى الانتصار العالمى لما لا يجترئ على ذكر اسمه، ويختفى خلف كل العلاقات الاجتماعية، ألا وهو «وحدانية السوق».

باحث آخر أقل تفاؤلاً، وأقل شهرة هو هانتنجتون، الذى يريد هو أيضا تكريس التاريخ فى مواجهة أبدية بين حضارة يهودية مسيحية وبين تحالف إسلامى كونفوشى.

هاهى ذى تنويعات أخرى على موت الإنسان، ولكن مثل هذه النظريات لا نقبل على نقدها هى الأخرى، لأنها تقترب من أرض الناس ومن صراعاتهم الواقعية، بحيث يبدو للفلسفة التى تُدرس بالجامعة، أن مجرد الاقتراب منها يؤذيها.

ومن الأفضل أن نتحدث عن ميرلو پونتى Merlau Ponty(**)، كما هو الحال بالنسبة للمدعين، عندما يضعون فى مكان بارز فى

(*) فوكوياما: أمريكى من أصل يابانى ألّف كتابًا بعنوان: «نهاية التاريخ» يرى فيه أن الرأسمالية الغربية هى الشكل الأمثل الذى يصل به التاريخ إلى نهايته.

(**) ميرلو پونتى: فيلسوف وعالم نفس فرنسى معاصر، رد الاعتبار لرمزية الجسد، ويجد أن إيحاءاته أسبق فى التعبير من اللغة.

مكتبتهم «كتابات» لاكان Lacan(*)، التى لا يقرءونها، والتى يدور حولها الجدل بين المحللين النفسيين الذين هم على الموضة هذه الأيام (أى هؤلاء الذين يحاولون إدماج المنحرفين فى عالم مشوّه ومشوِّه) أكثر مما يعملون (كما هو حال واحد منهم هو إيريك فروم Erich Fromm) على تغيير هذا العالم حتى نستطيع أن نعيش بطريقة طبيعية وخلاقة، من أجل الإنسان.

وقد يضيف آخرون كتاب «الضرورة والمصادفة» لچاك مونو Jacques Monod، وذلك ليس على الإطلاق من أجل أن يتعلموا شيئا عن الإنزيمات، أو عن تطبيقات علم السبرنطيقا(**) على ظاهرة الخلايا، والتى قدم فيها چاك مونو مساهمة بارزة، ولكن من أجل أن يتعلموا شيئا من الصفحات الأخيرة للكتاب التى يسخر فيها مونو، خالطا الحابل بالنابل، من كارل ماركس ومن الأب تيبار دى شاردان Teilhard De chardin(***)، والذى يبدو أنه لم يقرأهما قط بجدية.

(*) لاكان: (١٩٠١ ـ ١٩٨١) محلل نفسى فرنسى، أعاد قراءة فرويد واستخلص نظريات جديدة فى تحليل النفس واللغة. من أشهر كتبه «كتابات» التى نشرت عام ١٩٦٦.

(**) علم السبرنطيقا Cybernétique: هو العلم الخاص بمجموع نظريات المعلومات والاتصالات وبمناهج ضبط النشاط المعلوماتى (الخاص بالأجهزة أو بمخ الإنسان) وقد ولد هذا العلم عام ١٩٤٧.

(***) دى شاردان: (١٨٨١ ـ ١٩٥٥) فيلسوف يسوعى فرنسى، شارك فى الحفريات التى تمت فى بكين فى عام ١٩٢٩، وفى شغفه الدائم بالبحث عن أصل الإنسان حاول التوفيق بين نتائج العلم الحديث وتعاليم الدين المسيحى. ووجد فى الذرة المادية طاقة روحية تزاوج طاقتها الفيزيائية. ولم تنشر أعماله، وأهمها: «الظاهرة الإنسانية»، إلا بعد وفاته فى عام ١٩٥٦.

يجب أن أضيف حتى أكون عادلاً - أن هذا التدهور للفلسفة ليس حكراً على الغرب الأوروبى - ففى الحقبة التى كنت فيها فى الاتحاد السوڤييتى شخصا ذا اعتبار persona grata كقائد شيوعى فرنسى مسئول عن الترجمة الفرنسية للأعمال الكاملة للينين، وكأستاذ فى أكاديمية العلوم فى روسيا - فى نفس الوقت، كان هناك اعتداد فى أكاديمية العلوم برأيى فى أربع مناسبات: المناسبة الأولى عندما حاولت أن أجعل ترجمة الآراء المادحة لهيجل قريبة من الفكر الفلسفى للينين. المناسبة الثانية عندما حصلت على إذن النشر مع مقدمة طويلة بيدى لكتاب «الظاهرة الإنسانية» للأب تيبار دى شردان (وقد أصبحت بذلك راعيا لأول يسوعى ينشر له شيء بالروسية منذ الثورة) . المناسبة الثالثة، كانت حين حصلت على موافقة على أن تدمج بالنشرة الروسية الجديدة لأعمال ماركس مخطوطات ماركس لعام ١٨٤٤ والتى تحتوى على جوهر فلسفته، وعلى نظريته الخاصة بالاغتراب. المناسبة الرابعة، عندما علمت فى دهشة بترجمة كتابى «واقعية بلا ضفاف» إلى اللغة الروسية. وكان هذا الكتاب يعارض فى وضوح الواقعية الاشتراكية . وفى الواقع كان الشاعر أراجون Aragon(*) هو الذى مدح كتابى فى موسكو، وأضاف أن هذا الكتاب لم يقرأه فى روسيا إلا العلماء، وبذلك استلقت انتباهى حين قدم إلى نسخة مكتوبا على غلافها «للمكتبات العلمية فقط» (إنه

(*) أراجون: كاتب وشاعر فرنسى (١٨٩٧ - ١٩٨٢) ينتمى إلى جماعة السيرياليين وعضو فى الحزب الشيوعى الفرنسى، حارب الشكل التقليدى فى كتابة الأدب، ومن أشهر أعماله الأدبية تلك التى خلدت قصة حبه لشريكة حياته إليزا.

نوع من التحذير شبيه بما عندنا من تحذير من بعض الأفلام لأقل من ١٨ سنة) .

* * *

إن الفلسفة بالمعنى الصحيح، أى التفكر فى الغايات وفى معنى الحياة، والمشاركة فى الفعل لتحقيق هذه الغايات وهذا المعنى، قد خانت رسالتها فى الغرب : شرقه وغربه على السواء .

لقد كانت رسالة الفلسفة من قبل هى رسالة رجال اللاهوت الكبار، الذين جاوزوا عصرهم، من أمثال الكاردينال دوكو، ريمون لول(*)، يواكيم دى فلور Joachim de Flore; Raymon Lulle; Le Cardinal de Cues(**)، هؤلاء الذين انتعشت أفكارهم من أثر الاحتكاك بالشرق الصينى الإسلامى الإفريقى عن طريق الإسكندرية .

ومع ذلك فقد شهد القرن العشرون بداية فلسفة الفعل أولاً مع الكاثوليكى موريس بونديل Maurice Bondel (١٨٦١ـ١٩٤٩) فى بحثه الذى قدمه عام ١٨٩٣ والذى يحمل عنواناً دالا «الفعل : محاولة لنقد الحياة والعلم التطبيقى» وطرح سؤالاً أساسيًا : **«ما الذى يجب أن نبتغيه لنصير أكثر إنسانية؟»** .

ويتمثل منهج بونديل فى بيان أنه ما من طموح أو مشروع جزئى يستطيع أن يرضى مقتضياتنا الأساسية .

(*) ريمون لول : (١٢٣٥ ـ ١٣١٥) رجل دين وفيلسوف وكيميائى، أطلق عليه لقب الأستاذ المستنير، قطع كل أوروبا ومنطقة البحر المتوسط للتبشير بالمسيحية .

(**) يواكيم دى فلور : (١١٣٠ ـ ١٢٠٢) متصوف إيطالى، يرى وفق نظرية له أن الروح القدس ستسود الكون بعد سيادة المسيح الابن . وقد كانت نظريته هذه عونًا للمعارضين للممارسات الكنسية التقليدية .

وقد أكمل جاستون بيرجيه Gaston Berger (١٨٩٦ ـ ١٩٦٠) عمل بونديل (إذ كان واحدا من المقربين إليه) . فبالنسبة لبرجيه لم يكن الهدف من علوم المستقبل(*) ـ التى كان رائدا لها ـ هو التنبؤ بمستقبل موجود مسبقا ، فالمستقبل ليس قيد الكشف (كما هو الحال بالنسبة للمستقبليات الأمريكية ، حيث لا يكون المستقبل سوى تقدير استقرائى كمى للحاضر ، أى احتلال الماضى للمستقبل) ولكن المستقبل هو مايبدع . فالمشكلة بالنسبة لبرجيه لم تكن كيف سيكون العالم فى ظرف الخمسين سنة الآتية ، ولكن المشكلة هى ما الذى سيترتب فى الخمسين سنة الآتية على ما نتخذه اليوم من قرارات؟

وقد كان لجاستون باشلار الفضل فى النهاية فى تبنى إپستمولوچيا(**) غير ديكارتية تميل إلى أن تجعل من البحث العلمى ومن فرضياته المؤسسة له (التحقق التجريبى) حالة خاصة من الإبداع الشعرى ، وذلك عن طريق تفكيره العميق حول تاريخ العلم فى القرن العشرين ، وموازاته بتأملاته حول الخيال الشعرى .

وباستثناء هؤلاء المفكرين الثلاثة الذين كانوا أكثر المفكرين تجديدا فى القرن العشرين ومواصلة للرسالة الأولى للحكمة ، ظلت الفلسفة التى تُدرس فى الجامعة (فيما عدا باشلار) فى كل الأحوال مستخفة برسالة الفلسفة ، وغريبة عن هدفها الحيوى .

(*) علم المستقبل : هو العلم الذى يدرس الأسباب العلمية والاقتصادية والاجتماعية التى تدفع تطور العلم العصرى والتنبؤ بالأوضاع التى يمكن أن تنجم عن تأثير هذه الأسباب .

(**) إپستمولوچيا épistémologie : هى مجموع الدراسات التى تعنى بنقد العلم ، وتكوين العلم ، وشروط المعرفة .

إن الذين يتخذون من الفلسفة مهنة لهم، ينزعون إلى إقصاء عالم الواقع اليومى، من أجل التأمل على مستوى الوجود المجرد.

لقد انفصل الفكر عن الحياة، وصنعت الفلسفة عالماً قائمًا بذاته: عالم الوجود، الذى يخلو من حركة الوجود الواقع ومن الوعى به، وهكذا صارت فلسفة الوجود فلسفة للسيطرة وليست فلسفة للتحرر.

فلسفة مسالمة بالنسبة للنظام القائم، فهى تشكل جزءا من زينته ومن أدواته.

وتختص الفلسفة الألمانية الأكثر ثراء من كل الفلسفات الأوروپية بخاصية تميزها: فمن واقع التأخر السياسى الألمانى، ومن واقع تفتت ألمانيا إلى مقاطعات صغيرة على غرار النموذج الإقطاعى، لم يستطع المفكرون الألمان الانطلاق من تجربة تاريخية مباشرة، وكان عليهم أن يبحثوا عن قاعدة ما فى بلدان وحضارات أخرى.

أما فلسفتنا نحن (فى فرنسا) فهى لم تقم قط على تأمل منفرد للنظريات السابقة، وإنما قامت بناء على اختبار لتاريخ القرن العشرين كله، من خلال انقلاباته السياسية وتحولاته العلمية، ومراجعاته الدينية وبحوثه فى الفن. كل هذه التحولات كانت تقتضى ممن كان لهم الحظ فى أن يعيشوا تقريبا لمدة قرن كامل مثلى أنا، تجديدا فى التفكير وأسسه.

ويرتبط هذا التفكير الإپستمولوچى بشدة بحياة المؤلف كمشارك فعال، ومناضل من أجل تحولات العلوم والفنون والاقتصاد والدين.

الفصل الرابع

بواسطة تحول للإيمان

ترتبط مشكلات الإيمان والتعليم بعضها ببعض بشكل حميم، ذلك أن كلا منهما تطرح قضية الغايات الأخيرة للإنسان، وينطبق هذا الأمر على كل حضارات العالم.

ولكي نضع هذه المشكلات في إطارها الإنساني المتسع، يجب أولاً بالنسبة لنا نحن الغربيين، أن نتخلى عن هذا الحكم المسبق، والذي بموجبه يجب أن أن تقوم أوروبا - وهي شبه جزيرة آسيوية - بدور مركزي، إن لم يكن دورا فريدا في التاريخ.

أولاً: ما هي أوروبا هذه التي تقع على قمة تطور خطي يمتد من الإنسان البدائي وحتى الإنسان الذي يمشي فوق القمر؟

وتطالب أوروبا هذه بأن تكون هي التعبير عن الدين الوحيد الحق، وأن تسمح هي وحدها بمقاربة الإله الحقيقي، أما الآخرون فهم ليسوا إلا وثنيين أو كفارا، ولكن ماذا صنع هذا الدين بأوروبا؟ أوروبا القرن الخامس عشر، أوروبا قسطنطين وريث السلطة الرومانية، ومؤسس القسطنطينية، أي وحدة الكنيسة والسلطة الحاكمة. التي استخدمت السلطة السياسية لاضطهاد كل مارق عليها بوصفه كافرا.

إنها أوروبا التي لم تلغ أبدا الرق، وأكثر من ذلك صبغته بأشكال جديدة مع استعبادها للهنود والسود.

إنها أوروپا الحروب الصليبية، تلك التى كان القديس برنار يعظ فيها فيقول: «الذى يقتل مسلما لا يقتل إنسانا وإنما يقتل الشر»، والتى كانت فى طريق حملاتها الصليبية تذبح يهود أوروپا وتسلب مسيحيى بيزنطة، انتظارا لذبح المسلمين، ثم المنتمين إلى المانوية من بعد.

إنها أوروپا التى مزقت القارة بحروبها الدينية منذ محاكم التفتيش وحتى معركة سان بارثلماوس(*) Saint Barthélémy(بين الكاثوليك والپروتستانت) والدراجوناد et les dragonnades.

إنها أوروپا البابا التى قسمت أمريكا ما بين إسپانيا والبرتغال فى اتفاقية توردیسیلاس Tordesillas فى عام ١٤٩٣، وباركت إبادة الهنود، وأشاعت فى العالم كله حملاتها الاستعمارية، وكأنها عملية تبشير مسيحى.

تلك هى أوروپا التى أيدت هتلر فى حربه الكبرى ضد الشيوعية فى الحرب العالمية الثانية، فى مؤتمر كاتدرائية فولدا بألمانيا épiscopale de fulda والتى طالبت الشعب الفرنسى بالتعاون ــ بلاشروط ــ مع القائد الذى وهبهم الله إياه!

تلك هى أوروپا التى فى غداة حرب ـ وقف إزاءها ذوو المراتب العليا عاجزين ـ تنكرت للشيوعية بوصفها انحرافا جوهريا، ولم تُدِن إلا أشكال المغالاة فى الرأسمالية.

تلك التى ظلت خرساء أمام هيروشيما، وتفوهت بكلمات ضبابية إزاء كل ظلم بصفة عامة، وهى تمدح پينوشيه Pinochet فى ذات

(*) انظر هامش صفحة ١٧٩.

اللحظة التى تدين فيها لاهوت التحرير فى أمريكا اللاتينية. أوروپا التى فصلت الأب بالاسوريا Balasurya عن الجماعة المسيحية لأنه أدان بقوة البؤس فى جنوب شرقى المحيط الهادى فى ذات اللحظة التى تعلى فيها من قيم البوذية! إنها أوروپا التى نشرت فى عام ١٩٩٢ تعاليم الدين المسيحى التى لا تنص على أى إدانة لعقوبة الإعدام أو لمبدإ الحرب، وكان ذلك فى زمن سحقها للعراق، وعودة إسرائيل إلى تبنى سياسة المستوطنات اليهودية فى فلسطين، وهو ما لم يثر أى معارضة من قبل الڤاتيكان.

عن أى أوروپا وأى مسيحية نتحدث ؟

هل نتحدث طواعية عن أوروپا التى شيدت الكاتدرائيات لتصل عن طريق تحالف ثلاثة ديمقراطيين مسيحيين ذائعى الصيت هم أديناور Adenauer(*)، ودى جاسبيرى De Gasperi(**) وشومان Schumann(***)، إلى تكوين اتحاد الفحم والصلب، الذى قادها إلى الاتحاد الأوروپى، وهو إنجاز لا نستطيع أن ننكر روحانيته!!

هذا الغرب ومسيحيته، لا نستطيع أبدا إذاحاكمنا تاريخه إلا أن

(*) أديناور: (١٨٧٦ ـ ١٩٦٧) رجل سياسة ألمانى، وعضو مؤسس للحزب المسيحى الديمقراطى، وداع إلى أوروپا الموحدة وللمصالحة مع فرنسا، ووقع وفقًا لذلك معاهدة پاريس عام ١٩٦٣.

(**) دى جاسپيرى: (١٨٨١ ـ ١٩٥٤) سياسى إيطالى ـ زعيم الحزب المسيحى الديمقراطى ورئيس للدولة من عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٥٣.

(***) شومان (روبير): (١٨٨٦ ـ ١٩٨٦) رجل سياسة فرنسى، تولى الوزارة عدة مرات، عضو الحزب المسيحى الديمقراطى، رأس البرلمان الأوروپى من عام ١٩٥٨ إلى عام ١٩٦٠.

نعرفه كمشروع للسيطرة العالمية، المادية والروحية فيه غير قابلة للانقسام.

أين المسيح في كل ذلك ؟ وكل هؤلاء الذين اختاروا سبيله على الرغم من كل خيانات المؤسسة ؟

أين مكان المسيح من منابر البابوية العظمى؟

على عرش الملك البابا الأعظم (الوارث للكائن الأعلى للإمبراطورية الرومانية) أو تحت الملحفة القرمزية للقساوسة أصحاب الرتب العالية ؟

لقد كان ظهور المسيح - في الواقع - هي اللحظة التي انفتحت فيها طاقة رائعة في تاريخ البشر والآلهة : إنه المسيح الذي عَدّه البشر أفضل ممر للكمال الإلهي . إنه أكثرهم ضعفا و تجردا من المال. وما من شيء في الماضي اليهودي أو اليوناني كان ينبئ بمثل هذا التحول الجذري لفكرة الإنسان عن الإله : فالمسيح ليس ابنا لزيوس ولا ليهوه ولا لأي إله قدير[19].

فمع المسيح لم يعد التعبير عن التعالي الإلهي يتم بكلمات خارجية أو سلطوية . القطيعة هنا كانت جذرية . قطيعة مع إله الأسلحة زيوس الذي يلوح بسيفه في مهارة صاعقة . منذ مجيء المسيح لم يعد التعالي، والتجاوز للإنساني يتصور وفق سلطة الحكام المقتدرين، الذين يحكمون من أعلى السموات أو من على قمة جبل الأوليمپ، على أفعال البشر، يهبونهم النصر أو يلحقون بهم الهزيمة، ليصلحوا أمرهم أويهذبوهم. إنما هو المسيح الذي عاش أبسط حياة البشر، بلا جاه ولا مال - فقد مات أبسط ميتة، ميتة العبيد المتمردين، فهؤلاء وحدهم كانوا يسمرون على الصليب.

منذ القديس بولس وحتى تعاليم الدين المسيحى التى صدرت عام ١٩٩٢ ظل نجار الناصرة مكللاً كسيد وملك. ولكن أى سيد وأى ملك؟ إنه وريث وسليل داود الذى تقدمه لنا أسفار صمويل والملوك (وهى المصادر الوحيدة التى نعتمد عليها لمعرفة سيرة داود) على أنه جندى مرتزق يعيش مع عصابته على نهب وقتل، اليهود أو أعدائهم، وبلغت به الشناعة أنه شجع على قتل أحد جنوده ليستولى على زوجته، ويجعل منها أمّا لابنه الملك سليمان. وهكذا يبدو المسيح تابعا لهذه الشخصية الكريهة وحياتها التى كانت مضادة تماما لحياة المسيح، منذ القديس بولس وحتى تعاليم الدين المسيحى فى عام ١٩٩٢ .

ومثله مثل جده الملحمى، سوف يضع المسيح كل أمراء الأرض عند أقدامه. (الرسالة الأولى إلى كورنثوس ١٥ : ٢٥).

لأن مسيح بولس يعود إلى القانون الذى يقضى طبقا لقانون «تاليون» (Talion) : قانون «العين بالعين»، إنه مسيح الله الذى يثأر ويجد العدل فى «رد الإيذاء بالإيذاء» (الرسالة الأولى إلى تيموثاوس).

ويقدم بولس دليلاً تاريخيا على قدرة الله يتمثل فى أنه بعدما قضى على سبعة دول من بلاد كنعان، وزع أراضيهم كميراث (أعمال الرسل ١٣ : ١٩).

إنها الفقرة الوحيدة فى الأناجيل التى ترد فيها هذه المذابح بوصفها علامات على عناية الله . ومنذ ذلك الحين أسس لاهوت بولس ـ تحت اسم المسيحية ـ لاهوتا للسيطرة.

ومنذ أن أصبح يسوع هو يسوع المسيح، أصبح مثله مثل الآلهة القدامى، يشاركهم السلطة. هذه سيرة جديدة للمسيح كتبت بناء على العهد القديم: فهو ليس إلا منفذا مطيعا لسيناريو مكتوب من قبل القدماء، إذ نجد في الكتاب المقدس ما يفيد أنه: **يجب أن يتمم كل ما كان مكتوبا في توراة موسى والرسل والمزامير**، (إنجيل لوقا ٢٤ : ٤٤).

ولست أحيد عما تنبأ به موسى والأنبياء (أعمال الرسل XXVI; 22).

الحياة الخاصة ليسوع لن تكشف لنا إذن عن شيء جديد!

وسوف تبني على هذه القاعدة النظرية ـ ولمدة سبعة عشر قرنا ـ يهودية معدلة، هي موضع مراجعة من خلال الفلسفة اليونانية. في بعض الأحيان تلتقي فلسفة أفلاطون مع القديس أغسطين، وفي أحيان أخرى تلتقي فلسفة أرسطو مع القديس توما الأكويني. وما نطلق عليه الحضارة اليهودية المسيحية هو في الواقع ميراث لترتُّبية هرمية وأبنية النظام الملكي للإمبراطورية الرومانية ولإرادة السلطة لديها.

لقد كان القديس بولس أيضا رائد هذه اللغة المزدوجة، مما جعله مثلاً يعلن في روعة ما يفيد أنه: لا فرق بين اليهودي واليوناني لأن للجميع ربًا واحدًا. (رسالة إلى مؤمني روما ١٠ : ١٢) لا فرق بعد الآن بين يهودي ويوناني أو عبد وحر أو ذكر وأنثى لأنكم جميعًا واحد في المسيح. (رسالة إلى مؤمني غلاطية ٣ : ٢٨) ولكن هذه العبارة الرائعة كانت تتناقض وتعاليمه العملية.

أكان الأمر فعلاً يتعلق بأنه لم يعد هناك لا يونانى ولا يهودى ؟ لا يلبث هذا النفى الجذرى أن يعطى الأولوية لليهودى، إذ نجد فى الكتاب المقدس ما يفيد أن: الله يخلص اليهودى أولاً ثم اليونانى من بعد (رسالة إلى مؤمنى رومية ١ : ١٦) وذلك على شرط أن يقبل اليونانى عقيدة اليهودى فى الله، وأن يقبل إصلاح بولس الذى جعل من المسيح خلاصة التاريخ اليهودى، و مؤسس إسرائيل الحقيقية أو الجزء الحقيقى الباقى منها(رسالة إلى مؤمنى رومية ٥ : ١١).

أكان الأمر فعلاً يتعلق بتحرير العبيد؟

ونقرأ فى الكتاب المقدس ما معناه: فليبق كل واحد على الحال التى كان عليها حين دعاه الله. أكنت عبداً حين دعيت؟ فلا يهمك ذلك. (رسالة إلى مؤمنى كورنثوس ٧ : ٢٠ ـ ٢١).

أيها العبيد، أطيعوا سادتكم البشريين بخوف وارتعاد، من قلب صادق كمن يطيع المسيح، (رسالة إلى مؤمنى أفسس ٦ : ٥). ونجد أيضاً ما يفيد ما يلى: وعلم العبيد أن يكونوا خاضعين لسادتهم مرضين لهم فى كل شىء غير معاندين. (رسالة إلى تيطس ٢ : ٩).

وفيما يتعلق بالنساء، كان هناك إلزام بالخضوع نفسه، بل وعلى نحو متكرر، إذ نجد مثلا:

لأن الرجل عليه ألا يغطى رأسه باعتباره صورة الله ومجده، وأما المرأة فهى مجد الرجل فإن الرجل لم يؤخذ من المرأة بل المرأة أخذت من الرجل والرجل لم يوجد لأجل المرأة بل المرأة وجدت لأجل الرجل. لذا يجب على المرأة أن تضع على رأسها علامة الخضوع (رسالة إلى مؤمنى كورنثوس ١١ : ٧ ـ ١٠).

من هذا المبدإ اللاهوتى لعدم المساواة ستنتج هذه الممارسة العملية إذ نجد فى الكتاب المقدس ما يفيد : أيها الزوجات اخضعن لأزواجكن كما للرب . (رسالة إلى مؤمنى أفسس ٥ : ٢٢) . ولست أسمح للمرأة أن تعلّم ولا تتسلط على الرجل، بل عليها أن تلزم السكوت . (الرسالة الأولى إلى تيموثاوس ٢ : ١٢) بكل الخضوع (٢ : ١١)، تصمت النساء فى التجمعات، (الرسالة الثانية إلى تيموثاوس ٢ : ١٢) فإذا كانت المرأة لا تغطى رأسها فليقص شعرها . (الرسالة الأولى إلى مؤمنى كورنثوس ١١ : ٦) .

هكذا سوف تتحدث الكنيسة غالبا بلغة المسيح عن «الاختيار الأثير للفقراء» مع إدانتها ـ وفى نفس اللحظة التى تدين فيها المخابرات الأمريكية ـ هؤلاء الذين مارسوا اختياراتهم وعبروا عنها فى لاهوت التحرير . وفى الاحتفاليات الثرية للملوك البابويين من ليون العاشر وحتى يوحنا بولس الثانى ، سوف تقرظ الكنيسة الفقر . وسوف تمدح فى إلحاح عفة الحياة وقداستها ، مع أنها ترتضى فى تعاليمها عقوبة الإعدام والحروب العادلة . كما لو كانت الحياة البشرية ليست مقدسة إلا فى حالة الجنين ، أو النطفة ، وتكف عن أن تكون مقدسة عند تجنيد الشباب ، لتتكيف مع هذه السادية الاستعراضية التى تحفل بها مشاهد أحكام الإعدام فى أمريكا اللاتينية ، بما تثيره من فرحة هستيرية لدى الفقراء ، هؤلاء الذين قد تم تطويعهم لأوضاع الفقر التى يعانونها ، وتخديرهم أخلاقياً عبر مشاهد العنف فى السينما والتليفزيون .

هذه اللغة المزدوجة تسمح للمؤسسة أن تتواطأ والسلطة فى الواقع ، كما تسمح بأن يعيش ملايين المؤمنين بحسب الكلمة

والحياة المقدسة ليسوع وللقديسين من سان فرنسوا داسيز François d'Assise(*) وحتى دوم هلدر كامارا Dom Helder Camara(**)، دون أن يتزعزع النظام القائم الذى تمنحه الكنيسة ضمان بقائه بشكل رسمى تارة، أو صامت تارة أخرى.

* * *

قال لى يوماصديقى القس المبشر فى الكاميرون: «إن مأساة المسيحية فى إفريقيا هى أنها تعطى انطباعا بأن الله لم يتجسد فى صورة إنسان، ولكن فى صورة رجل غربى، حتى إن الرجل المسيحى فى إفريقيا لديه شعور بأنه لكى يصبح مسيحيا يجب أن يكون أبيض».

هذه المأساة، ليست خاصة بإفريقيا فقط، ولكنها خاصة بكل البلاد التى عرفت الحضارة الغربية من خلال ثلاثة وجوه: **العسكرى والبائع والمبشر، الأول يفرض عليها أسلحته، والثانى نموذجه الاقتصادى، والثالث دينه.**

دين يدعى مثلاً أنه كاثوليكى، أى عالمى، ولكنه فى الواقع رومانى. فما من تاريخ مقدس لديه إلا تاريخ اليهود، ثم تاريخ المتنصرين عليهم من المسيحيين الذين أعلنوا بدورهم نزوعهم لأن يكونوا الشعب المختار المقدر له السيطرة على الآخرين جميعا.

(*) القديس فرنسوا داسيز: (١١٨٢ - ١٢٢٦) رجل دين إيطالى، ثرى عاش حياة ملؤها المتعة والرفاهية، غير أن رؤية صوفية باغتته فعاش فقيراً زاهداً.

(**) دوم هلدر كامارا: رجل دين من البرازيل (١٩٤٦ - ١٩٨٥) عرف بنشاطه الواسع من أجل المضطهدين فى العالم الثالث.

وفى عام ١٩٧٧ ، فى ساحل العاج ، وتحت رئاسة المطران ياجو Mgr Yago مطران أبيدجان Abidjan ، عقد مؤتمر فى إفريقيا السوداء تحت اسم : الحضارة السوداء والكنيسة الكاثوليكية .

وقد ذكر الأب چان مارك إيلا Jean Marc Ela ، باسم عالمية المسيحية «بأن الثقافة اليهودية ـ البحر متوسطية التى نقلت المسيحية ، ليست إلا ثقافة ضمن ثقافات أخرى ، فكاثوليكى ليست مرادفاً لرومانى» .

مثل هذه الرغبة فى تحرير الإيمان من النزعة الاستعمارية ، ووضع الثقافة الغربية فى إطار نسبى ، لإنقاذ القيم العالمية للمسيحية ، تظهر بقوة فى كتاب لرجل يسوعى من الكاميرون هو الأب حجبة Hegba بعنوان : «تحرير الكنائس التى هى تحت الوصاية» ، إذ يقول : « المسيحية ليست دينا غربيا ولكنها دين شرقى ، احتكره الغرب وأسبغ عليه طابعه الذى أصبح من المتعذر محوه ، طابع فلسفته وقانونه وثقافته . وهو يقدم نفسه للأسف بهذه الصورة لمختلف شعوب العالم ، يجب علينا إذن أن نطبع هذا الدين بطابع يتعذر محوه ، لا نرفع فيه قط ـ الفلسفة الأرسطية التوماوية ، والفكر البروتستانتى الچرمانى أو الأنجلو ساكسونى ، وأشكال الفكر والعادات الغالية (لبلاد الغال) واليونانية الرومانية والسويسرية والإسپانية والألمانية ، التى تنصرت إن لم تكن قد تقدست فى أوروپا ـ إلى مقام الوحى الإلهى» .

ويلخص لنا الأب أوسانا Osana نتائج تصريحات الأب زوا Mgr Zoa أسقف يواندى : «نحن الورثة الشرعيون للأديان الإفريقية التقليدية التى هيأت الإنسان الإفريقى أكثر من أى فرد آخر لبشرى يسوع المسيح . لقد كان لهذه الأديان دور مماثل للعهد القديم» .

وقد كان هذا هو النزوع الأساسى للاهوت التحرير الذى ينطلق من تجربة «جماعات الأساس» فى أمريكا الجنوبية، الذين هم فقراء، مصممون على أن يعيشوا دينهم المسيحى، ويرفضون فى نفس الوقت الكنيسة الرومانية التى تَعُدُّ كنائس العالم الثالث ملحقات ببعثات التبشير. هذه الكنيسة الرومانية التى تواطأت مع الاستعمار ومع الغزاة، ثم مع كل النظم السياسية القائمة.

إن أخص ما يميز لاهوت التحرير، هو أنه يقلب لاهوت الطريقة الغربية: فبدلاً من استنباط نظرية اجتماعية من بعض آيات الإنجيل (وينتهى الأمر دائما بالاقتناع بها) لتسويغ الفوضى القائمة، مثل النظام السياسى المستمد من الكتاب المقدس عند بوسويه Bossuet[*]، الذى أعطى مسحة إلهية للحكم المطلق للملك لويس الرابع عشر، أوالرسائل البابوية الاجتماعية فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين، التى تستنكر تجاوزات الرأسمالية دون أن تدين المبدأ الرأسمالى ذاته، على العكس من ذلك يبدأ لاهوتيو التحرير من الاستقراء وليس من الاستنباط: فهم يصدرون عن واقع بؤس شعبهم، ويفسرونه فى ضوء إنجيل يسوع.

ضد ماذا؟ ورد هذا الاستفهام مرة أخرى فى معرض ذكر نصوص القديس بولس، إذ نهض الكاردينال راتزينجر Ratzinger، باسم الجمعية الرهبانية للدفاع عن الإيمان، ليدين التحليلات الاجتماعية للاهوت التحرير، بوصفها لاهوتا تتخلله الماركسية. ويشرح،

(*) بوسويه: (١٦٢٧ ـ ١٧٠٤)، رجل دين وكاتب وشاعر فرنسى. استوحى الإنجيل ليكتب أشعاره ومقالاته السياسية التى كان يدعو فيها إلى مقاتلة البروتستانت.

مذهبيا، أنه لا يجب الخلط بين التحرر من الخطيئة وبين التحرر من العبودية الاجتماعية، الذى لم يعد يقبل الإذعان التقليدى للشعب، هذا الإذعان الضرورى بالنسبة للطغاة. وليس من قبيل الصدفة البحتة أن تتلاقى توجهات الكاردينال راتزينجر مع إعلان المخابرات الأمريكية الحرب ضد لاهوت التحرير، لأنه يشكل خطرا على الأمن القومى للولايات المتحدة، وعلى الديكتاتوريين الذين زرعتهم الولايات المتحدة فى أمريكا الجنوبية والوسطى.

لقد تأثرت آسيا أيضا بثورة أمريكا الجنوبية وإفريقيا ضد المركزية العرقية، أو ضد النزعة المحافظة لدى البابوية الرومانية.

ومن قبل ذلك، كان أساقفة العالم الثالث قد أبدوا تحفظاتهم فى تصريح مشترك لهم. إذ بلغت المسألة حدها فى ٢ من يناير عام ١٩٩٧ باستبعاد الأب تيسا بالاسوريا Tissa Balasuriya وهو لاهوتى من سريلانكا، من الكنيسة، من قبل الجمعية الرهبانية للدفاع عن الإيمان بزعامة الكاردينال راتزينجر، وبموافقة البابا (وهو ما جعل هذا التكفير غير قابل للاحتجاج أو المراجعة)، وذلك لأنه قد بين أن المسيحية قد ظلت حتى هذه الآونة غربية، وأنه الآن يحاول أن يعيش إيمانه فى إطار وطنه سريلانكا والهند، مع إعادة تبيُّن ما كان للروحانية البوذية من دور بارز فى شعوره بهذا الإيمان.

لقد كانت هناك معارضة ـ بلا ريب ـ بين لاهوت نجده فى كتاب «مريم أو التحرر الإنسانى» Marie ou la libération humaine الذى حرره الأب تيسا بالاسوريا، وبين لاهوت روما والذى بموجبه يجب أن يمر كل تفكير لاهوتى عبر السلطة الدينية، أى عبر الترتُّبية الهرمية الرومانية، التى تضع يدها وحدها على الحقيقة. إن اللاهوت الأول

يصدر عن أولوية الانتباه إلى الفقراء وصراعهم من أجل العدالة الاجتماعية، مع رد الاعتبار لقيمة الإيمان بالروحانيات المحلية.

من قبل وفى مايو عام ١٩٩٦، كانت الجمعية الرهبانية للحفاظ على الإيمان قد أنذرت الأب بالاسوريا رسميا، بأن يقرّ علنا بعصمة البابوية، وبعذرية مريم، وبالله كمؤلف لكل أسفار الأناجيل، وبالأصل الإلهى لتحريم قسوسة النساء. وقد رفض الأب بالاسوريا أن يقر بهذا باسم «ممارسات الكنيسة منذ مجمع الفاتيكان التاسع والثلاثين»، وباسم حرية ومسئولية مسيحيين ورجال لاهوت تقرهم شرائع الكنيسة.

المسألة فى العمق هى أن الأب بالاسوريا مثله مثل أصحاب لاهوت التحرير فى أمريكا الجنوبية، لم يكتف بإدانة تجاوزات الرأسمالية، بل أدان منطقها نفسه الذى يؤدى إلى استعباد البشر وعدم المساواة بينهم. إذ كتب يقول: «إن الاقتراب المريمى (نسبة إلى مريم العذراء) من العالم الثالث يجب أن يستلهم حساسية المشروع الذى تعبر عنه تسبيحة البتول: إطعام الجائعين وترقية البسطاء».

لقد قوبلت محاكمة الأب بالاسوريا بالسخط فى آسيا والعالم كله أيضا، كما أعلنت الجمعية الكنسية «المنذورن لخدمة مريم الطاهرة» التى ينتمى إليها الأب، والمجمع الكنسى للاهوتيى آسيا، والمجمع الدولى للاهوتيى العالم الثالث، وحركة الطلاب الكاثوليك فى آسيا والمحيط الهادى، عن تضامنها مع الأب المستبعد من الكنيسة.

أكثر من ذلك، كانت هناك مظاهرات تأييد للأب قام بها البوذيون والهندوس ورجال اللاهوت البارزون مثل اليسوعى الهندى

صـمـويل راين Samuel Rayan، والدومنيكان الأسـتـرالى فـيليپ كنيدى. Philip Kennedy، كما وصل إلى الأب بالاسوريا «الملحد» أكثر من ١٠ آلاف رسالة تأييد من جميع أنحاء العالم. وفى بداية عام ١٩٩٧ ، انتقد الأساقفة اليابانيون بشدة الوثيقة التحضيرية ـ التى أعدت فى روما ـ للمجمع الكنائسى الآسيوى المنتظر انعقاده فى إبريل عام ١٩٩٨ ، بالضبط كما حدث مع الأساقفة الأفارقة من قبل. فهذه الوثيقة، كما يلاحظ الأساقفة اليابانيون «تنم عن قلة الفهم للثقافة الآسيوية».

أمام استنكار بهذا الاتساع العالمى، كان على الملكية البابوية المعصومة فى روما أن تتراجع. وفى ١٥ من يناير عام ١٩٩٨ ألغى الڤاتيكان حكم الاستبعاد الذى كان قد أصدره الأب رايتزنجر والبابا قبل عام.

نفس المركزية العرقية الغربية واليهودية للإدارة البابوية الرومانية قد كشفت عن نفسها فى پاريس فى حفل استقبال الأكاديمية الفرنسية للكاردينال رئيس أساقفة پاريس الأب لوستيجر Lustiger.

وآرون لوستيجر ـ فى الواقع ـ من أصل يهودى، ولم يتخل عن دينه إلا عندما كانت جماعته محط اضطهاد هتلر فى عداوته الوحشية للسامية (فقد ماتت أمه فى معسكر أوشڤيتز Aushwitz). وقد تنصر لوستيجر وأخته بعدما تجاوزا سن الرشد، سن الشجاعة والاختيار ـ على الرغم من معارضة والدهما لتنصرهما ـ فى هذه اللحظة الحرجة بالنسبة لليهود.

وفى خطبة الاستقبال التى ألقتها السيدة كارير دينكوس Carrère d'Encausse فى الأكاديمية الفرنسية، نجدها تقول له: «حين أصبحتَ

مسيحيا، لم تكف أبدا عن أن تكون يهوديا. المسيح كما تذكر، ولد فى بيت لحم فى يهوذا، ولم يولد المسيح فى هذا المكان مصادفة. قل لنفسك، إنه ما كان من الممكن أن يكون المسيح جنينا أو طفلاً من إفريقيا، المسيح ليس المسيح إلا لأنه آتٍ من شعب الله المختار».

ومثل هذه العنصرية لم يقابلها أى شعور بالحياء من قبل الكاردينال، الذى ارتضى أن يتنكر باسم أصوله الخاصة، للتعاليم الأساسية لعالمية يسوع، تلك العالمية التى أوجزها واحد من أشهر آباء الكنيسة هو الأب كليمنت الإسكندرى Clément d'Alexendrie(*) بقوله: «يسوع ليس بربريًا ولا يهوديًا ولا يونانيًا ولا رجلاً ولا امرأة، إنه الإنسان الجديد، الذى صار إنسان الله بفضل الروح القدس» (Clément d'Alexendrie ; Protreptique XI;112).

ليس يهوديا ولا أسود من إفريقيا، ولا صينيًا. لقد سمى نفسه بأجمل اسم: «ابن الإنسان»

وهذا يبين إلى أى مدى مازلنا بعيدين عن كنيسة ترى حضور الله قبل «وحيه» فى كل أشكال البحث، فى الإنسان، وفى تجاوزه بالحب للكل وللواحد، وفى إقرارنا بما لم يوجد بعد.

ألا توجد هذه الحركة الباطنية لدى الأسود والصينى والهندى، حتى وإن كان طقس عبادته مختلفا؟

وكان التاريخ المقدس لخروجه من إطار الحيوانية أيضا مختلفا، خروج تم بحب ذلك الذى يتجاوزه ويجعله واحدا مع الكل. إن

(*) الأب كليمنت الإسكندرى: توفى عام ١٥٠م. وهو رجل دين يونانى مسيحى، عاش فى الإسكندرية وكان على رأس مدرسة التعليم المسيحى بها.

الصيغة المعبرة عما في القلب من إيمان هي: «كن واحدا مع الكل». وهذه هي بدقة الصيغة الطاوية الصينية لدى «تشوانج تسى»: (Tchouang - Tseu)(*) التي ترجع إلى ستة قرون قبل الميلاد.

ولا يستدعي الأمر هنا تلفيقا أو انتخابا، وإنما هو إخصاب متبادل، يتيح لإيماننا الخاص الانفتاح والعمق.

هناك «عدة طرق تؤدي إلى منزل أبي»، فلماذا إذن لا أعرف ولا أحترم مسبقا هؤلاء الذين يسعون من سبل مختلفة للصعود نحو نفس القمة؟

ومع ذلك، فالجدير بالانتباه هو تشابه هذه السبل.

أولاً: خفاء أسبابنا ورغباتنا وطموحاتنا الجزئية.

وأحيانا الحياء من تسمية منتهى معارجنا. والعبريون يمنعون نطق اسم الله، مثلهم مثل لاوتسي الذي كان يقول من قبل عن مبدإ الطاو Tao: «الاسم الذي يمكن أن يسمى به، ليس هو الاسم، لأنه ليس له اسم».

الله ليس له اسم، والأسماء التي نستطيع أن نسميه بها ليست إلا رموزا على قصورنا، وعلى يقيننا بأن لحياتنا معنى، وعلى أننا مسئولون عن البحث عن هذا المعنى وعن إتمامه.

ذلك أننا حين نمنحه اسما كما نسمي سائر المخلوقات، فهذه وثنية، وكأن الله كائن ضمن الكائنات، يجب علينا إذن أن نبحث عن

(*) تشوانج تسى: فيلسوف طاوي من الصين قام بشرح تعاليم لاوتسى المتضمنة في كتابه «الطريق والفضيلة»، وهو يفسر الطاوية كأسلوب للحياة، مركزاً على ذلك النشاط القلبي غير المتحرك في الظاهر ولكنه يندمج بالكل.

كـائن قـبل هذا الكائن ، وسـوف نتـوهم الوصـول ـ عند نهـاية سلـسلة أسـبـابنا ومـفـاهـيـمنا ـ إلى مـا نبـرهن به على وجـوده ، مـثل جـمـيع الكائنات ، في حين أنه فـيـمـا وراء الوجـود هو الفـعل الـذى يوجـز ، والذى يحفزنا دائما لأن نمضى إلى ماهو أبعد مما كان من قبل .

جوهر الوثنية ليس فى مادية موضوع العبـادة ، الـذى هـو صنعة أيدى البـشـر ، ولـيـس أيضـا فى الصـفـات المعنوية ، أو اللغـوية ، أو الميتافيـزيقية لآلهة يخلقـهـا خيال البشـر لسـد الفـراغ الـذى يخلفه تساؤل العقل عن الأصـول الأولـى والغايات النهائيـة ، أو عن المعنى التـام للـحـيـــاة . الوثنيـة هـى عـمليـة إسنــاد صـفـات إلـى إله مـا من صفات المخلوقات .

فـالوثن ليس فقط تمثالا خشبيا أو فـخاريا ، من خلاله تحاول هذه القـبـيلة فى المحـيط الهـادى أو فى إفـريقـيـا الـسـوداء أن تسـد فـجـوة اللانهــائى ، الذى يفلـت منا فـيـمـا وراء حـيـاتنـا الـيـومـيـة . الـوثن هو استجابة لنفس الاحتياج ، ونفس النقص الذى نشعر به عندما نعى أننا كـائنات فـانية . لا بمعنى أننا مكتـملون ، ولكن على العكس ، ناقـصـون شغوفون بالمطلق الذى يبدو لنا غـامـضـا كالهاوية ، ومتطلعون نناشد الكائن الأعلى .

الصنم يقـوم بدور سـد الخانة ، فـهـو مؤقـت ومـبـتـذل . عن طريقـه نبحث سدى عن إشباع لحاجتنا للامتلاء .

ويمكن أن يكـون الصـنم صـورة أو مـفـهـومـا ، أو اسـتـعـارة ، مـثل اسـتـعـارة «الخلق من طين» ، أو اسـتـعـارة «قـدرات الملك» لـلإله ، التى تؤخذ بحرفيتها .

لكن في كل الأحوال، تكون الاستعارة هي فعل الغرور الذي اقترفناه بأيدينا وفكرنا، إذ نعزى إلى ما نطلق عليه اسم الله صفات المخلوقات: ونعتقد في إله يحكم مثله مثل ملك، يعاقب ويسامح مثل قاضي يمنح النصر أويوقع الهزيمة بالفرد أو الشعب الذي كان هذا الكائن (الذي نطلق عليه تعسفا الكائن الأعلى، لأن عقلنا لا يستطيع أن يتصوره أكبر من ذلك) في انحيازه، قد اختاره أو انتخبه، على سبيل الغيرة من آلهة أخرى، وكأنه شخص يكره منافسا له ويسعى إلى تدميره.

وستظل للوثنية، سواء كنا نغني بالعبرية أو المسيحية، نفس المزامير التي تتوسل القدرة وتبتغي نفس الوعود.

وبعد المديح المنافق ـ كأننا أمام ملك ـ تأتي أهازيج الانتقام: «زجرت الشعوب وأهلكت الشرير. محوت اسمهم إلى أبد الدهور أفنيت العدو إفناء. . دمرت مدنهم حتى باد ذكرهم» (المزمور ٩ : ٥ ـ ٦).

إنه الإله الذي يقدم وصفات أو خدمات كبرى مثل آلهة البيت الرومانية، أو مثل إله هذه المسكينة الورعة التي تبتهل للقديس أنطوان ليجد لها مفاتيح بيتها، لأننا كنا قد علمناها منذ قرون هذه الوثنية كدين(كما نعلم الإنسان البدائي أعمال السحر). وعلمناها الدعوات المستغيثة بإله الانتقام كما يرد في الكتاب المقدس دعوات لله، مثل: «يمطر على الأشرار جمرا وكبريتا وتكون الريح المحرقة نصيبهم لأن الرب عامل» (المزمور ١١ : ٦ ـ ٧).

المزامير نفسها تظهر في الكتاب المقدس مع الأناجيل، وترتل في الكنائس المسيحية . لقد أصبح المسيح، بعد تدخل القديس بولس، ابنا للملك (أسوأ من ذلك هو ملك الحرب، و زعيم عصابة من

السماسرة ـ داود) و أدمج يسوع فى القانون العام لسلطة الآلهة، كما لوكان ابنا ليهوه ملك الجيوش والانتقام، أو زيوس الذى يلوح بالسيف، إنه يخلق ويدمر العوالم، بكلمة محملة بكل العلامات التقليدية للآلهة القبلية المتسلطة. وهكذا مر خمسة عشر قرنا على هذه النزعة القسطنطينية، أو على اليهودية المسيحية، بوصفها استمرارا للشعب المختار، أو بوصفها إسرائيل الله. وبهذه الصفة، تستمتع بامتياز استثنائى للسيطرة الاستعمارية على العالم، وتتحالف مع كل السلطات الحاكمة المتتالية.

كل هذا يساق جنبا إلى جنب مع تسامح يسوع، وحب يسوع، هذا الحب الكاشف عن قلب ينبض من جراء كل ما فى العالم من مآس.

من أجل ذلك، تبدأ كل أفعال العبادة بخبرة التعرف على الله فى صمت، وقبل ذلك، من كل ما هو ليس إلهيًا فينا أيضًا: خفاء رغباتنا الصغيرة فى المال والسلطة والجنس بلا حب، والهروب فى المخدرات، وغيرها من كل أشكال تفتت الشخصية الإنسانية.

لقد كتب لاوتسى يقول: «عندما تكون الروح الإنسانية فارغة (من الدنيا) وهادئة بالكامل، تصبح مرآة نقية وصافية، قادرة على استجلاء الجوهر الفائق للأصل ذاته» (Tao Le King; 2).

كما نجد كلامًا كنسيا للسيد إيكارت Eckhart(*) (الفيلسوف الصوفى الألمانى ١٢٦٠ ـ١٣٢٧) متأثرًا بابن سينا إذ يقول: «أن

(*) إيكارت: فيلسوف ألمانى متصوف، كانت آراؤه فى الألوهية والدين جريئة إلى الحد الذى أدينت فيه مؤلفاته. ولكن تعاليمه استمرت بفضل تلاميذه. من أشهر كتبه «كتاب المصالحة الإلهية».

تكـون فارغا مـن كـل المخـلوقـات يعنـى أن تكـون ممتلئـا باللـه. وأن تكـون ممتلئـا بالكائنـات، يعنى أن تكون فـارغـا مـن اللــه» (Traité du détachement IV;1).

فى كل مكان ودائمـا، كـان الفـراغ التـام الموجـود فينا، هو الفـعل الأول للاقتراب من الله.

وكـان الطاو TAO يقتضى من الإنسان ألا يملك، ألا يعرف، ألا يوجد، وأن ينصت للفراغ فى ذاته، بالضبط كالأوبنشاد فى الهند، عندما يتحول الإنسان العادى الـ atman إلى براهمان(*) مقدس، بتوحد الذات مع أصل الأشياء.

أمر الله إبراهيم: بأن يرحل عن وطنه، وأسرته ومنزله.

لقد طالب يسوع بالتجرد من كل ما هو خاص بنا، وبالتخلى عن الملكية، فكـان يسـوع يقول للشاب الثرى الـذى يحترم كل أوامر القـانون: «ينقـصك شىء واحـد: بع كل مـا عنـدك، ووزع على الفقراء، فيكـون لـك كنز فى السماوات، ثم تعال اتبعنـى» (لوقا ١٨ : ٢٢).

كان هذا أيضا حال سمعان ويوحنا: فقد تركا كل شىء، واتبعاه. وكان المسيح يقول إن «كل واحد منكم لا يهجر كل ما يملكه، لا يمكنه أن يكون تلميذا لى» (لوقا ١٤ : ٣٣).

ولا يعنى الأمر هنا، أن نصب اللعنات على الأغنياء وسلوكهم. كما لعنهم الأنبياء من قبل، ولكن الأمر يتعلق بحكم عام، يدين الثراء

(*) براهمان: عضـو فـى الجماعة المقدسة الهندوسية. وبراهما هو أب جميع الأشياء المخلوقة بوصفه انعكاسًا للمبدإ الخلاق للعالم. ودين البراهمة هو دين الهندوس.

والملكية، ليس فى تطرفها أو فى تجاوزاتها، ولكنه يدينها فى ذاتها، فى مبدئها ذاته.

التجرد من الأنا الصغيرة هو شرط اليقظة والوعى.

هناك توجد مملكة الرب حيث يتخلص الإنسان بالكامل من ملكيته. وإذ لم تكن المملكة قد وجدت بعد، فذلك لأن مثل هذه العلاقة بالعالم لم تتحقق بعد لدى جميع البشر. هذا التوتر بين ما سبق أن وجد فى صحوة الشخص على حياة الكل ـ وبين ما لم يوجد بعد فى صحوة الجميع على حياة الكل. هذا التوتر هو التراچيديا المتفائلة بالصحوة، ذلك أن كل واحد منا مسئول عن صحوة الجميع.

وعلى الأكثر، هل نستطيع أن نمضى على السبيل الذى افتتحه الصوفية المؤمنون من كل الشعوب؟ هل نستطيع استحضار هذا السبيل عن طريق نفى كل ماعداه، أى رفض كل ما ليس سبيلاً صوفيّا؟ أولا نستطيع ذلك عن طريق شعرى، من خلال مجازات نستعيرها من حياتنا اليومية لنشير بها إلى ماهو كامن وراءها. مثل الأنبياء الذين نقلوا إلينا رسائل الله من خلال أمثلة، هذه الأمثلة التى لايمكن أن تكون تعاليم أوقوانين، وإنما نداء يحمل قوة تستدعى الإجابة.

ألا يجب أن نكون على وعى بهذه الحقيقة حتى نجرؤ على أن نسأل الله هذا السؤال: «أمام هذا الشر فى العالم، وأمام كم الضحايا الأبرياء، ماذا نفعل؟». بسيطة هى الإجابة الإلهية: «لقد خلقتك!».

نعم خلقنا، مع كامل مسئوليتنا عن محاربة المملكة المعاصرة (المضادة لمملكة الرب)، مملكة «وحدانية السوق». فهى العدو

الرئيسى لله وللإنسان. أنريد إلها معلوماتيا يخلق عالما من بشر آليين مبرمجين لارتقاء مملكة الرب بلا حرية أو مسئولية؟

قبل ميلاد فلسفة للفعل ـ يكون الله من خلالها موجودا فى كل شىء وفى كل إنسان، بوصفه الفعل الذى يوجد، الفعل بامتياز، فعل الإبداع، كان الله قوة محركة لكل الحياة، كما نجد مثلاً فى روحانيات إفريقيا، أو لدى هنود أمريكا. وكما نجد بالمثل فى حكَم المسيح التى تبشر بمملكة الرب من خلال صور نشر البذور، وانتشاء سنابل القمح، وميلاد وازدهار الحياة.

أيجب أن نأسف لأن كلمة الله هى اسم، يدعونا ـ مثل حيلة أو لغز ـ إلى أن نبحث تحت الاسم عن مسمى؟ الله هو الكلمة التى يستطيع الإنسان تصريفها على هذا النحو:

أنا لم أخلق نفسى

أنت لست نورا لنفسك

نحن لسنا أكفاء لكفايتنا

هذا تصريف كلمة الله

شأن الله دائما هو شأن من لا يوجد، ولكنه يدعو إلى الحركة وإلى الحياة. إنه مثل أفق نتبعه دوما، ويفر منا دوما. فهناك بحور أخرى خلف هذا البحر، وجبال أخرى خلف هذه الجبال.

الله الواحد فى خلق دائم، واستدعاء دائم لريادات جديدة للحياة.

ومن هذه التجارب الرائدة، ومن خلال ترجمتها إلى أمثال، تتجلى لنا وحدة العالم، ووحدة ماوراء العوالم. لدينا إذن مفهومان

متضادان فى الظاهر : الكلية واللانهائية ، غير أن الفيزياء الحديثة تقدم للواقع صورة تجمع بين وحدة العالم ولانهائيته . عندما يتحدث عالم الفيزياء فى القرن العشرين عن الجزء ، فهو لا يفكر مطلقا فى عزلة الذرة ، أو فى عزلة هذا الجزء من المادة ـ الذى لايحدث بداخله شيء ـ ويفصله الفراغ عن سائر الذرات .

فالجزىء فى الفيزياء الحديثة ، هو مربط العلاقات ، إنه نقطة فريدة لها صورة الموجة المارة فوق محيط بلا ضفاف . كالموجة التى تحيا فيها كل اندفاعات المحيط ، بل وأكثر من ذلك تحيا فيها جاذبية القمر فى مده وجذره . والقمر نفسه مرتبط بتحركات الكوكب الأم ، أى الأرض . وهذه الأرض بدورها ترتبط فى تحركاتها وحياتها بالشمس . والشمس لا تملك ديناميتها ووجودها إلا فى قلب مجرة ضمن مليارات المجرات الممكنة . كل جزىء إذن ، له جذور تمتد إلى أقصى تخوم الكون .

ليست هناك صورة مثالية للظرف الإنسانى : فالحياة فى امتلائها السعيد ليست مجموعة من الأفراد المنعزلين ، وإنما جماعة من الأحياء ، كل فرد فيها مسئول بصفة شخصية عن مصير الآخرين جميعا . وهذا ما يسمى بالحب المسئول عن ازدهار الجميع ، جميع شعوب الأرض وتوازنات الطبيعة .

إن البحث عن الله هو نوع من الوعى بحدودنا : فأنا لا أستطيع أن أصعد إلى أصلى الأول ولا أن أرتفع ـ أيضا ـ إلى نهايتى الأخيرة .

إن الإفريقى الذى يعتقد فى حيوية المادة يعلمنا أن الحضور الإلهى ليس حضورا للكائن وإنما حضور للقوة .

وتعلمنا الهندوسية أيضا أن الواقع الثلاثى لكل حياة هو الوجود والوعى والسعادة معا.

ويقدم لنا المسلم روزبهان الشيرازى تعريفا مختلفًا للتثليث، متحررا من الطوق الهلينى: «الله هووحدة الحب والمحب والمحبوب».

ويتجلى الحضور الإلهى أيضا فى «الطاقة الخلاقة» Shakti(*) لدى الهندوس، وفيما يلى الدرس الأكبر لآباء الشرق:

«لقد تجلى الله فى الإنسان، حتى يستطيع الإنسان أن يكون إلها».
كما يعرض القرآن لكلام الله عن آدم ﴿ **ونفخت فيه من روحى** ﴾ انظر القرآن (سورة الحجر ١٥ : ٢٩). ويعرف الروح كما لو كان الإنسان يحمل بداخله رسالة أو أمرا أو سرا من الله ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى** ﴾ (سورة الإسراء ١٧ : ٨٥).

العالم ليس إلا وحدة واحدة، أى دفقة واحدة للحياة، والإنسان على الأرض هو أقرب صورة لهذه الوحدة وهذه الدفقة. وكما يعلمنا القديس جريجوار دونيس Saint Grégoire de Nysse(**)، والقديس جريجوار پالاماس Sait Grégoire Palamas(***) «أن الإنسان هو ملخص لكل ما يوجد»، وهو فى القرآن أعلى مقاما من الملائكة لأنه يتمتع بحرية الاختيار.

(*) تمثل الـ Shakti فى الفن الهندى، العنصر الأنثوى فى كل كائن، وهى ترمز إلى الطاقة الكونية، التى تماثل هذا المبدأ الأنثوى.

(**) القديس جريجوار: من تركيا (٣٣٥م - ٣٩٥م) هو أسقف الكنيسة المسيحية الشرقية.

(***) القديس پالاماس: (١٢٩٦ - ١٣٥٩) رجل لاهوت صوفى يونانى أرثوذوكسى.

إن الإبداع الفنى الحقيقى هو الذى يساعدنا ـ بطريقة أفضل ـ على فهم هذا العبور من الوجود إلى المعنى، من الوجود إلى التجلى الإلهى الذى يحمله فى داخله: فالملف الصينى فى عصر سونج Song، ليس صورة فوتوغرافية للجبل، وإنما تجل لحضور طاو. كما أن الأيقونة لا تقدم لنا صورة ليسوع أو لمريم العذراء، ولكنها تدعونا فيما وراء الصورة إلى حقيقة من نوع آخر.

ولنضرب مثلاً قريبا منا، فنقارن كنيسة أوڤير Auvers كما كانت وماتزال، باللوحة المفعمة بالبصيرة التى رسمها لها ڤان جوخ Van Gogh كتعبير عن حياة عصر، فى قلقه وآماله المحبطة.

ما الدور الذى يمكن للإيمان أن يقوم به فى القرن الواحد والعشرين، ليكون ذا وجه إنسانى إلهى؟

لقد ذكرنا من قبل، أن فيما وراء أدب الحكمة والأديان ـ أى الأشكال الثقافية التى تنطوى على الإيمان ـ هناك شىء مشترك بين الجميع، وهو: التجربة المعيشة للتعالى، من خلال التجرد من الذات وتلقى الآخر، والشعور بالحضور فى ذاته كتدفق للحياة التى لا نعرف منبعها ولا مصبها.

ويمكن أن نلخص هذه التجارب الثلاث المشتركة فى تجربة واحدة: تجربة التعالى transcendance . فالكلمة مخيفة، بما أن معناها صعب التحديد، ومع ذلك فهى أكثر التجارب اشتراكا بين الناس، وأكثرها ملازمة للحياة.

١ـ التعالى هو الوجه المضاد للعنصرية، (لقد كان، وسيظل دائما كذلك)، إنه اليقين بلا دليل، المسلمة، والرهان (كما يقول

باسكال (Pascal)(*)، بأننا يمكن أن نعيش بطريقة أخرى، وأن قطيعة جذرية بين العنصرية والتعالى ممكنة، وبالأحرى فإن جذر كلمة التعالى، يعنى المضى إلى الماوراء، التجاوز. فمن الممكن أن يوجد شيء آخر غير الذى يوجد.

٢ ـ التعالى هو مضاد الفردية، فالإنسان ليس ذرة، وليس بوصفه فردا أو دولة، مركزا ومقياسا لكل شيء، إنه مواطن فى جماعة، حيث كل فرد يعى أنه مسئول عن مستقبل الآخرين جميعا.

٣ ـ التعالى هو مضاد الاكتفاء. الإنسان كبير جدا حتى إنه لايكفى نفسه بنفسه. وقد قال الأب بونهوفر: «إن الخروج من الذات، وملاقاة الآخر هو التجربة الأولى للتعالى، وهذا هو ما يدعى بالحب»، «أما من لا يحب فهو لم يتعرف بالله قط» (رسالة يوحنا الأولى ٤ : ٨).

نفس التجربة جعلت الصوفى الفارسى الشيرازى يقول: «إننا نتعلم فى كتاب الحب الإنسانى كيف نفسر الحب الإلهى».

هكذا فقط، وعبر كلمات الحب، يمكن للتعالى ألا يكون مجرد تفكير فى كلمات خارجية (مثل كلمات السيد والعبد)، ذلك

(*) باسكال: (١٦٢٣ ـ ١٦٦٢) فيلسوف ورياضى فرنسى، اخترع وهو فى التاسعة عشرة من عمره آلة رياضية. عاش منذ عام ١٦٥٤ حياة صوفية، ودافع عن الدين المسيحي في كتابه الشهير أفكار: (Pensée)، وإليه ينسب ما يعرف بـ «رهان بسكال» الذى يقول بأن على الإنسان أن يؤمن. فإن لم يلق جزاء حسنًا لإيمانه فهو لم يخسر شيئًا. وإلا فسيكون الندم الأكبر.

أن الإنسان والله ليسا واحدا ولا اثنين. فمبدأ اللاثنائية القيدنتى فى الهند L'Advaita védantin(*)، يساعدنا على التفكير فى هذه الوحدة الثنائية للإنسان الذى يسكنه الله: «كل الكائنات توجد فىّ، وأنا لست محتوى أيا منها، أنا الفعل الذى يجعلها توجد» (Baghavad Gita : IX ; 45).

هذا الوعى المعيش للتعالى يحذرنا من وهم تصورنا للكون على أنه مغلق، وللواقع على أنه مختزل فيما وجد من قبل، وللمستقبل على أنه لا ينطوى إلا على إمكانات الحاضر.

هذه هى روح كل إيمان.

المسيحيون يطلقون عليها اسم التثليث، والهندوس يعبرون عنها بالثلاثى: «الوجود، الوعى، الجمال».

وهذه هى، فى الحقيقة، معايير كل واقع: طبيعى، إنسانى، إلهى.

وتؤدى سوء المعرفة إلى الانطواء، ولنا فى التاريخ مثل على ذلك: فقد علمتنى تجربتى كماركسى أن الحتمية التى بموجبها، لا يكون المستقبل سوى امتداد ضرورى للماضى، لا يمكن أن تؤسس إلا نظرية محافظة، كما هو الحال فى نظرية التحكم التجريبى عند شارل موراس Charles Maurras(**).

(*) النظرية الكبرى للفلسفة الهندية الأكثر رواجًا فى القيدنتا. وفى مبدإ اللاثنائية هذا تأكيد على أن المطلق يظل هو المبدأ الأقصى للوجود وللإنسان. ويستطيع المرء عند التقدم فى الوعى أن يعى هذه الحقيقة المطلقة.

(**) شارل موراس: (١٨٦٨ - ١٩٥٢) كاتب ورجل سياسة فرنسى مناصر للملكية، كان مؤيدًا لحكومة ڤيشى، وحكم عليه بالسجن المؤبد فى عام ١٩٤٥، وعفى عنه عام ١٩٥٢.

فى الواقع إن الثورة تحتاج إلى التعالى أكثر مما تحتاج إلى الحتمية.

وعلمتنى تجربتى كمسلم، أن هناك مستلزمات، أو بالأحرى تضحيات، تفرضها الجماعة. وأن كل فردية حتى لو كانت مقننة فى إعلان لحقوق للإنسان، لاتؤدى إلا إلى غابة من الذوات الأنانية المتصارعة، حيث يكون كل فرد منافسا للجميع فى كل الأسواق.

وعلمتنى تجربتى كمسيحي، أن يسوع ليس المسيح المطلق السلطة الذى نستنتجه من كل ما نعتقد أننا نعرفه عن الله، لنجعله ابنا ليهوه إله الحرب والانتقام، أو لزيوس الذى يشهر سيفه. ولكنى على العكس أعرف المسيح الذى أظهر ـ من خلال أفعاله وكلماته وموته ـ أن التعالى يمكن أن يبزغ من الضعف نفسه، من الحب: فكل كائن محبوب يصير تجليا حيا لله، الذى يحمله فى ذاته. وكما يقول المسيح: «بما أنكم فعلتم ذلك بأحد إخوتى هؤلاء الصغار، فبى فعلتم» (متى ٢٥ : ٤٠).

إن ما أردت أن أوضحه هنا هو هذه التجربة الثلاثية غير القابلة للتقسيم والمتجهة نحو التعالى، لأنها بذرة كل إيمان، وكل فعل خلاق.

لقد كتب پول ريكور Paul Ricoeur (*) يوما: «إن الدين اغتراب للإيمان»، لأن كل دين هو إيمان معبر عنه فى لغة الثقافة. وما نطلق عليه أزمة الدين ليس فى الواقع إلا أزمة الثقافة التى تعبر عن هذا الإيمان. كثقافة السلطة والهيمنة الغربية.

(*) پول ريكور: فيلسوف فرنسى معاصر ولد عام ١٩١٣. وهو رائد فلسفة الهرمينوطيقا الحديثة التى تعنى بتأويل النصوص. ومن أشهر أعماله: فلسفة الإرادة، الاستعارة الحية، الأنا بوصفها الآخر، الزمن والسرد.

أى مكانة إذن يمكن للإيمان أن يتبوأها فى الحياة الاجتماعية والسياسية، بوصفه قلب كل دين؟

يسوع، مثله مثل بوذا، لم يأتيا ليبشرا بدين جديد: بل ربما كانا أقل الناس تدينا عندما انتهكا قوانين الأديان المتسلطة التى لم تعلم الإنسان إلا ما هو محظور أو ممنوع من اللمس. وسواء فى ذلك أن تعلق الأمر بقانون الفريسيين Pharisiens(*)، أو الصدوقيين Sadducéens(**).

هؤلاء الأنبياء حاملو رسالة الإيمان بجوهره وليس بطقوسه، علمونا معنى الحياة نفسها.

علمونا هذا الإيمان الذى ولد مع الإنسان، الذى نفخ الله فيه من روحه كما يقول القرآن. كما تعلمنا التضحية غير المشروطة لإبراهيم ويسوع. ومثل هذا الإيمان لايمكن أن يكون حبيس معبد يهودى، أو كنيسة، أو مسجد، أوشخوص معتنقى كل ديانة على حدة.

فهذا الإيمان لا يمكن أن ينفصل عن الحياة، حياة القرية والحقول، والمصانع، والمعامل فى المدن، والمدارس، ومراكز الأبحاث، بل وفى المعابد اليهودية والكنائس والمساجد وغيرها من المعابد أيضا.

فكما قال أحد العلماء: «الله موجود فى الحياة اليومية، فى السياسة، فى المدرسة، فى الفن، فى الاقتصاد، ولكنكم حبستموه فى بيوت القربان والكنائس. لقد أكد كل الأنبياء على نفس القيم،

(*) الفريسيون: فرقة يهودية معاصرة للمسيح كانت تنصب نفسها للدفاع الظاهرى عن الفضيلة واتباع التعاليم الدينية فى صرامة.

(**) الصدوقيون: فرقة يهودية من الأثرياء الذين ينكرون البعث وخلود الروح.

ولكن بما أنه على مر التاريخ كان ثمة تطور للمشكلات، فقد جدد الأنبياء أشكال التعبير عنها».

وقد قال الأب پانيكر Panniker نفس الشيء، في دراسته «مستقبل الإيمان» L'Avenir de la foi (Biblia y fe ; 1988) :

«إن مشكلات الجوع، وعدم المساواة، واستغلال الإنسان والأرض، وعدم التسامح، والحروب، والاستعمار الجديد، هي كلها مشكلات دينية».

وقد أسر لي يهودا مينوهين Yehudi Menuhin- انطلاقا من إيمانه بالدين اليهودى - بتأملاته حول الذود عن المقدس، إذ كان يبحث هو أيضا - وبعيدا عن دعوى الاصطفاء والاختيار - عن العامل المشترك لهذا الإيمان الحاضر في قلوب البشر جميعا، والذى يدعوهم إلى تسام ما، أيّا كان الشكل الثقافى الذى تكتسيه الأديان الثلاثة: «الحياة ليستّ مخلوقة مرة واحدة وللأبد للجميع. الأصوليون وحدهم يستطيعون أن يعتقدوا ذلك. نحن بحاجة إلى دين جديد، مؤسس على الإيمان، وعلى القيم الأبدية للإيمان، وعلى فكرة الوحدة الكاملة. ولكنه أيضا إيمان يتواءم مع المعرفة ومع التجربة المعاصرة».

وفى معرض ذكر العقائد التى جعلت من الآلهة ملوكا متسلطين، ومن الحكام كهنة، أضيف: إننى مقتنع بأن عالمنا تلزمه صياغة جديدة لقيم المقدس، ويلزمه مفهوم جديد للدين يتطابق تماما مع أصول العبادة والصلاة، ولكن يُعبَّر عنه بشكل جديد ومختلف، شكل يسمح لنا بالتعرف على وجودنا الخاص وعلى وجود الآخرين أيضا بوصفهما مقدسين. ويطلعنا على مسئولية البعض إزاء البعض الآخر. ويكشف لنا عن قدرتنا على خلق عالم أكثر عدلاً. فى ديننا

الجديد هذا، سيكون على القادر والثرى والعَالم مسئولية، وللفقراء حقوق. هذا هو الدين والاقتصاد والنظام الاجتماعى والحياة الخلاقة للفنون والتكنيك والتعليم. كل هذا لن يكون إلا شيئا واحدا يهدى تفكيرنا وحركتنا.

ما مكانة هذا الإيمان فى المجتمع؟ سوف تكون له مكانة مركزية، ويجب فى هذا الإطار أن نتفادى عدة عقبات:

فى المفهوم الليبرالى، حيث لا تتدخل الدولة فى الدين وطقوسه وعقائده، تكون الحياة الخاصة المكفولة للدين متعلقة بالعقائد وليس الإيمان. فالعقيدة هى طريقة فى التفكير. أما الإيمان فهو طريقة للفعل. فى المفهوم الليبرالى إذن، سيكون هناك تسامح كامل فيما يتعلق بالعقيدة، ولكن سيكون محظورا على الإيمان أن يؤثر على الأبنية العينية للعالم، وفق مصالح الأفراد والجماعات. «احضروا القداس» كما يذكر قديس فى الصلوات، «أنصتوا لقراءة التوراة» التى يتلوها عليكم الحاخام، «اسجدوا» خلف إمامكم، ولكن عند خروجكم جميعاً من معابدكم اخضعوا فى وداعة للنظام القائم!

ليكن لكل منكم أصنامه الفكرية كما يشاء، وذلك فى مقابل ألا تتدخلوا عند الخروج من المعابد فيما يغير النظام المؤسس على اللعب الحر لوحدانية السوق. ذلك النظام الذى ينتظم على المستوى العملى كل العلاقات الإنسانية.

وعلى عكس النظام الليبرالى، ينزع النظام الشمولى إلى بسط سيادته على العقول والأجساد معا، على الإيمان والأفعال الصادرة عن الإيمان. وذلك عن طريق تحويل الدولة إلى دين. أو عن طريق تحويل

ديانة بعينها إلى دين للدولة. ويقوم هذا النظام بالضرورة على ثنائية سياسية واجتماعية، فكل من لا يتبع الدين الرسمى للدولة هو مواطن من الدرجة الثانية.

من هذا المنظور، تبدو دعوة المسيحية بأنها دين عالمى شكلاً نموذجيّا للاستعمار الروحى الذى لا ينفصل عن أى شكل من أشكال الاستعمار.

وأيّا كان الحل المختار، فإن الخلط بين العقيدة الدينية والإيمان الحى المتحرك داخل كل الأديان، سيجعل المشكلة غير قابلة للحل، كما سيؤدى إلى ظهور الحركات الأصولية المتطرفة التى تدعى أن كل المشكلات قد حلت وللأبد عن طريق الآباء المؤسسين.

إذا كان كل من بوذا وموسى ويسوع ومحمد قد حملوا إجابات وحلولا لأسئلة ومشكلات عصورهم، فهذا لا يعفينا بأى حال من الأحوال من مسئولية البحث عن حلول لمشكلات عصرنا، انطلاقا من مبادئهم. فما من سوترا بوذية أو رسالة فى الإنجيل أو آية فى القرآن، تسمح لنا بالحل دون تفسير يتقدمها. والمشكلات التى تطرحها علينا الطاقة النووية، والشركات المتعددة الجنسية، والمضاربات فى البورصة، والاستعمار، وغيرها من المشكلات، لم تكن مطروحة من قبل فى زمن الأنبياء. نحن نستطيع فقط، وبناء على المبادئ التى بشروا بها، أن نتقلد ـ مع كامل المغامرة ـ المسئولية عن تطبيقها على الأوضاع التاريخية الجديدة تماما.

وهذا لا يعنى التورط فى أى نسبية، أو نخبوية، أو تلفيقية. فكل دين قد رشح، حول المبادئ المقبولة المشتركة، مجموعة من القيم المطلقة، ومجموعة من العبادات بطقوسها وعقائدها الخاصة بكل ثقافة على حدة، فى محاولته لمناهزة المطلق. ومن الممكن أن تستلزم

هذه الرابطة بالله أو هذا الخضوع لله مشاركة كاملة من كينونتنا بما فيه جسدنا، مما يعطى الدعاء والعبادة شكلاً خاصّاً، سوف يعطى بدوره معنى لفعلنا.

وهكذا يستطيع التقليد الثقافى لكل دين أن يعبر عن نفسه من خلال وضع خاص للجسد فى خضوعه لله، مثل وضع اليوجا بالنسبة للبعض، أو الركوع أو السجود بالنسبة لآخرين.

لكن المهم، هو أن ييسر هذا الوضع الجسدى التواصل بالله، أو بالحكمة (أيّا كان الاسم الذى ندعو به الله)، وألا يتدهور إلى رياضة بلا روح.

إن الإخصاب المتبادل للثقافات التى تمثل مختلف الأديان، لهو ثراء لا يمكن التنازل عنه من أجل أن نفرض على الآخر شكل التعبير الذى ورثناه نحن وثقافتنا.

لا نستطيع أن نطالب باحتكار السبل المؤدية للتعالى. سواء أطلقنا عليه اسم الخلاص أو التحرر أوالنرڤانا (*).

نستطيع فقط، ومع بالغ الاحترام لطقوس الآخرين، وللرموز التى يعبرون بها عن إيمانهم وحكمتهم وإلههم، أن نتزود بتجاربهم، لنصعد من سبل مختلفة إلى ذات القمة التى ربما تكون عصية على الوصول، حتى تجعلنا نبحث عن معنى لحياتنا ولتاريخنا، وعن سبل إنجاز هذا المعنى.

(*) النرڤانا Nirvana لفظ سنسكريتى يعنى التخلص من الألم أو السكينة القصوى، وهى لا تعنى العدم، ولكن بالأحرى فناء الذات فى الهو، أى فى البرهمان المبدإ الخلاق للعالم.

الخلاصة، أن أكثر الأشياء قيمة، ليس ما يقوله إنسان ما عن إيمانه، ولكن ما يصنعه هذا الإيمان بهذا الإنسان، وإلى أى مدى يحرره من اغترابه؟

أى يحرره من طموحاته الشخصية المتحققة عن طريق الإطاحة بالآخرين، ومن مشروعاته الجزئية الفردية أو القومية، التى لا تسعى إلى خلق جماعة عالمية، كسيمفونية، أوكغاية نهائية سامية للإيمان. ذلك الإيمان الذى يدعو كل الأديان للتعالى ولتجاوز الذات.

من الضرورى، فى البداية، أن نزيل النزعة الأسطورية عما هو روحى.

يجب بالتأكيد أن نصحح التوجه الخاطئ نحو عصر النهضة، حين سميت العلوم الخاصة بالوسائل وحدها باسم العقل، وذلك بتحويلها عن بعدها الأساسى القادر على تسخير الاكتشافات العظيمة لخدمة الإنسان وازدهاره، وليس لتدميره. هذا البعد الآخر هو الحكمة التى تتأمل الغايات.

وأبعد من ذلك، يجب أن ننهى الأمر بشأن انحراف الفكر الإنسانى: المفهوم القبلى لشعب الله المختار، الذى يقسم الإنسانية ما بين نخبة ومهمشين، ويمنح الأوائل الحق الإلهى للسيطرة، والاستبعاد أو حتى قتل الآخرين. وأيّا كان وضع هؤلاء الذين يمنحون لأنفسهم هذا الامتياز، وسواء كانوا عبريين أو مسيحيى أوروبا الذين بدعوى وراثتهم لامتياز النخبة، يضطهدون اليهود (الذين يظنون أنهم هم وحدهم الحائزون لهذا الامتياز) ثم المسلمين عن طريق الحملات الصليبية، ثم العالم عن طريق الحملات الاستعمارية، حتى

ينزعـوا عن الجميع هذا الحق الأسطورى فى «المستقبل البارز» الذى تمسك بمقاليده الولايات المتحدة على حساب الهنود والزنوج ثم العالم، يقدسون مملكة الدولار، وذلك بتسجيل سلطتها ذات الجوهر الدينى على كل عملة نقود ورقية خضراء: «نحن نثق بالله We trust in God».

يجب أن ننتهى أيضا من هذه القراءات المتطرفة للإنجيل والتى تجعل منه الكتاب المقدس الوحيد للإنسانية، فى حين أن كل شعب فى العالم، عاش فيما قبل التاريخ إنسانيته بإبداع الأساطير الكبرى التى تمهد الطريق عبر آلاف السنين لتحقيق الإنسانية المقدسة للإنسان. كل شعب من الشعوب لديه تاريخ مقدس، هو تاريخ الإنسان فى بحثه عن الله.

أما هذه الملاحم المصطنعة عن شعب مختار ـ والتى ليس لها من أساس سوى نص وحيد ـ فقد ترتبت عليها نتائج فائقة الخطورة مع الإدعاء بأن مسيحية ما هى وريثة هذا التقليد. لتتكيف هذه المسيحية مع هذا الانتخاب الإلهى، وتنتسب إلى الحق الإلهى فى السيطرة على العالم. لتمارس ـ بموجب هذا الحق ـ الانتهاك والاغتصاب والقتل فى حق «غير المختارين» من هنود أمريكا، والعبيد الذين جلبوا من إفريقيا، وجزء كبير من آسيا، وذلك منذ حرب الأفيون إلى هيروشيما وحتى التدمير الجماعى لڤيتنام والعراق. كل هذا باسم علوها الأنطولوچى اللاهوتى.

* * *

نحن بحاجة اليوم إلى أنبياء أكثر مما نحن بحاجة إلى ساسة. نحن بحاجة لبوذا و يسوع وغاندى أكثر من قيصر أو ناپليون. ذلك أنه ما

من شيء يبدأ مع القوانين والإمبراطوريات، كل شيء يبدأ من عقل البشر. ويبدأ مع المراجعة الجادة للأديان التقليدية، التى عن طريق فسادها الأصولى المتطرف، قد تحولت إلى علوم لاهوت متسلطة. الأصولية المتطرفة هى نزوع كل نظام ترتُّبى هرمى دينى ـ مثله مثل كل سلطة سياسية ـ إلى اختزال الإيمان فى شكل ثقافى أو مؤسسى ما، وأن تكسو هذا الإيمان بسرابيل هذه الحقبة أو تلك من تاريخها السابق. وحتى نظل فى إطار هذه الأديان المسيطرة بفعل جماعة من المسيطرين والمسيطر عليهم، فسنرى أن المسيحية لا يمكن أن تظل مسيحية قسطنطين، وريث الإمبراطورية المتمركزة فى روما، والذى عمل على فرض أيديولوچية هذه الإمبراطورية وترتبيتها الهرمية على سائر أنحاء العالم، جاهلاً أو متجاهلاً نزعات العالم الروحانية المحلية.

إن مثل هذا الدين يفرق، إنه المبرر للعديد من الحروب، فى حين أن الإيمان يوحد، ويجمع الجهود المتضامنة للتجاوز من أجل الوصول إلى هذا اليقين الذى سيظل دائما مخاطرة ومسلمة معا.

ما من إنسان يستطيع أن يدعى ملكيته للإيمان، كما لو كان يملك كنزاً، الإنسان المؤمن هو دائما على الطريق نحو بداية ما.

العالم ليس مصنوعًا من أشياء ولكن من ينابيع تدفق المعنى.

والله ليس كائنًا (مثل الأشياء)، ولكنه فعل لانهائى للخلق. من أجل ذلك فهو ليس بحاجة لأن يكون مرئيا حتى يوجد. إنه هذه الحركة التى تكمن فينا دون أن تكون لنا.

وهكذا، وفى مواجهة الذين يدَّعون نهاية التاريخ، نقول إن التاريخ مثل الأنهار ليس له من مصب آخر سوى المحيط.

إن تهيئة هذا التحول الروحانى العالمى سياسيًا، تعنى أننا يجب أن نضع نهاية لما يدعى بالعولمة التى هى مضادة للعالمية. إن العولمة مشروع إمپريالى لتسوية أو إزالة الثقافة والإيمان لدى مختلف الشعوب، حتى يفرض عليهم - علاوة على أسلحة ودولارات الولايات المتحدة الأمريكية - اللاثقافة واللامعنى التى يتحلى بها دين لا يجرؤ على التصريح باسمه، ألا، وهو دين وحدانية السوق. هذا الدين الذى لن يكون فقط نهاية للتاريخ، ولكنه سيكون موتا للإنسان وللإله الذى هو كامن فيه.

فى عام ١٩٨٥، فى أثناء رحلة البابا إلى بيرو، سلمه هنود أمريكا Andes هذه الرسالة:

«نحن هنود أمريكا، نريد أن ننتهز فرصة زيارة البابا چان بول الثانى، لنرد إليه كتابه المقدس، ذلك أنه وعلى مدى خمسة قرون، لم يجلب لنا الحب ولا السلام ولا العدل. فليرده إلى مضطهدينا، فهم يحتاجون إلى وصاياه الأخلاقية أكثر منا. لقد وصل إلينا الكتاب المقدس كجزء لا يتجزأ من النظام الاستعمارى المفروض علينا».

فى الواقع، أن المشكلة الحالية اليوم، لا تتمثل فى إزالة الطابع اليهودى فحسب، ولكن الطابع الغربى أيضا للمسيحية. هذا الطابع الغربى الذى كان يَعُدّ الكنائس من الصين إلى أمريكا وحتى إفريقيا، «ملحقات بتاريخ التبشير». كما يقول أنريك دوسيل Enrique Dussel فى كتابه «التاريخ وعلم لا هوت التحرير» Histoire et Théologie de la libération، (الذى نشره عام ١٩٧٢، وترجم إلى الفرنسية ليصدر عن دار نشر أوڤريبار Ouvrières عام ١٩٧٤)، فقد أظهر دوسيل فى كتابه - كما سيفعل ليوناردو بوف Léonardo Boff

من بعده فى كتابه «التبشير الجديد La nouvelle évangélisation» الذى صدر عام ١٩٩٢ عن دار سير-Ed; Cerf ـ أن غزو أمريكا منذ عام ١٤٩٢ ، لم يكن دعامة للمسيحية العالمية (الكاثوليكية) لدى ثقافات محلية كانت تبحث عن الله ، وإنما كان استيرادا أو جلبا لمسيحية رومانية بحر متوسطية ، محشور فيها نظام اجتماعى ، يسمح باسم التبشير ، بفرض الاستعمار الرأسمالى اللاإنسانى .

لقد كتب ليوناردو بوف يقول : « لقد تم التبشير فى أمريكا اللاتينية تحت تأثير الاستعمار» (p169) . فالتحذير الموجه إلى الهنود فى عام ١٥١٤ يقول : «**سنأخذكم أنتم ونساءكم وأبناءكم، وسوف تصيرون عبيداً لنا، نسلبكم ثرواتكم، كما نسلب الأقنان العصاة عندما يرفضون خدمة سيدهم**» .

هذا ما كان يعترض عليه دون جدوى الأب مونتسينوس Monte-sinos أول نبى للأمريكتين . والأساقفة برتولوميه دى لاس كازس Bartholomé de Las Casas وبعض رجال الدين من أمثال پيدروالقرطبى Pedro de Cordoba، والذين كانوا مغضوبا عليهم من قبل المستعمرين ، لأنهم كانوا يرفضون أن يوحدوا بين كنيسة متواطئة مع الغزاة، ساعية لتدمير الثقافات الكولومبية القديمة ، وبين مملكة الرب .

هذا الجهل التام بالآخر قد صنع بشرا معدومى الإنسانية ، منعزلين فى الطقوس والعقائد الدوجماطيقية لدينهم الذى يعتقدون أنه الأفضل ، لأنهم يجهلون أديان الآخرين جميعا . وما كان لهذه الأديان أن تكون بديلاً عن دينهم ، ولكن عليها أن تشرى دينهم بما

لديها من تجارب مختلفة للتعالى . إن المطلق الواحد لا يمكن أن يكون حكرا على كل من يعتقدون أنهم شعب الله . (أى كل أصحاب النزعات القومية والاستعمارية) .

وكما قال چان چاك روسو من قبل: «إن إلهـا يختار شعبا ويمنحه امتياز اغتصاب وتدمير الآخرين لا يمكن أن يكون إلـها للبشر أجمعين» .

الخاتمة

والآن ؟

بعد هذه الرحلة الشاقة، المخالفة للمألوف، ما من أحد - كما أتمنى - سوف ينتظر خاتمة لهذا الكتاب، أى إجابة سديدة، مغلقة، عظيمة وساحرة .

ذلك أن ما يضع فلسفة الفعل فى تعارض مع فلسفة الوجود هو أنها ليست من باب الإجابة، ولكنها من باب السؤال .

إن ما يميز فلسفة الوجود بشكل جوهرى هو «الإقامة فى الوجود والتحدث عما هو موجود»، سواء أكان ذلك فى شكل وضعى تجريبى يصدر عن معطيات حواسنا(التى نتلقاها مرة واحدة وللأبد)، أم كان فى شكل عقائد دوجماطيقية، تدعى أنها عقلانية تدافع عن أفكار خالدة أو فطرية أو موحى بها، ولكنها فى كل الأحوال أفكارثابتة، لاريب فيها، مثل البديهيات .

وعلى العكس من ذلك، فإن ما يميز فلسفة الفعل هو وعيها بمسلماتها، وبحتمية مراجعة هذه المسلمات ووضعها موضع تساؤل . مثل نائم ينتزع ذاته من سكينة السبات، وباهر الأحلام، ليستيقظ فى غمار عالم متحرك . بهذا يصبح النائم واقفا، تهاجمه اليقظة، ويهاجم هو من أجل الممكن .

البعض يسمون هذه الحالة بعثا، والكلمة فى حد ذاتها مفرحة، إذ توحى بفعل القيام، القيام حتى من بين الموتى.

معًا، وعلى مر هذه الصفحات، سألنا أنفسنا، ووضعنا أنفسنا فى وضع نسبى، فربما كانت طبيعتنا تعنى الخضوع والاندماج فى طبيعة سائدة بل وعالمية. ولكن الانفصال، أو على الأقل، هذا الجهد المبذول للانفصال عن مواجهة ما يقدم لنا غالبًا على أنه طبيعة الإنسان، هو الثقافة. فالثقافة هى كل ما نضيفه إلى الطبيعة، وكل ما يصنع منا إنسانا وليس مجرد حيوان أرقى. أى يصنع منا شيئا آخر غير الحيوان: إنه ما نتعالى به. هنا أيضًا توجد كلمة للتعبير عن ذلك: الله، والإلهى. وربما كان من الأفضل، منذ البدء، ألا نستعملها: أولاً لأن الله اسم، وهذا يستدعى أن نبحث عما وراءه من مسمى، عن وجود، وإن كان الوجود الأسمى. آه، وماذا لو كان الله كلمة، أو فعلا؟ يكون هو الذى يجعل الوجود يولد. فالإلهى، هى الصفة التى غالبا ما يساء استخدامها، وتمثل خطورة، أيضًا. لأنها أولاً توحى بأنه ستكون هناك محاكاة لهذا الموجود الأسمى، الذى يساء تعريفه دائما، على مر التاريخ. فنحن لن نستخدم هذه الصفة حين يكون هناك ثمة محاكاة حرفية له. وإنما حين يكون هناك إبداع، على طريقة يسوع، شاعر الحياة بامتياز.

هذه البصيرة بالأشياء، أو بشكل أكثر تواضعا، هذا الهدف، قد شاب منهج البحث فى هذا الكتاب بالفوضى غير المتوقعة. لكن الأمر فى هذا الكتاب لا يتعلق بعرض منطقى أو تعاقبى لتاريخ الفلسفة، يقدمه الأستاذ المعلم الفلانى، المعلم المطلق كما لو كان بديلا عن الله، إن آخر من حاول هذا الأمر هو العملاق الأخير هيجل الذى لم يخلف إلا مقلدين له يعانون الأمرين معًا: التقزم والاكتفاء المتحذلق بالذات. وليس من الضرورى أن نذكر أسماء هؤلاء.

أما كتابى هذا عن فلسفة الفعل، فهو ليس مكتوبا بقلم أستاذ معلم، ولكن بقلم طالب، طالب عجوز. فبالفعل، هو يقترب من الـ ٨٥ عاما، ولكنه مازال طالبا، لأنه لم يكف عن الدهشة. الدهشة أمام سذاجاته الخاصة، وأمام الادعاءات التى ينشرها المتلاعبون بالحقائق المتداولة، المديرون المعصومون للفكر الأحادى، والصحيح سياسيا، وأصحاب الأرثوذوكسية الدينية، أو التنوعات الجمالية لهذا العدم.

يوجد فعلاً فى هذه الصفحات بدايات لتاريخ الفلسفة، ولكنها ليست مبنية بحسب منطق الأسباب.

ربما انطلاقا من طموح واسع جدًا، أو متواضع جدًا، لا أعرف، تعيد هذه الصفحات تخطيط ـ مع ما فى ذلك من المغامرة ـ مراحل حماستى وإحباطاتى. حاولت فيها أن ألتقى (ولا أجرؤ على القول بأنى أكتشف) الحدود والتدليس الذى نجده عند بابوات الغرب عبر آلاف السنين، منذ أرسطو وحتى القديس بولس.، أو من ديكارت حتى أوجست كونت. وأريد أن أقدم توضيحا مصغرا لذلك وهو ـ إطلاق كلمة فلاسفة كماركة مسجلة على الأيديولوچيين الإنجليز فى شركة الهند.

هذا الكتاب عمل كبير يتجاوز عمر إنسان، أن نُدين ثلاثة آلاف عام من مسلمات مأخوذة على أنها قيم عليا، أو أن نتراجع إلى الوراء من أجل انطلاقة ضرورية لتجاوز الحدود التقليدية.

سأكون قد حققت جزءا من هدفى، إذا نجحت فى أن أنقل للآخرين، الأكثر شبابا، الرغبة فى استكمال هذه المهمة. لكن الأمر لا يتعلق فقط ببرنامج تأملى متسائل، بل سيكون أمرا عظيم الشأن أن نفهم أن كل فلسفة، لا تهيئ الإنسان للبحث عن معنى لحياته،

ولأن يَعُدّ نفسه سؤالاً فى مجتمع كونى، وأن يتصرف وفق هذه المبادئ، لا تستحق أن تحمل اسم «فلسفة».

ولكن هذا الوعى يقتضى تغييرا فى أسلوب الحياة والحركة: أى يقتضى فقط فكرا واعيا بمسلماته، يتحرك بصورة خلاقة، وبنوع من الاستباق، سواء تعلق الأمر بفروض علمية، أو بأفعال الإيمان، أو بيوتوبيات اجتماعية، تسمح لنا بالتعامل مع العالم وتعديله.

المسيرة الأولى تجعل الفلسفة قريبة مما نسميه - بشىء من اللبس - لاهوتا. وكأننا يمكننا الحديث عن الله، وكأننا لا نستطيع، وبدون كلام، أن نتحسس وأن نحدد اقتضاءات حياة تسكنها الحياة كلها.

وهذه هى الثقافة: مجمل العلاقات التى يلتزم بها فرد أو مجتمع مع الطبيعة ومع البشر الآخرين، والبحث عن غاياتهم الأخيرة، تلك التى يسميها البعض «الله»، ويسميها الآخرون «الحكمة».

فى هذا البحث عن معنى الحياة، نجد الملحمة والرواية والعقيدة والتصوف قد وفرت لرغباتنا ما يلى: فى التراث الغربى أثار كل من أسخيلوس، سوفوكليس، أريستوفان(*) انتباهى إلى معنى الحياة أكثر من الفلسفة الإغريقية، حين انفصلت عن الفكر الشرقى، ذلك الفكر الذى أثر تأثيرا ملحوظا - على سبيل المثال - فى هيراقليطس قبل أن يعرف تساؤل سقراط عبر دوجماطيقية أفلاطون.

كان ينبغى أن يكون هناك كازانتزاكيس(*)، لكى يبعث، مع كتابه «الأوديسا» أعلى رغبات الإنسان الخالدة والمتسائلة دومًا.

(*) شعراء يونانيون عظام، كتبوا التراچيديا اليونانية فيما بين القرنين الخامس والثالث قبل الميلاد.

ولم تعلمنى روما بجنودها وبنائيها وفصحائها شيئًا حيّا ، أو قابلاً للحياة. ومن فرنسا ، أجبرنى كل من : رابليه Rabelais وپاسكال Pascal ، ثم ڤيكتور هوجو Victor Hugo ، ورولان بارت Roland Barthes وموريak Mauriac وبرنانوس Bernanos ، وكلوديل Clau-del ، وسان چون پيرس Saint John Perse ، على اليقظة أكثر من أى فيلسوف محترف فى أى بلد ، ربما باستثناء ليبنيتز Leibneiz وكانت Kant وفيختـه Feichte ، وكذلك تعلمت من فاوست ومن فيلهلم مايستر Wilhelm Meister لجوته Goethe .

تعلمت بعد ذلك من مجانين الله الذين كانوا حكماء حقيقيين : من يواشيم دو فلور Joachim de Flore إلى كاردينال دوكو Cardinale de Cues ، والمعلم إيكهارت Eckhart ، وسان چان دى لاكروا Saint Jean De La Croix ، وكركيجارد ، و دوستويوفسكى ، ونيتشه أكبر من اجتاز الحدود بعد يسوع .

كل هؤلاء مثل الآباء القساوسة فى كاپادوس Cappadoce بآسيا ، وكليمنت الإسكندرى فى إفريقيا . بهذا الإيمان الأساسى والأولي ، أو بهذه الحكمة الموحدة ، والملقحة عالميا ، التى ولدت فى الصين مع الطاو : «الوجود كواحد مع الجميع» ، كما كتب أحد أكبر المفكرين فى جميع العصور : تشوانج تسى Tchouang - Tseu .

أيمكن أن نجد فى الذات نفحة الحياة الخلاقة ، وأن نكتشف أن ما هو شخصى فينا هو الفعل المبدع للحياة الكونية باستمرار : « أنت هو

(*) كازانتزاكيس : (١٨٨٥ ـ ١٩٥٧) كاتب يونانى حصل على جائزة نوبل . ومن أهم أعماله : «المسيح يصلب من جديد» و«زوربا اليونانى» . وله ديوان شعر : «أوديسا» .

هذا»؟ نعم نستطيع أن نكتشف هذا فى القيدا الأوبنشاد، فى الرامايانا Ramayana(*)، فى باجهاڤاد جيتا Baghavad Gita، وفى شنكرا Cankara فى راداكريشنا Radhakrisnan.

لقد كان الشعراء والمتصوفة وذوو البصيرة فى الإسلام روادا عظماء لهذا الإيمان الكونى. منذ الكتب الكبرى الروحية «الإنسان الكامل» أو الأعمال الصوفية لابن سينا والسهروردى، إلى «منطق الطير» لفريد الدين العطار، والكتاب العظيم «مثنوى» للرومى، (والذى سمى أحيانا بقرآن الفرس)، والمؤلفات العملاقة لابن عربى فى إسپانيا الأندلسية، وأخيه الروحى، مع فارق ثلاثة قرون، القديس چان دو لاكروا. وتضعنا هذه الأعمال العظيمة على ما يتميز به الإسلام بالنسبة لأديان الوحى الثلاثة: يتميز الإسلام بروحه الكونية التى تعترف بكل الرسل، وتجعل من إبراهيم «أبا للمؤمنين» كما يقول القرآن الكريم، ومن يسوع خاتم القداسة، كما يقول ابن عربى فى «حكمة الأنبياء»، فهى تتلقاهم جميعا كرسل لله.

التأمل الأساسى للإيمان الكونى يوجد فى أجمل التقاليد الإبراهيمية منذ «حى بن يقظان» لابن طفيل (١١٠٠ ـ ١١٨٥) إلى «رسالة فى اللاهوت والسياسة» لأسپينوزا (١٦٣٢ ـ ١٦٧٧) «شهادة إيمان الأسقف السافوياردى» (Profession de foi du vicaire Savoyard) لچان چاك روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧١)، إذ نجد أن النبع المشترك لكل إيمان ـ لدى كل من المسلم واليهودى والمسيحى ـ قابل

(*) الرامايانا: هى مجموع القصائد المقدسة للهندوس، وهى ذات طابع ملحمى، ومنها عدة نسخ ترجع إلى القرن الخامس ق.م. وقد ترجمت إلى عدة لغات وعرفت رواجًا كبيرًا فى مختلف أنحاء العالم.

للتوصيل، كما كتب الأب بونهوفر Bonhoeffer في سجنه أيام النازي، في كتابه «إلى عالم بلا إله».

إن مظاهر الاحتفال البابوي لاتعني يقظة الإيمان، كما لا تعني هذه المظاهر الاحتفالية لمطربي الروك يقظة الموسيقى أو الثقافة، ولا نجاح جماعة مون Moon(*)، ولا العروض الإعلامية للعظات التليفزيونية للأمريكيين الموقرين سادة (البيزنيس Business) الديني.

إن وباء انتحار ٤٠ ألف مراهق في فرنسا (كما هو الحال أيضا في البلاد المتقدمة، حيث نموت لا من نقص الوسائل كما هو الحال في العالم الثالث، ولكن من غياب الغايات) هو السبب الرئيسي للوفيات لدى الشباب، وهو وباء لايمكن أن يقضي عليه الأطباء النفسيون، الذين يشبهون كلاب السان برنار(**)، أو يشبهون الأرض الجديدة المنقذة للأفراد الضالة. ما يفتقده هؤلاء الشباب هو مشروع كبير يستحق أن يعاش من أجله، في مواجهة تفكك النسيج الاجتماعي بواسطة وحدانية السوق، وفي مواجهة الفقر الروحي والهروب إلى سماعات الصوت العالي والمخدرات والموت.

لقد ولد هذا المشروع خارج إطار الغرب، ولد ليس فقط من أجل خلق وحدة منسجمة للعالم، أو إتاحة الإمكانات الاقتصادية والسياسية والروحية، لكل من يقف على باب الله، أيا كان أصله، ليوظف إلى أقصى مدى ما يحمله بداخله سواء أكان مايكل أنجلو أم

(*) طائفة دينية جديدة يتزعمها رجل أعمال كوري وتنتشر أساسًا في الولايات المتحدة.

(**) نوع من الكلاب يستخدم للحراسة ولإنقاذ الأشخاص التائهين في الجبال.

كيو هسى Kuo Hsi، لا من أجل كل ذلك فحسب، بل أيضا من أجل الخلاص من الأنانيات المقدسة للأفراد، التى لا ترتفع إلا على حساب تضاؤل شأن منافسيهم فى الغابة، والخلاص من الشعوب المختارة المستعبدة للآخرين.

المشروع الكبير، هو مشروع ضد النزعة الفردية المنعزلة فى جزيرتها القفر، هو مشروع المجتمع حيث كل امرئ يرتبط بالحياة، بدافع من مسئوليته تجاه الآخرين.

هذا الإيمان، الذى يعبر عن نفسه فى الحركة، هو إيمان يسوع الذى هو فى سبيله إلى الميلاد من جديد، حيث يريد أساقفة روما أن يقضوا عليه لدى: العمال «القساوسة» الذين يجربون ما يفوق قدرة البشر، وجماعات القاعدة العريضة فى البرازيل، الذين كانوا ومازالوا يمثلون التربة الإنسانية الخصبة للاهوت التحرير، ولدى من يبحثون عن هذا الإيمان المنبثق من قلب كل نزعة روحية حية ومناضلة فى هذا العالم. لقد كان الأب مونشانين رائداً لهذا المجال من خلال جهوده «لإعادة التفكير فى الهند كمسيحى، والتفكير فى المسيحية كهندى»، وقد خلف من واصل الطريق من بعده: مثل رايموند پانيكار Raimundo Panniker فى إسپانيا، ورينيه چينون René Guénon فى فرنسا ـ وهم يتعاملون مع الإسلام كما عامل القرآن يسوع ـ، ومثل الأب حجبة Hegba فى إفريقيا الذى غرس يسوع فى أعمق الأغوار الروحية الزنجية.

هذا المشروع الأخوى لا علاقة له بالانتقاء، أوالتلفيق. إنه تعبير عن إيمان حقيقى فى التعالى، إذ إن الله لايقارن بأى معرفة إنسانية

تزعم تحديده، أى تحبسه فى ثقافتها الخاصة. نحن محتاجون إلى من يحاولون نفس المشروع، انطلاقا من ثقافتهم الخاصة. فبمثل هذا فقط نستطيع أن نحطم حدودنا، وأن نثرى إيماننا، وأن نفهم خصوصيتنا من خلال تواصل داخلى عميق مع ثقافة وإيمان الآخرين. إنه مما يزيد فقر النفس أن أعتقد أن دينى هو الأفضل، وذلك فقط لأنى أجهل كل الأديان الأخرى.

هـذه هـى النتائج القصوى للتعارض بين فلسفـة للوجـود وفلسفة للفعل.

الأولى: فلسفة للوجود، تفترض وجود طبيعة يمكن للإنسان أن يستخلصها من معطيات ما، وأن يجمعها وفق وسائل شتى بحسب تصنيفاته وبحسب منظوره لمراتب الوجود. ابتداء من هنا يمكن التلاعب حتى تكنيكيا بهذه الطبيعة، ولا يستطيع المرء أن يعزو لها أى غايات مختلفة عن غايات خالقها الأول (أو يسند إليها قوانين خالدة إذ يجد الخلق قد تم مرة واحدة وللأبد). بعبارة أخرى، فى هذه الحالة يكون للإنسان طبيعة لا يستطيع أن يتعالى عليها.

الثانية: فلسفة للفعل، تقوم هى أيضًا على مسلمة هي: قدرة الإنسان على أن يتعالى على هذه الطبيعة، وعلى أن يعمل على إبداعها المستمر، فى هذه الحالة ليس للإنسان طبيعة، بل له تاريخ. تاريخ إبداعات ثقافته، التى تميزه عن الحيوان.

إذا كان للإنسان ـ كالحيوان ـ مثل هذه الطبيعة، لما تجاوز الحدود التى تفرضها البيئة لبقائه. فلكى يتم تجاوز بضعة الملايين من البشر الذين سكنوا الأرض خلال ملايين السنين، كان يجب أن يخترع الإنسان الزراعة لغذائه، والصناعة لتحسين محيطه وحمايته.

باختصار كان عليه أن يبدع ثقافة تسمح بتضاعف النوع .

من أجل هذا كان يجب على الإنسان ـ فيما وراء الانحرافات الثابتة لغريزته ـ ألا يكتفي باستخدام المواد في هذه الطبيعة الأخرى التي تحيط به وتحتويه وتجبره ، وكان عليه أن يضع مشروعًا يوجه عمله الخاص ، وأن يحدد تنظيما لهذا العمل ، وللمجتمع الذي كونه ، وأن يعزى إليه غايات وأبنية ، ليست مسجلة في قوانين الغريزة الداخلية أو قوانين البيئة الخارجية . هذا الانبثاق للمشروع هو ما يميز جذريًا بين الإنسان والحيوان .

هكذا وبالتالي ، تؤدي كل نزعة تجريبية منظمة بحسب تعبيرات شارل موراس - Charles Maurras منظر الرجعية الأكثر صرامة ـ إلى الخضوع للأمر القائم ولتطوراته الطبيعية الخطية . وهو ما نجده في كتاب «العناية» لبوسوا Bossuet ، و«التقدم» لكندورسيه Condorcet ، «وقانون المراحل الثلاث» لأوجست كونت . وتمثل هذه الأعمال ثلاثة تصورات علمانية لنفس الأمر .

إذعان أو تمرد ، تعاون أو مقاومة ، أولنقل بمصطلحات حديثة نسبيا ، هذا هو الاختيار الحيوي ، وكل فلسفة لا تساعدنا على القيام بهذا الاختيار ، ليست إلا أيديولوچيا لتسويغ ما هو موجود ، أو لما سيصير إليه الحال بدوننا ، مثل تزايد الإنتاج والاستهلاك .

هذا الاختيار هو ما أردنا اقتراحه من خلال جهودنا لتفسير الفلسفات حسب الاقتضاءات التاريخية للمسيطرين أو المسيطَر عليهم . المسيطرون يبررون سيطرتهم باسم التجريبية أو باسم العقل الخالد ، والمسيطَر عليهم لهم حق الاختيار بين قبول هذه

الرؤية أو التمرد عليها، والرهان على مستقبل لا يكون مجرد نتيجة للماضي وكأنه قدر إلهي أو مجرد انحرافات آلية في حتمية لاپلاسية Laplacien(*) .

ضد حصار كلمة «هو هكذا»، نبقى على هذا الاختيار الذي كان اختيار جراسكوس بابوف Gracchus Babeuf(**) عندما كتب عشية موته على المقصلة التي أرسلته إليها حكومة الديكتاتور في ١٨ من مايو عام ١٧٩٧، يقول مخاطبا صديقه فليكس لوپيلتييه Félix Lepelletier : «يوماً ما عندما يتباطأ الاضطهاد، ربما عندما يمكن للبشر الأخيار أن يتنفسوا بحرية تمكنهم من إلقاء بعض الأزهار على قبرنا، وعندما نصل إلى التفكير من جديد في الوسائل التي تتيح للنوع الإنساني السعادة التي أردناها له، يمكنك أن تبحث، وتقدم للجميع، هذه الشذرات التي تحتوى على كل ما يطلق عليه الفاسدون اليوم مجرد «أحلامى» .

٢٠ من مايو عام ١٩٩٨

(*) نسبة إلى لاپلاس (١٧٤٩ ـ ١٨٢٧) رياضي وفيزيائي وعالم فلك من العلماء الفرنسيين، استطاع أن يطور نظرية نيوتن و أن يضع النظرية التحليلية للاحتمالات، وينسب إليه قانون لاپلاس في الرياضة.

(**) بابوف: (١٧٦٠ ـ ١٧٩٧) ثوري فرنسي، وضع نظاما للشيوعية وللمساواة بين البشر، أدين على أثره وحكم عليه بالإعدام.

هوامش الكتاب

١ ـ انظر كتابى les Etats-Unis avant-garde de la décadence 1997, (Ed. Vent du large) . والذى ترجم إلى العربية فى دار الشروق بعنوان «أمريكا طليعة الانحطاط» .

٢ ـ بيانات فرنسا الإحصائية .

٣ ـ Susan Georges, jusqu'au cou, (Ed. de la découverte, P.39) .

٤ ـ انظر حول هذا التدليس الكتاب المهم للأب جوستافو جوتيريز Gustavo Guttierez (كاتب من بيرو من كتاب (لاهوت التحرير) الله أو ذهب الهند الغربية .

Dieu au l'or des Indes occidentales, (Ed, le Cerf, 1992).

٥ ـ بعد مضى نصف قرن، المقارنة ما زالت مدهشة، معونة مادية واقتصادية وعسكرية مكثفة منحت لصدام حسين الذى اعتبر بدوره حاجزاً ضد إمبراطورية الشر الجديدة: الإسلام. وبعد فشله، تم تشكيل حلف بزعامة الولايات المتحدة لتدمير هتلر الجديد. وهذا يبين استمرارية مشروع المركزية الغربية فى مرحلة الانشطار الثالث التى فصلناها فى هذا الكتاب .

٦ ـ كل المراجع تجدونها فى كتابى «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» .

٧ ـ المذكرة ٢٠٠، حول الأمن القومى، قد تم إخراجها من السرية فى ٦ من يناير عام ١٩٩٠ وهو ما يعنى أنه يمكن الاطلاع عليها فى دار الوثائق القومية بالولايات المتحدة فى واشنطن.

٨ ـ انظر فى هذا الموضوع كتاب پول مارى دولاجورس Paul Marie de la Gorce «الحرب المجهولة»-Une guerre inconnue, (Ed flam-marion, 1955, p 49 à 160).

٩ ـ المصدر برنامج الأمم المتحدة للتنمية، PNUD تقرير عام ١٩٩٢.

١٠ ـ إن التفاوت البشع فى المرتبات يوحى بهذا الانشطار فى المجتمع، فهناك عشرون صاحب عمل فى فرنسا يكسب كل منهم أكثر من مليون فرنك فى الشهر أى أكثر مما يكسبه عامل عادى خلال عشر سنوات من العمل، من بينهم چان لوك لاجاردير Jean Luc La-gardére مدير شركة ماترا ـ هاشيت Matra-Hachette وهى من أعمدة الفكر الأحادى، وچى ديجواى Guy Dejouany رئيس شركة المياه، وسيرج تشروك Serge Tchuruk مدير شركة ألكاتل Alcatel، وليفى لانج Levy Lang رئيس بنك باريبا Paribas، وكلود بيبير Claude Bebear، رئيس شركة أكسا Axa، ولويس چيرشتاين Louis Gerstein، رئيس شركة IBM، والأكثر غموضا چاك كالفيه Jacques Calvet المدير العام لشركة بيچو، والذى كان يرفض فى العام الماضى أن يعطى للعمال أى علاوة فى المرتب لأن ذلك سيجعل الشركة فى خطر، فى حين أن مرتبه هو قد ارتفع بمعدل ٤٦٪ فى مدى سنتين وكان يصرح بأن مرتبات المديرين لا يقبلها ولا يتفهمها عمال القاعدة Le Nouvel Observateur: 4 octobre 1995. p. 66.

وعدد كبير من هؤلاء السادة ومن على شاكلتهم قد حققت معهم النيابة العامة بتهمة إهدار المال العام مثل پيير سوارد Pierre Suard رئيس شـركـة الكاتيل وبينو ڤـالنسـيـيل رئيس شـركـة شنايدر Schneider .

وعلى المستوى الدولى يأتى فى المقدمة ميشيل آيسنر Michael Eis-ner مدير عام شركة والت ديزنى Walt Disney أكبر شركة لمعاداة الثقافة وغسيل مخ الأطفال، وبعده مدير عام كوكا كولا ثم بعدهما بوبر مـارك Buber Mark مدير كولجيت - پالموليف حيث يربح كل منهم أكثر من عشرة ملاييـن دولار فى السنة .

ومع ذلك يصرح لنا المعهد القومى للإحصاء بأنه فى مارس عام ١٩٩٧ ، هنـاك ١٠٪ مـن الفرنسيين يعيشون تحـت خـط الفقر، فـهنـاك ٥ مـلاييــن (وإحـصـائيـات أخـرى تقـول ٨ مـلاييــن) ضحايـا للفقر .

وهذا أولا بسبب البطالة التى تصل إلى ١٢٪ من جـملة السكان فى سن العـمل . ولكن هذا الرقم يخفى واقـعًا أكـثر قسـوة، هو المرتبـات العـابرة الناتجة عن العـمل المؤقت (والعـمل المؤقت هو المنهج الأمريكى فى إخفاء عدد العاطلين) .

وعــدد «مطاعـم الصــدقــة» Restaurents du coeur التى تســمح لآلاف الفرنسيين أن يأكلوا وجبـة على الأقـل كل يوم قد ازداد فى الوقـت الذى حقق فيه المضاربون فـى البورصـة أرقامًا هائلـة وفى الوقــت الــذى تؤكــد فـيـه الصـحـافـة أن حـالة الاقـتـصـاد الفرنسى مطمئنة .

وفى عام ١٩٩٠ كـان هناك فى الولايات المتحدة مليونـان ونصف المليون من الأغنياء الذين يحصلون على دخـول معادلـة لدخول

مـائة مليـون من الفـقـراء فى نفس البلد (مكـتـب مـيـزانيـة الكونجرس، ١٩٩٩).

١١ ـ انظر باللغة الفرنسية، «التعليم : ممارسة للحرية» L'Éducation: pratique de la liberté (Ed. Cerf. 1978)، و «تـربـيـة المضطهدين» Pédagogie des opprimés (Ed. Maspéro 1974).

١٢ ـ انظر كـتـابه Lettres á la Guinée Bisseau sur l'alphabétisation «رسائل لغينيا بيساو حول محو الأمية» (Ed. Maspéro, 1974).

١٣ ـ هذه النصوص التى استقيتها من مصادرها (فى المكتبة الوطنية) نشرت عام ١٩٧٧ فى كتبى «من أجل حوار الحضارات» و«الغرب عـابر» Pour un dialogue des civilisations. L'occident est un accident. (Ed. Denoel p. 53 à 65) وفى « المـلـفـات التـربوية» Dossiers pédagogiques حيث قمت بتجميع الوثائق المتعلقة بتدليسات تاريخية أخرى وخصوصا أسباب الحربين العالميتين.

١٤ ـ انظر كـتابى «فلسطين أرض الرسالات المقـدسـة» La Palestine terre des messages divins (Ed. Albatros 1986). النـص الكامل بالعبرية والفرنسية لهذا البرنامج فى «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» (Ed, Samizdat 1996).

١٥ ـ لأنهم لـم يستطيعوا أن يجعلـوا : مـا هـو عـدل قـويّا، فقـد جـعلـوا مـا هـو قوى عـدلاً. (پاسكـال ـ خـواطـر ـ الجـزء الخامـس، ٢٩٨) (Pascal, pensées, V, 298).

١٦ ـ انظر المرجع السابق ص ٤٩.

١٧ ـ بالطبع كـمـا حدث مع كـتابى لـم يكن هناك أى نقـد مـوضـوعى للتسلسل، فالمسلسل حدث له ما حدث معى من إدانة.

(أ) المخرجة رومى ڤايس ـ بروكوڤيتش Romit Weiss-Berkowitz تلقت مكالمات مجهولة تهددها بالموت من نوع «سنقتلك يا يسارية يا مناصرة العرب»، مشابهة لما تلقيته من مكالمات: «لن يمر عليك الربيع، سنقتلك حيث لا تتوقع».

(ب) وزيرة الإعلام فى حكومة نتينياهو، السيدة ليڤور ليڤنا Livor Livnat، طلبت منع الفيلم مع اعترافها بأنها لم تراه. (كما أن نقاد كتابى لم يقرءوه) ولكنها لم تنجح فى منعه، فقررت ألا يرى ابنها البرنامج، لأنها لا تسمح بأن نعرض موقف المعسكر المضاد، بالضبط كما خضعت أنا لحكم نتيجة لأسباب رفضتها محكمة الاستئناف فيما بعد عام ١٩٨٧.

١٨ ـ فى حين أنه فى نفس الفترة، كانت الأعمال الفلسفية للفيلسوف المعاصر له هنرى لوفيڤر Henri Lefévre مثبتة على قائمة أوتو Otto، قائمة الكتب المحظورة بواسطة النازى.

١٩ ـ الأب چونزاليز فاوس Le Père Gonzalez Faus, كتب فى عام ١٩٩٢ فى كتاب (الصعود ليسوع) (ACCESSO A JÉSUS): «الله الذى يبشر به يسوع ليس هو إله العهد القديم» P102.

إيتيل برت شتوفر Ethelbert Stauffer: «يسوع وتاريخه» ١٩٦٠، يعلن يسوع عن رسالة جديدة للرب، دين جديد وأخلاق جديدة ليس لها أى صلة بالتوراة.

هذه المبادئ لا شبيه لها فى التعاليم اليهودية. وفى هذه النقطة تظهر أصالة تعاليم يسوع حول مملكة الرب. p.46 (شارلز هارولد دود: مبادئ مملكة الرب) Charles Harold Dodd: Les paraboles du royaume de Dieu.

المحتويات

رقم الإيداع ١٥٨٢٩ / ٩٩

الترقيم الدولى 4 - 0584 - 09 - 977

مطابع الشروق

القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت.٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب. ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

كيف نصنع المستقبل؟

يسعى هذا الكتاب لأن يقدم بداية للإجابة عن هذا السؤال، كيف يمكن بناء القرن الحادى والعشرين، بحيث لا يغتال أطفالنا؟

علينا ألا نستهين بثقل المهمة. نحن نعيش قلقاً ناجماً عن مرحلة تاريخية إعتقد الغرب فيها أنه الشكل الوحيد للثقافة وللحضارة باعتباره الشعب المختار، فارضاً على العالم سيطرته.

ينبغى إذن أن نستعيد اللحظة التى بدأ فيها هذا الخطأ فى المسار، والكوارث المتعاقبة التى ترتب عليها، ثلاثة انشطارات للغرب تؤدى إلى عالم متصدع.

هناك ألفا عام يعاد التفكير فيهما، وألف ثالثة للبناء كى تخلق بينهما وحدة. يا له من مشروع مجنون! نعم، ولكن لا مفر من الشروع فيه فى لحظة قادتنا فيها حكمة الحكماء إلى شفا الهاوية.



دار الشروق